

كتابى
١٦
الجزء الأول
د. چيڤاجو
بوريس باسترناك
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد

د. چيڤاجو

بوريس باسترناك



الجزء الأول

راجعها وحققها ، على النصين
الإنجليزى والفرنسى
حلمى مراد

هذه القصة ..

عرض وتعليق بقلم : الدكتور طه حسين

اما ان القصة رائعة فائقة الروعة ، فشيء لا يشك فيه إلا الذين لم يقرءوها ولم يتعمقوها ، او الذين تقصر أذواقهم عن اساغة الأدب الرفيع !

ولكنها تحتاج فى قراءتها وتعمقها إلى صبر ، اى صبر . وإلى الأناة كل الأناة .. وربما احتاجت إلى أن تقرأ مرتين او أكثر من ذلك .. وربما احتاجت إلى ان يعيد القارئ قراءة بعض فصولها غير مرة !

ومصدر ذلك اولا انها طويلة شديدة الطول ، تتجاوز صفحاتها المئات الست . وإن أشخاصها من الكثرة والاختلاف ، وتباين الأهواء والأمزجة ، بحيث يصعب على القارئ استحضارهم فى ذهنه منذ يبدأ القصة إلى ان يتمها .. ولأن اماكنها متباعدة اشد التباعد ، بمقدار ما يكون من التباعد فى بلاد متنائية الأطراف كالبلاد الروسية ، التى تختلف اقطارها فى طبيعة الجو ، والإقليم ، واللغة ، والذوق ، وغير ذلك من العادات والتقاليد ..

ولأنها آخر الأمر لا تقع فى عام او عامين ، او اعوام قليلة .. وإنما تبدأ فى اوائل هذا القرن وتنتهى عند ثلثه الأول ، او قبله او بعده بقليل .

فكل هذا يفرق نفس القارئ ويجعل جمع احداثها فى ذهنه عسيرا اشد العسر .. واعترف بأنى قرأتها للمرة الأولى ، ثم اضطررت إلى ان اعود إلى قراءة فصول مختلفة منها . وانا بعد هذا كله عاجز عن تلخيصها !

وما احسب ان غيرى من النقاد يبلغ من هذا التلخيص ما قصرت عنه ، لكل هذه الأسباب التى ذكرتها آنفا .. فحسبى إذن ان اصور الخصائص التى تمتاز بها هذه القصة من القصصى الروسى المعاصر الذى اتيح لى ان اقراه .

* * *

فالقصة تبدأ – كما قلت – فى اوائل هذا القرن ، قبيل الثورة التى شبت نارها فى روسيا سنة ١٩٠٥ . وهى تحدثنا عن صبية يختلفون إلى المدارس وعن اسر هؤلاء الصبية . وهى تصف لنا ادق الوصف واقواه ما يضطرب فى نفوس هؤلاء الصبية من الخواطر التى تثيرها الأحداث من حولهم ، ولا سيما حين تمس اسرهم من قريب او بعيد .. وما تثيره فى نفوسهم من الخواطر تلك الحركات الاجتماعية .. حركات العمال حين يضربون عن أعمالهم ، فيملأون شوارع موسكو ضجيجا وعجيجا واضطرابا .. وحركات الشرطة حين تفرق مظاهرات العمال ومظاهرات الطلاب ايضا .. وتأثير هذا كله فى نفوس هؤلاء الصبية الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة بعد . وهى حين تتعرض لأسر هؤلاء الصبية لا تقف عند تأثر هذه الأسر بالأحداث ، وإنما تضطر إلى وصف حياة الآباء والأمهات ، وتصوير سيرهم واحاديثهم وحكمهم على الأشياء .

.. وتتردد اصداء هــذا كله فى نفوس هؤلاء الصبية فتصوغها وتطورها ، وتحدث فيها الوانا مختلفة من التأثر .. وإذا هم يفكرون فى أشياء لم يتعود الصبية أن يفكروا فيها ، فيألمون ويحزنون بما لا يؤلم الصبية ولا يحزنهم عادة .

والقصة على هذا كله تصاحب هؤلاء الصبية فى مدارسهم الاولى ، والثانوية ، وفى الجامعة على اختلاف كلياتها . فهى تصحبهم من الصبا إلى اول الشباب ، حين تدهمهم الحرب العالمية الاولى فيدفعون إليها دفعا .. منهم من تفرضها عليهم سنهم ، ومنهم من يتطوعون لحرب العــدو حبا لوطنهم ودفاعا عنه ..

وتصور القصة اثر الحرب فى حيــاة المدنيين المــادية والمعنوية جميعا .. كما تصور عمل هؤلاء الفتيان فى الميدان وبلاءهم فى الحرب ، حين تتقدم الجيوش الروسية وحين تضطر إلى التقهقر .. وفى اثناء ذلك تحدث الثورة الكبرى سنة ١٩١٧ ، فتصف القصة صدى هذه الثورة فى الجيش ، واضطراب الجند وضباطهم بين مصمم على القتال ومؤثر للسلم والعافية .. حتى إذا وصلت أوامر الثورة إلى الجيش زاد اختلافهم وتفرقهم .

※ ※ ※

ثم يكون الصلح الذى انفردت به روسيا من دون حلفائها .. ولكن الثورة قد اثرت فى كل شيء : فى حيــاة الجنــود المحاربين ، وفى حياة المدنيين القلقين .. وإذا بالأمور كلهــا

تختلط أشد الاختلاط .. وإذا الناس بين مؤمن بالثورة ، مخلص لها ، مندفع معها حتى تبلغ ما رسمت لنفسها من غاية .. ومنكر للثــورة ، جرىء على الإنكار ، ومشفق من الثورة يخشى عواقبها ، ويخشى مقاومتها ايضا !.. وقد اخذت الحياة تشق على الناس وتضيق بهم : طبيعة قاسية من جهة ، وتعرض للجوع والبؤس من جهة اخرى .. وفرار من المدينة إلى حيث يمكن أن تلين الحياة ويكفل الأمن .

وتتبع القصة بعض هؤلاء الفتية الذين عرفناهم فى طور الصبا ، فلا تفارقهم حتى تنتهى حياتهم أو تنتهى القصــة عنهم وهم أحياء .. منهم من هاجر إلى البلاد الأجنبية ومنهم من اقام فى وطنه واحتمل فيه من الوان البؤس وفنون الشقاء والجهد ما لا سبيل إلى وصفه .

هذه هى الصورة المجملة اشد الإجمال لموضوع القصة ، فهى اجتماعية بأدق معانى هذه الكلمة من جهة ، لأنها تصف حركات الجمــاعات المؤيدة للثورة ، والمقاومة لهــا ، أبرع الوصف واشده تفصيلا .. وهى مع ذلك فردية بأدق معانى هذه الكلمة ايضا ، لأنها تتبع هؤلاء الافراد من الفتية الذين رايناهم صبية ، لا تفارقهم ولا تدع شيئا مما يجرى عليهم من الأحداث او يضطرب فى نفوســهم من الخواطر أو يعرض لهم حين يخلون إلى انفسهم إلا صورته ابرع التصوير وادقه .

※ ※ ※

وهى تتبع من بينهم شخصا بعينه هو الدكتور جيفاجو ، لا تفارقه منذ ماتت امه وهو صبى لم يجاوز العاشرة إلى ان

مات هو فى نضرة شبابه وقد بلغ الأربعين او كاد يبلغها .. تتبعه هادئا ومضطربا ، وتتبعه خائفـا ـ وما اكثر ما كان يخاف ـ وآمنا ، وما اقل ما كان يأمن .. وتتبعه محاربا لخصوم الثورة على رغمه ، وهاربا من الحرب يترقب القبض عليه بين لحظة وأخرى .

وتتبعه مع اهله وقد تزوج فتاة عرفها صبيا واقترن بها فى اول شبابه .. ثم تتبعه هاربا معها .. ثم تتبعه وقد اخذ للحرب على غير علمها .. ثم تتبعه وقد هرب من الحرب وعاد إلى بيته فلم يجد اهله .. فرت زوجه بابنهـا .. ثم تتبعـه آخر الأمر وهو ينعم على الخوف اشـد الخـوف بشيئين متناقضين اشد التناقض : ينعم بحياة الحب القوى إلى اقصى غايات القوة ، مع صديقة له عرفها أيام الصبا .. وينعم إذا كان الليل بالفراغ إلى القلم والقرطاس يلقى إليهما ما يملأ نفسه من الشعر والنثر .. فهو طبيب بارع ، ولكنه اديب ممتاز فى الوقت نفسه .

وتتبعه آخر الأمر وقد عاد إلى موسكو بعد اهوال اى اهوال ، فجعل يصدر فيها رسائل يقرؤها الناس ويتحدثون عنهـا ، ثم يعيش بعـد ذلك عيشـة فارغة لا معنى لهـا ولا غاية !

ثم يهبط من الترام ذات يوم ، ليسقط ميتا قد وقف قلبه عن الحركة فجاة ، وقد تجمع الناس حوله .. ومرت سيدة فوقفت ونظرت ثم مضت لشـأنها ، ولكنها لا تلبث ان تعلم شخص هذا الصريع ، وإذا هى صديقته تلك التى عاش معها فى اقصى الشرق ناعما بالحب والأدب معا .. فتعود إليه

بعـد أن نقل إلى داره ، وتخلو إلى جثمانه فتحدثه بما اختلف عليهما من الأهوال منذ فارقته فى اقصى الشرق ، ثم لا تدعه حتى يوارى فى قبره .

وإذا انتهت القصة على هذا النحو الرائع المروع معا ، الحق الكاتب بها شيئا من شعر الدكتور الفقيد .. ولست اتحدث عن هذا الشعر لأنى قرأته مترجما إلى الفرنسية . وما اكثر ما تضيع الترجمة روعة الشعر .. ولا سيما حين يترجم إلى شعر مقيد بالوزن والقافية او محرر منهما .

* * *

ولأعد إلى القصة نفسها بعد أن عرضت ما استطعت أن اعرضه عليك من موضوعها . واعود إليها لأقف وقفات قصار عند بعض خصائصها التى تفيض عليها جمالها الرائع وقوتها المروعة :

فهى تتحدث عن جيل من الروسيين نشأوا قبل الثورة . وادركتهم الثورة فى اول شبابهم .. ثم عاشوا معهـا حتى استقر منها ما كان مضطربا ، وحتى امنت اعداءها واستطاعت ان تنتصر عليهم .. وحتى فرغت لحيـاة روسيا الداخليـة والخارجية ، تقيم بناءها على نظمها الجديدة بعد ان ملأت قلوب الناس روعا ، وعرضتهم وتعرضت معهم لمشكلات شداد إلى اقصى غايات الشدة . وصاحب القصة لا يصور «حقائق» الثورة ، وإنما يعنى قبل كل شىء « بآثارها » فى نفوس الناس، وفى نفوس الذين لم يؤمنوا بها خاصة وإنما اضطروا إلى الإذعان لها كارهين ، ولقوا من اهوالها شيئا كثيرا .

* * *

ولست اعرف كاتبا روسيا صور الهلع والفزع والجزع الذى يملأ قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم ، ويملك عليهم امرهم كله ، كما صور ذلك صاحب هذه القصة .. فالذين احتملوا اهوال هذه الثورة أبطال حقا ، لأنهم شقوا كما لا يشقى الناس ، وذاقوا من البؤس والجوع ، ومن قسوة الطبيعة أهوالا نقرؤها فلا نكاد نحققها ، ولا نكاد نصدقها ، لأنها بلغت من القسوة والشدة وامتحان النفوس ما لا يصدق إلا بعد جهد اى جهد .

* * *

ولست اعرف كاتبا روسيا معاصرا صور قسوة الطبيعة حين يشتد الشتاء وينهمر الثلج وتجمد الأنهار وتنقطع حركة المواصلات ويهلك الزرع قبل ان يؤتى ثمره ، ويشقى الناس بهذا كله لا يجدون ما ياكلون ولا ما يلبسون ولا ما يدفعون به عن انفسهم هذا البرد القارس .. وهم مع ذلك خائفون قد ملأ الهول قلوبهم واستأثر اليأس من الحياة بنفوسهم ، فهم ينتظرون ان يؤخذوا فى كل لحظة ليقدموا إلى الموت او ليقدم إليهم الموت .. وهم لا يسمعون نأمة ولا يحسون حركة إلا ظنوا ان قد اقبل الذين سيأخذونهم ويمضون بهم إلى حيث لا يعودون ! وليس منهم إلا من يفكر فى صبى سيتعرض بعده للهول ، أو فى زوج ستشقى بعده ألوان الشقاء .

لا اعرف كاتبا روسيا معاصرا صور هذا كله كما صوره باسترناك فى هذه القصة .. ولا أعرف كاتبا آخر صور جمال الطبيعة حين يقبل الربيع وتشرق الشمس وتعود الحياة إلى

كل شىء إلا إلى هذه النفوس الوجلة التى لا تفكر او لا تكاد تفكر إلا فى مصاعب الحياة ومشكلاتها وفى هذا الموت الذى يوشك ان ينقض عليهم فيختطف منهم عائلا أو حبيبا .

ولا اذكر انى قرات تصويرا لحركة الجماعات فى الخوف والأمن وفى السخط والرضا كما قراته فى هذه القصة ولا اعرف احدا وصف حياة الهاربين فى القطارات التى تمضى بهم لتقف حتى يياسوا او يوشكوا ان يياسوا من حركتها وهم مع ذلك يهربون من الموت او مما يشبه الموت .

كل هذا تجده فى هذه القصة . بل انت واجد فيها اكثر جدا من كل هذا ، بشرط ان تقراها صابرا نفسك على قراءتها وفارضا على نفسك الا تتحول عنها اثناء القراءة قيد اصبع لخاطر يعرض لك او شىء يجرى من حولك .. بل انت ملزم إن شئت قراءتها والاستمتاع الصحيح بها ان تقصر عليها اثناء القراءة عقلك وقلبك وذوقك جميعا . وسترى إن فعلت ذلك انك ستربح متعة قلما تربح مثلها من قراءة كتاب !

طه حسين

شخصيات القصة

(مرتبة حسب الحروف الأبجدية)

● نظرا لكثرة اسماء ابطال هذه القصة الضخمة ، وتعدد شخصياتها ، وتشابه الكثير من هذه الأسماء وتعقدها .. وتيسيرا على القارىء فى تذكر الشخصية التى يرمز إليها كل اسم يجىء فى سياق القصة ، ومعرفة دورها فى احداثها .. فقد رايت ان اعد لك فيما يلى فهرسا « ابجديا » لهذه الأسماء ومدلولاتها ، ليعينك على تفهم القصة على الوجه الأكمل . (وسوف تلاحظ أن الروس يغالون عادة فى إطلاق ثلاثة واربعة اسماء على كل شخص ، فى مختلف مراحل حياته .. كما يجعلون له فى المناسبات ارسمية اسما ، وفى المناسبات العائلية اسما ، بل اسماء اخرى !) .. وعلاوة على كل هذا التعقيد ، تتميز اسماؤهم بطولها العجيب ، حتى ليتالف بعضها من نحو عشرة حروف او اكثر !..

وفيما يلى قائمة بالأسماء :

انتيبوف : انظر «باشا» و «بافيل» و «ستريلنيكوف» .

انتيبوفا : انظر « لارا » و « لاريسا » .

اوسيب : انظر « جاليولين » و « يوسوبكا » .

الكسندر الكسندروفيتش : انظر « جروميكو » .

آنا إيفانوفنا كروجر : زوجة الكسندر الكسندروفيتش جروميكو ، ووالدة « تونيا » ، وحماة دكتور جيفاجو ، وهى

ابنة احد ملوك الحديد فى الأورال ، المدعو « إيفان ارنستوفيتش كروجر » .

انتونينا : انظر « تونيا » .

ايفجراف جيفاجو : اخ غير شقيق للدكتور جيفاجو .

اوليا ديمينا : فتاة نشطة من عاملات مصنع مدام جيشار ، وصديقة لابنتها « لارا » ، وقد صار لها شأن بعد الثورة .

ايفان ايفانوفيتش فوسكوبوينيكوف : انظر فوسكوبوينيكوف .

باشا : (او « باشكا » ، او « باشنكا ») — واسمه الكامل « بافيل بافلوفيتش انتيبوف » — ابن عامل السكة الحديد « بافيل فيرابونتوفيتش انتيبوف » وزوجته « داريا فيليمونوفنا » .. كان مدرسا ، ثم صار قائدا فى جيش الثورة أطلق عليه لقب « ستريلنيكوف » .

بريكين : انظر « فاسيا » .

بافيل « فيرابونتوفيتش » انتيبوف : هو زوج « داريا فيليمونوفنا » ووالد « بافيل بافلوفيتش انتيبوف » المعروف باسم « باشا » . وقد صار الوالد زميلا لـ « تيفرزين » فى محكمة الثورة .

تيفـــرزين (أو « كوبريـــان » ، « كوبرينـــكا » ، سـافيليفتش) : ابن « سـافيلى نيكيتيش تيفرزين » من زوجته « مارفا جافريلوفنا » . وكان من عمال السـكك الحديدية ، (مثل ابيه) ، ثم صار عضوا فى إحدى محاكم الثـورة مع صديقه بافيل « فيرابونتوفيتش » أنتيبوف ، (والـد بافيل « بافلوفيتش » أنتيبوف ، المعروف باسم « باشا ») .

تيفرزينا (أو « مارفا جافريلوفنا ») : زوجة «سافيلى» ووالدة « تيفرزين » .

تشكيفيتش : عازف موسيقى كان جارا فى الفنـدق لاسرة « جيشـار » .

تونيا (أو « انتونينا ») : ابنة الكسندر الكسندروفيتش من زوجته « آنا » . وزوجة دكتور جيفاجو .

جاليولين (أو « اوسيب » ، أو « ايوسوب » ، أو « يوسوبكا ») : ابن « جيمازيدين » من زوجته « فاتيما » . كان ميكانيكيا ثم صـار قائداً لجيش البيض خـلال الثـورة البلشفية .

جيمازيدين : والد « جاليولين » . (انظر : جاليولين) .

جاليولينا (أو « فاتيما ») : والدة جاليولين .

جوردون (أو « ميشا » أو « ميخائيل ») : ابن المحامى « جريجورى اوسيبوفيتش جوردون » ، وصديق يورا (أو الدكتور جيفاجو) .

جروميكو (الكسندر الكسندروفيتش) : شقيق نيكولاى الكسندروفيتش ، وزوج « آنا ايفانوفنا كروجر » ، ووالد

« تونيا » زوجة الدكتور جيفاجو . (وكان يورا جيفاجو قـد قضى صباه فى منزل آل جروميكو) .

جيشـار (أماليا كارلوفنا) : والـدة الفتـاة (لارا — لاريسـا — انتيبوفا) والفتى (روديا — روديون) . وهى ارملة مهندس بلجيكى كان يعمل فى الاورال ، وكانت فرنسية ثم اكتسبت الجنسية الروسية .

جيفاجو (أو « يورا » ، أو « يورى » ، أو «يوروتشكا») اندرييفيتش : هو الدكتور جيفاجو بطل القصة ، ابن ثرى من رجال الصناعة فى سيبيريا ، مات منتحرا .. وأمـه « ماريا نيكولاييفنا (المولودة بلقب « فيديثيابين ») . تزوج من تونيا جروميكو (أو انتونينا) وأنجب منها ابنا وابنة (« شـاسا » ؛ و « ماشا » . وكان له اخ غير شـقيق يدعى « ايفجـراف جيفاجو » ، أو « جرانيا » .

دودوروف : انظر « نيكى » .

داريا فيليمونوفنا : زوجة بافيل « فيرابونتوفيتش » ووالدة بافيل « بافلوفيتش » (باشا) .

روديون (أو « روديا ») : ابن مدام جيشار وشـقيق (لارا — لاريسـا — انتيبوفا) ، وقد التحق بالكلية الحربية .

روديا : انظر « روديون » .

ستريلنيكوف : انظر « باشا » و « بافيل » .

ساشا (أو « ساشنكا » ، « سانتشكا » ، « شورا » ، « شوروتشكا » .. وكلها تصغير لاسم « الكسندر ») : ابن دكتور جيفاجو من زوجته « تونيا » .

سافيلى : والد « تيفرزين » وزوج « مارفا » .

شتشابوف : (انظر « مارينكا ») .

شليزنجر (شورا) : صديقة « آنا ايفانوفنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش جروميكو .

شورا : (انظر : « شليزنجر ») .

فاسيا : (أو « بريكين ») ، هارب من جيش العمال المجندين ، كان زميلا للدكتور جيفاجو فى رحلته إلى الأورال ، وبات تحت حمايته .

فاتيما (أو جاليولينا) : والدة جاليولين .

فيكتور ايبوليتوفيتش : انظر « كوماروفسكى » .

فوسكوبوينيكوف (ايفان ايفانوفيتش) : أديب ومؤلف كان يقطن فى ضيافة كولوجريفوف فى ضيعة (دوبليانكا) ، وكانت له مناقشات فلسفية مع الخال كوليا .

كروجر : لقب أسرة « آنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش .

كاتيا (أو « كاتنكا » — تصغير « ايكاتيرينا ») ابنة (لارا — لاريسا — انتيبوفا) من زوجها (باشا — بافيل — انتيبوف — ستريلنيكوف) .

كولوجريفوف (لافرينتى ميخائيلوفيتش) : ثرى من رجال الصناعة يملك ضيعة (دوبليانكا) ، وهو شغوف برعاية الأدب والفنون . له ابنتان هما « ناديا » و « ليبا » ، صديقتا « لارا » فى سنوات المراهقة .

كوماروفسكى (فيكتور ايبوليتوفيتش) : محام (ثم صار فى عهد الثورة من رجال السياسة) ، وكان صديقا للمهندس البلجيكى وراعيا لأرملته مدام جيشار ، ثم عشيقا لابنتها « لارا » .

كوليا : انظر « نيكولاى نيكولاييفتش » .

كوبريان : (انظر : تيفرزين) .

كوبرينكا : (انظر : تيفرزين) .

ليبا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) ، وتلميذة « لارا » .

مارينكا : (أو « مارينا ماركيلوفنا » ، أو «شتشابوف»)، ابنة حارس الباب أو النجار « ماركل شتشابوف » من زوجته « أجافيا تيخونوفنا » . ستصير لها علاقة هامة مع شخصية كبيرة من شخصيات الرواية وتنجب منه ابنتين : كابيتولينا (كابا) ، و كلافديا (كلافا) .

ماركل : والد الفتاة « مارينكا » . (انظر « مارينكا ») .

ميشا : انظر « جوردون » .

ماريا نيكولاييفنا : والدة يورا (الدكتور جيفاجو) .

مارينا : انظر « مارينكا » .

مارفا جافريلوفنا (أو « تيفرزينا ») : والدة «تيفرزين» وزوجة « سافيلى » .

ماشا (تصغير ماريا) : ابنة دكتور جيفاجو من زوجته « تونيا » .

نيكى ديمنتى دودوروف (أو « اينوكنتى » ، أو « اينوتشيك » ، أو « نوتشينكا ») : ابن الفوضوى « ديمنتى دودوروف » والأميرة جيورجيين نينا جالاكتيونوفنا . نشأ فى منزل المؤلف « فوسكوبوينيكوف » وكان صديقا ليورا (يورى- جيفاجو) .

نيكولاى نيكولاييفتش (أو « الخال كوليا » ، أو « فيدينيابين ») : كان من رجال الكنيسة ثم هجر الدين ليصبح كاتبا وفيلسوفا .

ناديا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) وصديقة « لارا » .

لارا : (أو لاريسا ، أو انتيبوفا) ، ابنة مدام «جيشار» وشقيقة « روديا » أو « روديون » ، تزوجت من « باشا » ، أو « انتيبوف » أو « ستريلنيكوف » ، وأنجبت منه ابنتهما « كاتيا » .

لاريسا : انظر « لارا » ، و « انتيبوفا » .

يوسوبكا : انظر « جاليولين » و « أوسيب » .

يورا : انظر « جيفاجو » .

يورى : انظر « جيفاجو » .

الفصل الأول

قطار الساعة الخامسة السريع

- ١ -

● كان المشيعون يسيرون بلا توقف ، وهم يرددون الأنشودة الجنائزية « الذكرى الأبدية » .. وحين يتوقفون عن الانشاد ، كان وقع اقدامهم ، وحوافر الجياد ، وصفير الرياح ، تبدو كأنها تواصل ترديد الأنشودة .

وكان المارة يفسحون الطريق للموكب ، وهم يحصون اكاليل الزهور ، ويرسمون على صدورهم علامة الصليب . وانضم بعض منهم إلى الموكب ، بدافع الفضول ، وهم يتساءلون : « من الميت ؟ » .. فقيل لهم : « جيفاجو » !

— أوه ، هذا يوضح الأمر .

— كلا ، إنه ليس الزوج ، بل زوجته . .

— سيان، فليتغمدها الله برحمته ، انها جنازة رائعة . .

وانقضت سريعا اللحظات الأخيرة لمراسم الدفن . . انقضت إلى غير رجعة .. « للرب الأرض وملؤها . المسكونة وكل الساكنين فيها » .. ونثر الكاهن حفنة من التراب على جثة « ماريا نيكولاييفنا » راسما بها علامة الصليب ، وانشد المشيعون انشودة : « ارواح الأبرار » .. ثم بدا على اثر لغط شديد . وأغلق النعش ، ودقت فيه المسامير ، ودلى فى باطن الأرض . وانهمر وابل من التربة فوق غطاء النعش . تساقط

عليه كقطرات المطر المنهمر ، وهم يهيلون التراب ليغطوه ويملأوا القبر فى عجلة ، مستخدمين اربع مجارف فى وقت واحد .. حتى تراكمت فوقه رابية ، تسلق إلى قمتها صبى فى العاشرة من عمره .

وبحكم التخدر وجمود القلب اللذين يستوليان على الناس عادة فى نهاية جنازة حارة ، ظن بعض المشيعين أن الصبى يرغب فى إلقاء مرثية على قبر أمه .

لكنه رفع رأسه ، ومن موقعه المرتفع الم بصره فى شرود بمنظر البقاع الجرداء المحيطة ، التى عراها الخريف ، وبقباب الدير القريب . وتجهم وجهه ذو الأنف الأفطس ، ومد رقبته كما يفعل شبل الذئب حين يتأهب للعواء ، ثم غطى وجهه براحتيه وأجهش بالبكاء .. بينما راح الهواء الذى يهب عليه يلطم يديه ووجهه بقطرات باردة من المطر . واقترب من القبر رجل يرتدى السواد ، ذو اكمام ضيقة ولاصقة بذراعيه . كان هذا الرجل هو « نيكولاى نيكولاييفيتش فيدينيابين » شقيق المتوفاة وخال الصبى المنتحب ، وكان كاهنا جرد من وظيفته الكنسية بناء على طلبه .

واتجه الكاهن إلى الصبى فقاده إلى خارج فناء المقبرة .

— ٢ —

● وقضى الاثنان الليلة فى الدير ، حيث كان الخال « كوليا » قد اعطى حجرة ، مراعاة لمركزه القديم . وكانت الليلة ليلة عيد شفاعة العذراء المقدسة . وكان مفروضا ان

يسافرا فى اليوم التالى جنوبا إلى مدينة من مدن الأقاليم تقع على ضفاف نهر الفولجا ، كان الخال « كوليا » يعمل فيها لدى ناشر يصدر الجريدة المحلية التقدمية . وكانا قد ابتاعا تذكرتيهما بالفعل وأتما حزم أمتعتهما ووضعها فى الحجرة الصغيرة على اهبة الاستعداد للسفر .. وكانت الرياح تحمل إلى الآذان — من اتجاه الخط الحديدى القريب — نعيق القاطرات النائحة من بعيد ، وهى تقوم بمناوراتها اثناء إدخالها إلى مخازنها ..

وتفاقم البرد فى المساء . وكانت نافذتا الحجرة توازيان مستوى سطح الأرض ، وتطلان على ركن من حديقة المطبخ المهملة ، وعلى شطر من الطريق الرئيسى ، بمستنقعاته المتجمدة ، وعلى الجزء من فناء الكنيسة الذى دفنت فيه « ماريا نيكولاييفنا » فى ساعة مبكرة من ذلك النهار . ولم يكن فى حديقة المطبخ سوى بضعة ادغال من نبات (الاكاسيا) بالقرب من الجدار ، وعدد من « تعريشات » الكرنب كان الصقيع قد غضنها وبث الزرقة فى عروقها . ومع كل هبة من الرياح كانت اغصان (الاكاسيا) العارية من الأوراق ترقص كما لو كان قد اصابها مس من الشياطين .. ثم تستلقى منبسطة على ارض الممر .

واثناء الليل ، استيقظ الصبى « يورا » من نومه على صوت طرقات على النافذة . وكان يشيع فى الحجرة المعتمة ضياء غامض ، ابيض متراقص ، فهرع الصبى إلى النافذة وليس على جسده من الملابس غير قميصه .. وضغط وجهه على زجاجها البارد .

وفى الخارج لم يكن ثمة اثر للطريق ، او لفناء المقبرة ، او حديقة المطبخ .. لا شيء سوى العاصفة ، والهواء المحمل بالثلج . وبدا كأن العاصفة الثلجية قد وقع بصرها على « يورا » وبدافع من شعورها بقوتها وقدرتها على إثارة الرعب ، زارت ونبحت ، وفعلت كل ما من شأنه ان يجذب انتباه الصبى ، نشوانة طروبا بالتأثير الذى احدثته فى نفسه . ومن السماء ، هبطت على الأرض ملاءة بعد ملاءة من الثلج الأبيض الذى كان الهواء يلفه فى الجو على شكل دوائر ودوائر ، لا تلبث أن تتساقط فى حلقات متصلة لا نهاية لها ، فتغمر الأرض وتغلفها بأكفانها . كانت العاصفة قد انفردت بالأرض ، ولم يكن لها منافس او غريم !

وحين هبط « يورا » من فوق حافة النافذة ، كان اول ما انتابه شعور بالرغبة فى ان يرتدى ثيابه ويجرى إلى الخارج ، ثم يبدأ فى عمل شيء ما . كان يخشى ان يدفن حقل الكرنب الصغير ، شيئا فشيئا ، تحت طبقات الثلج ، فلا يستطيع احد ان ينفذ إليه ليرفع الجليد عن كاهله .. كما خشى على امه ـ المدفونة فى الحقل المكشوف ، لا حول لها ولا طول ـ من ان تغوص اكثر فاكثر فى باطن الأرض ، بعيدا عنه .

ومرة اخرى ، وجد الصبى مخرجا من افكاره فى البكاء .. فاستيقظ خاله ، وحدثه عن المسيح ، وحاول أن يخفف عنه .. لكنه لم يلبث ان تثاءب ووقف بجوار النافذة ، مستغرقا فى التفكير . واخذ الاثنان يرتديان ثيابهما ، وقد بدأ ضوء النهار يشرق على الكون .

- ٣ -

● لم يكن « يورا » يعلم ـ اثناء حياة امه ـ ان اباه كان قد هجرهما منذ زمن بعيد ، وانفق ايامه يسكر ويعربد ويتخذ المحظيات ، متنقلا بين سيبريا والخارج .. ولا انه قد بدد ثروة الأسرة وذراها مع الرياح الأربع ! .. فان النغمة التى كانت تردد على سمعه دائما ان اباه متغيب فى مدينة (بطرسبورج) ، لمهام تتعلق بأعماله ، او انه يزور احد المعارض او الأسواق التجارية الكبرى التى كانت تعقد عادة فى (اربت) .

وعندما اصيبت امه ـ التى كانت ضعيفة البنية ـ بمرض السل ، صارت تسافر كثيرا إلى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، للعلاج . وقد صحبها « يورا » فى اثنتين من هذه الرحلات .. وكان الصبى كثيرا ما يترك مع احد الغرباء ، ولكن هذا الغريب كان يتغير فى كل مرة ! .. ومن ثم فقد الف الصبى كل هذه التغييرات والألغاز ! .. وبحكم هذا الجو الذى ينقصه النظام ، ويكتنفه الغموض على الدوام ، لم يحس الصبى بشيء من الدهشة لطول غياب ابيه . وكان فى استطاعته ان يتذكر فترة من صباه الباكر كان فيها لقب اسرته يطلق على اشياء كثيرة منوعة ، ولا حصر لها : كانت هناك مصانع « جيفاجو » .. وبنك جيفاجو .. وعمارات جيفاجو .. و « دبابيس » لرباط الرقبة معروفة باسم « جيفاجو » ! .. بل كانت هناك كعكة من نوع « البابا » الممزوجة بالروم ، يطلق عليها « فطيرة جيفاجو » ! .. وجاء وقت كان يكفى ان

تقول فيه لقائد زحافتك فى موسكو : «إلى دار آل جيفاجو» ، كى ينطلق بك إلى مملكة مسحورة فى اقصى الأرض ، وكأنك قلت له : « خذنى إلى مدينة (تمبكتو) (١) ! .. وإذا انت فى حديقة ساكنة موحشة ، وحشة الريف .. والغربان فيها تنثر الثلج الأبيض من مستقرها فوق الأغصان الثقيلة لأشجار (الشربين) .. ونعيقها يتردد صداه مثل طقطقة الأخشاب فى المدفأة .. والكلاب تعدو عبر الطريق قادمة من جهة أو جرتها الجديدة القائمة فى الطرف الآخر من الدغل الموحش ، حيث اضيئت الأضواء حين زحفت عتمة الغسق وهبط الظلام .

وفجاة .. تبخر كل ذلك وزال .. لقد أصبحوا فقراء !

— ٤ —

● وذات يوم من صيف عام ١٩٠٣ ، بعد وفاة امه بنحو عامين ، كان « يورا » يخترق الحقول فى عربة مكشوفة من ذات الجوادين ، ومعه خاله «كوليا» . كانا فى طريقهما لزيارة ايفان ايفانوفتش فوسكو بوينيكوف » ، وهو معلم ومؤلف لكثير من كتب النصوص الرائجة ، كان يقطن فى (دوبليانكا) ، الضيعة المملوكة لصاحب مصانع الحرير وراعى الأدب والفنون العظيم « كولوجريفوف » .

---

(١) مدينة (تمبكتو) هى اكبر مدن السودان الفرنسى [سابقا] ، وتقع بالقرب من حدود الصحراء . وهى ذات اهمية تجارية كبرى منذ القدم ، ولا سيما بالنسبة لتجارة القوافل .

وكان اليوم يوم عيد « عذراء قازان » .. والمحصول المحصود مكدس على جانبى الطريق ، وقد خلت الحقول من اى إنسان ، اما بسبب العيد أو لأن الوقت كان وقت الراحة فى ساعة الظهيرة . ولفحت الشمس الحقول نصف المحصودة ، التى بدت اشبه بالأقفية او الرءوس نصف المحلوقة لنزلاء الليمان ! .. وحلقت الطيور فى شبه دوائر فوق الرءوس .. وانتصبت عيدان الحنطة الناضجة ، ساكنة لاتهزها ادنى حركة .. وعلى مسافة من الطريق ، بدت الحزم المربوطة قائمة فوق الهشيم ، فاذا أمعنت النظر فيها طويلا خيل إليك انها اشباح تتحرك ، وكأنها مساحو الأراضى يسيرون عند الأفق ليقيسوا المساحات .

وسأل «نيكولاى نيكولاييفتش » المدعو «بافيل»، حارس دار النشر والرجل الذى يصلح لتأدية اية مهمة توكل إليه — وكان يجلس الآن فى مقعد الحوذى وقد احنى ظهره وعقد ساقيه ، ليظهر ان قيادة العربة ليست مهنته الأصلية — سأله بقوله : « هل هذه الحقول مملوكة لأصحاب الأراضى ام للفلاحين ؟ » .

فأجاب « بافيل » : « الحقول التى فى هذا الجانب مملوكة للأسياد » . ثم اشعل غليونه وجذب منه نفسا ، وبعد فترة صمت اشار بطرف سوطه إلى اتجاه آخر واردف : « اما هذه فحقولنا نحن ! » . ثم صاح يستحث الجياد على الاسراع ، وكان وهو يتكلم يرقب اردافها وذيولها بطرف عينه ، كما يرقب سائق القاطرة مقياس ضغط الغازات والأبخرة (المانومتر) ! لكن الجياد كانت تسير على هواها ،

مثل كل جياد العالم ، فكان احد الجوادين يجر حمله بالأمانة الغريزية المأثورة فى الحيوان ذى النفس البسيطة ، بينما كان الحصان الآخر يلوى عنقه كالبجعة فيوحى بأنه كسول بطبعه ، لا هم له غير أن يرقص على رنين الأجراس المعلقة برقبته !

وكان «نيكولاى نيكولاييفتش» يحمل معه التجارب الأولى — « البروفات » — لكتاب « فوسكوبوينيكوف » عن مشكلة الاراضى ، وكان الناشر قد طلب إلى المؤلف ان يراجعها ، بسبب الرقابة الصارمة المتزايدة .

وقال « نيكولاى » يحدث « بافيل » : « إن القوم هنا قد صاروا بالغى القسوة .. ففى مقاطعة (بانكوفو) ذبحوا تاجرا ذبح الشاة ، واحرقوا حظيرة جياد قوميسار (١) المنطقة عن آخرها ! .. فما رايك فى هذه الأحوال ؟ وما راى الأهالى فى قريتك ؟ » .

غير أن « بافيل » كان ينظر إلى هذه الأمور نظرة اشد تشاؤما وسوادا من نظرة الرقيب الذى طالب (فوسكوبوينيكوف) بأن يخفف من عنف آرائه فى مشكلة الأراضى .. ومن ثم فقد اجاب قائلا : « وماذا تتوقع ان يكون رايهم ؟ لقد افلت زمام هؤلاء الفلاحين .. اتلفهم التدليل ، والمغالاة فى المعاملة الطيبة ، وهو امر شديد الخطورة على امثالنا . فانك إذا أعطيت الفلاحين حبلا ، فالله يعلم اننا لن نلبث ان نعلق جميعنا به ! » .

---

(١) يطلق على القوميسار فى ريف روسيا لفظ « زمسكى » ، وهو يختار من اعيان المنطقة ويمنح سلطات ادارية وقضائية واسعة .

وعاد يستحث الجياد على الاسراع ..

* * *

وكانت هذه هى الرحلة الثانية التى يقوم بها « يورا » — بصحبة خاله — إلى (دوبليانكا) . وكان يحسب انه يتذكر الطريق جيدا ، ففى كل مرة كان ينفسح فيها السهل والحقول على الجانبين — يحف بها خط نحيل من الغابات من امام ومن خلف — كان « يورا » يتوقع ان ينعطف الطريق إلى اليمين وتنكشف امامه على مرمى البصر ضيعة (كولوجريفوف) التى تمتد فى السهل المكشوف مسافة عشرة أميال ، والنهر يلمع على حدودها عن بعد ، وشريط السكة الحديدية يمتد على الضفة الأخرى وراء النهر .. ولكن فى كل مرة كان «يورا» يتبين انه مخطىء فى ظنه ، فكانت الحقول تتتابع ، حقل فى اثر حقل ، ثم لا تلبث الغابات ان تبتلعها ! .. واثار توالى المساحات الشاسعة ، فى نفوس المسافرين ، شعورا بالرحابة والاتساع ، وجعلهم يفكرون فى المستقبل .. ويحلمون به !

ولم تكن الكتب التى جلبت الشهرة لنيكولاى نيكولاييفتش، فيما بعد ، قد كتبت وقتئذ .. لكن آراءه كانت قد تبلورت فى نفسه واخذت شكلا واضحا ، وإن لم يدر بخلده أن ساعته قد دنت ، وانه لن يلبث أن يحتل مكانة مرموقة بين كل كتاب عصره (من أساتذة الجامعة وفلاسفة الحركة الثورية) ، باعتبار انه يشاطرهم شواغلهم الذهنية ، ولو لم يجمع بينه وبينهم اى اتفاق فى طريقة التفكير ، إلا من ناحية مصطلحاتهم اللغوية . كانوا جميعا — بلا استثناء — يتعلقون بهذا المذهب

او ذاك ، ويقنعون بالالفاظ والمظاهر الخارجية .. اما هو ـ «الأب نيكولاى» رجل الدين ـ فكان من أتباع «تولستوى» ، ومن الثوريين المثاليين فى وقت واحد .. وكان يذهب فى تفكيره إلى بعيد ، اكثر فاكثر كل يوم . كان يتحرق شوقا إلى فكرة يعتنقها . فكرة محددة ثابتة ، وملهمة .. فكرة تفتح أمام البصائر طريقا واضحا مستقيما إلى عالم أفضل . فكرة لا تستعصى حتى على إدراك الطفل أو الأبله الجاهل ، وإنما تنفذ إلى وعيه كما ينفذ البرق والرعد !

كان يتحرق شوقا إلى .. شىء جديد .

وكان يورا يحب صحبة خاله ، فقد كان يذكره بامه . كان مثلها متفتح العقل للحرية ، ميالا إلى كل ما يخرج على المألوف . وكانت له — مثلها — نفس الحاسة الارستقراطية بالمساواة مع كل الكائنات الحية .. ونفس الموهبة التى تمكنه من إدراك كل شىء من أول وهلة ، والتعبير عن أفكاره بمجرد ان تخطر له ، وقبل ان تفقد معناها وحيويتها .

وكان يورا سعيدا بالذهاب فى صحبة خاله إلى (دوبليانكا) ، فقد كانت مكانا جميلا ، وكان ذلك أيضا يذكره بأمه التى كانت شغوفة بالطبيعة ، والتى كثيرا ما اصطحبته إلى نزهات خلوية .

.. ثم إنه كان يتطلع إلى لقاء « نيكى دودوروف » مرة اخرى ، رغم أن نيكى — الذى كان يكبره بعامين — قد ينظر إليه باحتقار . وكان نيكى تلميذا بالمدرسة الابتدائية يقطن عند اسرة (فوسكوبوينيكوف) ، وكان حين يصافح يورا يجذب

ذراعه إلى اسفل بكل قوته ، ويحنى رأسه حتى يسقط شعره على جبينه فيغطى نصف وجهه !

— ٥ —

● « إن العصب الحيوى لمشكلة الفقر .. » — اخذ « نيكولاى نيكولاييفتش » يقرأ فى المخطوط الذى تجرى مراجعته ..

فقال إيفان إيفانوفتش فوسكوبوينيكوف : « من رأيى ان كلمة « جوهر » أفضل ، وأبلغ تأدية للمعنى فى هذا الموضع » .. وخط التصحيح على «البروفة» التى يراجعانها .

وكانا يعملان فى الشرفة المسقوفة ، نصف المعتمة .. وكانت حولهما رشاشات لسقيا الحديقة ، وأدوات للفلاحة ، ومعطف للمطر ملقى على ظهر مقعد مكسور .. وفى ركن من المكان احذية طويلة الرقبة — للخوض فى الطمى والماء — مكسوة بالوحل ، وقد تدلت رقابها إلى الأرض ..

وراح « نيكولاى نيكولاييفتش » يملى صاحبه : « ومن الجهة الأخرى ، فإن احصائيات المواليد والوفيات تظهر بجلاء ان .. » .

فقال إيفان إيفانوفتش : اضف هنا عبارة : « بالنسبة للسنة التى نحن بصددها » ، (واضاف العبارة فى « البروفة ») .. وهب على الشرفة تيار خفيف من الهواء ، وكانت اوراق المخطوط مثقلة بأثقال من الجرانيت تحميها من ان يحملها الهواء معه كلما هب ..

وحين فرغ الرجلان من مهمتهما ، اعـرب « نيكولاى نيكولاييفتش » عن رغبته فى الانصراف فورا . قال :

ـ هناك عاصفة على وشك الهبوب . يجب أن نسرع بالذهاب .

ـ لست اتوقع شـيئا من ذلك . لن ادعك تذهب . سنتناول الشاى الآن .

ـ لكنى مرتبط بموعد فى المدينة هذا المساء .

ـ لاجدوى من الجدل . لن اصغى إلى مزيد فى هـذا الصدد .

وكان الشاى يعد فى الحديقة ، إذ هبت نسـمة محملة بدخان الفحم ، من حيث كان القدر يغلى على النار ، فاخمدت رائحة التبغ وعباد الشمس. واقبلت خادم تحمل صينية عليها لبن مختر ، وكعكة بالجبن ، وفراولة . وعرف أن « بافيل » قد ذهب ليستحم فى النهـر ، وانه اخذ الجيـاد معه .. فلم يبق امام « نيكولاى نيكولاييفتش » اى خيـار سوى الخضـوع والبقاء .

واقترح عليه إيفان إيفانوفتش : « فلنهبط إلى ضـفة النهر ريثما يفرغون من إعداد الشاى » .

بحكم صداقته مع « كولوجريفوف » ـ رب الضيعة ـ كان إيفان إيفانوفتش يشغل غرفتين فى دار ناظر الضيعة . وكانت الدار ، بحديقتها الصغيرة الخاصة بها ، تقوم فى ركن

مهمل من الحديقة ، بقرب الممر القديم الذى زحفت عليه الآن الحشائش الغزيرة ولم يعد يستعمل إلا لكى تنقل عن طريقه انقاض مواد البناء إلى « الخور » الذى كان يستخدم كمصرف او « مقلب » للفضلات . وكان « كولوجريفوف » ـ وهو رجل ذو آراء تقدمية ، و « مليونير » يعطف على الثورة ! ـ متغيبا فى الخارج مع زوجته ، فلم يكن يقطن الضـيعة فى تلك الآونة غير ابنتيه « ناديا » و « ليـا » ومربيتهما ، وعدد قليـل من الخدم .

وكان سياج كثيف من « السيسبان » يفصل دار الناظر وحديقتهـا الصغيرة عن البستان الكبير ، بمروجه وبحيراته الصناعية التى تحيط بالقصر . وفيما كان إيفـان إيفانوفتش ونيكولاى نيكولاييفتش يسـيران بمحاذاة السـياج ، كانت العصافير الدورية تنطلق منه كل حين ـ بعد فترات منتظمة ـ فى جمـاعات صغيرة متماثلة الحجم ، تحلق أمامهما وتسبقهما .. وكان السيسبان يعج بأسراب من هذه العصافير ، تملأه بوشوشة شـبيهة بصوت جريان المـاء داخل المواسير ..

وجاوز الرجلان اكشـاك استنبات النباتات ، وكوخ البستانى ، وبعض الاطلال الحجرية المجهولة الأصل . وكانا يتحدثان عن موهبة جديدة فى عالم الأدب والدراسات العليا ، فقال نيكولاى نيكولاييفتش : « مما لا شك فيه أن المرء يصادف اناسا موهوبين ، ولكنهم معزولون .. فان « موضة » هـذه الأيام هى التكتلات والجماعـات ، من كل نـوع . والـروح الجماعية هى دائما ملجأ المحرومين من المواهب ، سـواء فى

ذلك من تدين جماعتهم بالولاء لـ « سولوفييف » أو «كانت» أو « ماركس » . فالأفراد وحدهم هم الذين ينشدون الحقيقة ، وهم يثورون ويقطعون صلتهم بالذين لا يحبونها حبا كافيا . كم من الأشياء فى الدنيا جدير بإخلاصنا وولائنا ؟ نزر يسير . وفى رايى ان المرء ينبغى ان يكون مخلصا للخلود، الذى هو لفظ آخر مرادف للحياة ، لفظ اقوى تعبيرا عنها . نعم ، ينبغى ان يدين المرء بالولاء للخلود .. بالولاء للمسيح ! .. لكنك تقطب جبينك ياصديقى المسكين . إنك — كالعادة — لم تفهم حرفا ! » .

— « آه » . غمغم إيفان إيفانوفتش . وكان رجلا نحيلا اشقر الشعر ، لا يستقر له قرار فى مكان — مثل ثعبان الماء ! — وله لحية صغيرة مدببة جعلته يبدو مثل أمريكى من عصر « لنكولن » . (وكان دائما يأخذ لحيته فى راحة يده ويحاول ان يجذب طرفها بشفتيه) . ثم أردف : « إنى الزم الصمت فلا اقول شيئا بالطبع ، فانا — كما تعلم — انظر إلى هذه الأشياء نظرة مختلفة . ولكن ، ما دمنا بصدد هذا الموضوع ، هلا رويت لى كيف خلعوا عنك رداء الكهنوت ؟ احسبك قد اصبت بالذعر . او لم يوقعوا عليك عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة ، او عقوبة اللعنة ؟ » .

— إنك تحاول ان تغير موضوع الحديث . ومع ذلك ، فلم لا .. ؟ كلا ، لم اكن من الملعونين ، فان اللعنة لا تحيق فى هذه الأيام .. ولقد كان ثمة قدر من المنغصات ، كما ان هناك قدرا من العواقب والنتائج .. مثال ذلك اننى محروم — منذ امد طويل — من الخدمة المدنية ، فى الوظائف العامة ، كما

اننى محروم من الذهاب إلى (موسكو) أو إلى (بطرسبورج) . على ان هذه سفاسف ! .. لابد للمرء من أن يكون مسيحيا صادقا ، كما سبق أن قلت. ولسوف أشرح لك ذلك . إن الذى لاتفهمه هو ان من الممكن ان يكون المرء كافرا .. إن من الممكن ان لا يعرف ما إذا كان الله موجودا ، او لماذا ينبغى ان يكون موجودا ، وان يؤمن فى الوقت ذاته بأن الإنسان لا يعيش على الفطرة ، وإنما هو يعيش فى التاريخ . وأن هذا التاريخ ، كما نعرفه ، يبدأ بمولد المسيح . فهو الذى أوجده ، فى الاناجيل . فما هو التاريخ إذن ؟ .. إن بدايته هى بداية قرون العمل المنظم الموجه إلى حل لغز الموت ، حتى يتسنى التغلب يوما على الموت ذاته . وهذا هو السبب فى ان الناس يكتبون « السيمفونيات » ، وهو السبب فى انهم يكتشفون المعادلات الرياضية اللانهائية ، وأمواج المغناطيسية الكهربائية !

« وبعد ، ليس بوسعك ان تتقدم فى هذا الاتجاه ، دون ما شىء من تطور الروح . ليس بوسعك ان تحقق مثل هذه الاكتشافات دون عدة روحية ، وقد أوتينا فى الإنجيل كل ما يتيح لنا هذه العدة الروحية . فما هذا الذى أوتيناه ؟ .. اولا : أن يحب المرء قريبه .. وهذا الحب أسمى اشكال الطاقة الحيوية ، فما هو ان يعمر به قلب المرء ، حتى يفيض وينتشر . وثانيا : المبدآن اللذان يؤلفان الجزء الرئيسى فى تكوين الإنسان الحديث، واللذان لا تقوم له قائمة بدونهما. مبدأ الشخصية الحرة ، ومبدأ النظر إلى الحياة كأنها تضحية ! .. ولاحظ أن هذا كله ، لا يزال حديث العهد ، لم يكن معروفا فى العالم القديم .. ففى ذلك العالم القديم ، كان ثمة دم ،

وحيوانية ، وقسوة ، وافراد مشوهو الوجوه من اثر الجدرى — من امثال « كاليجولا »(١) — لم يدركوا او يتصوروا ان الطاغية الذى يستعبد سواه ، هو — دون محيص — عاجز ضعيف ! .. وفى ذلك العالم القديم كنت تجد الأبدية الميتة التى تزهو بها النصب البرونزية والأعمدة المرمرية .. فلم يقدر للزمن وللانسان ان يتنفسا بحرية الا بعد مجىء المسيح .. لم يقدر للبشر — إلا بعده — ان يعيشوا فى ذرياتهم وسلالتهم ، ولا يموتون فى الخنادق كالكلاب ! .. بل انهم اصبحوا يموتون فى الوطن — وفى التاريخ — فى أوج العمل الذى كرسوه للتغلب على الموت ، وهم أنفسهم مكرسون لهذا الهدف ! .. اف ! إننى أتفصد عرقا كالخنزير .. لكأننى اتحدث إلى جدار اصم ! » .

— هذه فلسفة عقلية يا صديقى العزيز ، وهى محرمة على بامر من اطبائى ، لأن معدتى لا تقوى على هضمها !

— آه ، لا بأس .. لا امل يرتجى منك ! .. فلننصرف !

.. يالله ، ما اجمله من منظر هذا الذى تطل عليه ايها الشيطان المحظوظ ، وإن كنت أعتقد انك لا تفطن إليه ، لأنك تراه كجزء من حياتك اليومية !

كان النهر يتألق تحت اشعة الشمس الحامية ، فيعكس وهجا يؤذى الأبصار .. وكان يتمايل ، فينطوى وينبسط ،

---

(١) اسم يرمز به الى كل جبار طاغية ، تشبها بثالث الاباطرة الرومان « كايوس قيصر كاليجولا » ، الذى بدا حكما يسوده السلام — فى سنة ٣٧ ميلادية — ثم انتهى الى طغيان دموى غاشم ، ادى الى اغتياله فى سنة ٤١

وكأنه صحفة كبيرة من معدن رقيق . وفجاة ، تجعد سطح النهر إذ تحركت مركب من مراكب العبور (معدية) ، تنشد الشاطىء الآخر ، وهى محملة بالعربات، والجياد ، والفلاحين ونسائهم .. وقال إيفان إيفانوفيتش : « تصور أن الساعة لم تتجاوز الخامسة ! .. ها هو ذا القطار السريع القادم من (سيزران) . إنه يمر بهذه البقعة فى الخامسة وخمس دقائق».

وفى اقصى السهل ، ظهر قطار انيق ، ذو لونين — اصفر وازرق — يعبر السهل من اليمين إلى اليسار ، وقد بدا دقيق الحجم لبعده . وفجأة ، لاحظا أنه وقف . وتتابعت سحب من البخار فوق القاطرة . وبعد لحظة ، سمعا صفيره مدويا . فقال فوسكوبوينيكوف : « هذا غريب ! .. إن فى الأمر شيئا ، فليس للقطار ان يقف فى وسط الحماة التى هناك . لابد ان شيئا جرى ! لنذهب فنتناول الشاى ! » .

— ٦ —

● لم يتسن العثور على « نيكى » فى داخل البيت ، ولا فى الحديقة .. وخرج « يورا » ليحوم — دون مقصد — حول الدار ، بينما كان خاله و « إيفان إيفانوفيتش » يعملان فى الشرفة ، فحدس أن « نيكى » لابد قد اختبأ لأنه ضاق بالضيوف ، ولم يكن ينظر إلى «يورا» على انه ند وقرين له .

وكان المكان بديعا .. وكان ثمة طائر أصفر من طيور « الدج » يرسل صياحه المثلث النبرات ، ثم يصمت دقيقة ليدع النغم الصافى ، الندى ، المتموج ، يتهادى ويتغلغل فى الريف .. ويعود فيصيح ، ثم يصمت ، وهكذا تباعا . وكانت

روائح الزهور تقف معلقة فوق الأحواض التى جثمت عليها الشمس ، وقد امسك بها الهواء الراكد وبث فيها سحرا خدرها ! .. لكم كانت تذكره بجزر (الانتيب) و (بورديغيرا) !

وظل يتلفت يمنة ويسرة .. وكأن صوت أمه يتردد فى المروج، وكأنه مس غازى من جنون.. كأن فى طنين النحل، وفى اغاريد الطيور .. وكان يبعث فى جسد « يورا » قشعريرة ، إذ يداخله الوهم فى ان امه كانت ترتقب منه جوابا ، وكأنها كانت تدعوه إليها ! .. وسار نحو التل ، فتسلقه ، ماضيا خلال الأجمة النظيفة التى كانت حافتها تطل على دغل اشجار الحور ، فى اسفل . وكانت الظلمة والرطوبة تخيمان على هذا الدغل ، وعلى الأغصان الميتة .. ولم تكن ثمة زهور كثيرة ، ولاح ليورا أن فروع نبات « ذيل المهر » ،المتضافرة ، كانت اشبه بالصولجانات المصرية التى كان يراها فى نسخته المصورة من « التوراة » !

وشعر « يورا » بان الهم يثقله ويزداد جثوما عليه ، نهفت نفسه إلى البكاء ، ومن ثم فقد جثا على ركبتيه ، واطلق لدموعه العنان .. وراح يهتف بالأدعيات : « يا حارسى القدسى ، يا ملاك الرب ، طمئننى عن حق ، وقل لى إن ماما بخير ، وإنها لن تلقى عناء ! .. إذا كانت ثمة حياة بعد الموت، نتقبلها ايها الرب فى ربوعك السماوية ، حيث تضىء وجوه القديسين والأتقياء كأنها المصابيح . لقد كانت امى امرأة خيرة ، ولم تكن تقوى على ارتكاب ذنب ، فارحمها يا إلهى ، ولا تعذبها ! .. اماه ! » . وانبعث النداء من أعماق قلبه الذى



اذ يداخله الوهم فى أن أمه كانت ترتقب منه جوابا ، وكأنها كانت تدعوه اليها !..

كان الحزن يعتصره ، يدعوها إلى أن تهبط إليه من السماء ، وكأنها قديسة حديثة عهد بالتطويب . وفجاة ، لم يعد يحتمل مزيدا ، فخر مغشيا عليه !

ولم يظل طويلا فى اغماءته. فلما عاد إلى رشده، سمع خاله يناديه من فوق ، فاجاب النداء ، وراح يسعى مغادرا الأجمة .. وفجاة ، تذكر انه لم يكن قد صلى من اجل ابيه الغائب المفقود ، كما كانت امه قد علمته .. ولكن الإغماءة التى انتابته ، كانت قد خلفت فيه شعورا بالتخفف وبالارتياح لم يشا أن يفقده . وخطر له انه لن يحدث كثير من الضير لو انه ارجا الصلاة من اجل أبيه إلى وقت آخر . وخيل إليه انه يوشك أن يقول لنفسه : « بوسعه ان ينتظر ! » . فإن يورا لم يكن يتذكر اباه إطلاقا !

— ٧ —

● فى مقصورة من مقصورات الدرجة الثانية ، فى القطار الذى وقف فى الحقل — الذى كان النهر يتخلله — جلس « ميشا جوردون »(١) ، فى رفقة أبيه الذى كان محاميا من (أورنبورج) . وكان « ميشا » صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، ذا وجه يشى بفكر متوثب نشيط ، وعينين سوداوين كبيرتين .. وكان فى الصف الثانى فى المدرسة . اما ابوه « جريجورى اوزيبوفيتش جوردون » ، فكان فى طريقه إلى تولى منصب جديد فى « موسكو » ، وكانت ام «ميشا» واخواته فى موسكو يهيئن المسكن الجديد !

(١) كان اسم « جوردون » يقتصر على اليهود فى روسيا .

وكان ميشا وابوه قد قضيا ثلاثة أيام فى السفر ، وقد مرت بهما روسيا بحقولها ، ومراعيها ، وقراها ، ومدنها التى قرحتها اشعة الشمس الحامية ، ولفتها غلائل حارة من الغبار . وكانت صفوف العربات تمتد على طول الطرق ، وتجنح جانبا — عند « المزلقانات » — فتبدو للذين فى داخل القطار وكأنها تقف جامدة .. وكأن خيولها معالم تدل على الزمن ! .. وكان الركاب يقفزون من القطار — فى المحطات الكبرى — ويهرعون فى صخب نحو المقصف ، والشمس الجانحة إلى الغروب — خلف حديقة المحطة — تضىء اقدامهم .. وعجلات القطار !

وكل الحركات — فى الدنيا — تبدو رزينة ، ذات هدف معقول ، إذا ما تأملتها حركة فحركة ، كلا على حدة . اما إذا تأملتها جماعة ، فإنها تبدو سعيدة ، سكرى من تيار الحياة الدافق ، الذى يربط بينها ، والذى يحملها على صفحته ! .. والناس يعملون ، ويكافحون ، ويتصارعون ، مدفوعين إلى ذلك بهواجس وهموم فردية ، ولكن هذه الموارد التى تنبع منها التصرفات والأعمال ، خليقة بأن تنضب وان تعرقل آلية الحياة والسعى ، لولا انها مكبوحة دائما بشعور شامل ، عميق ، من عدم المبالاة ! .. وقد انبعث هذا الشعور من إدراك بترابط النفوس البشرية وتشابكها — ترابط الخيوط وتشابكها فى النسيج — ومن شعور بتدفقها بعضها نحو بعض ، ومن اطمئنانها الهانىء بأن كل ما يجرى فى الدنيا ، لا يقع على الأرض — التى تغيب الموتى فى احشائها — فحسب ، وإنما يقع كذلك فى عالم ذى مستوى آخر ، يسميه البعض « مملكة

الرب » ، ويسميه آخرون « التاريخ » ويسميه غيرهم بأسماء اخرى !

وكان ميشـا يشعر — فى حسرة — بانه استثناء تعس لهذه القاعدة العـامة . كان منبع تصرفاته هو القلق ، وليس الشعور باللامبالاة الذى تتقاسمه بقية الدنيـا ، والذى كان حقيقا بأن يخفف عن نفسه ، وان يسمو به ويرفعه .. وكان يلمس هذه الصفة الوراثية فى نفسه(١) ، ويترصد اغراضها فى يقظة وحذر .. كانت تذله ، وتبعث الهم فى أعماقه . ذلك لأنه — منذ زمن يتجاوز كل ماتعيه الذاكـرة — لم يكف عن مسـاءلة نفسـه : كيف تسنى لإنسان ذى ذراعين ، وذى ساقين — كأى إنسان آخر — وذى لغة ، وذى مسلك فى الحياة عادى بالنسبة للباقين .. كيف تسنى لإنسـان كهذا ان يكون مختلفا عن الباقين ، وان لا يستريح إليه إلا القليلون ، ولا يحبه احد البتة ! .. ولم يكن بوسعه ان يفقه كيف أن المرء لا يملك ان يحسن نفسه — عن طريق المحاولة — إذا كان اسـوأ من غيره من الناس .. ماذا يعنى ان يكون المرء يهـوديا ؟ .. وما الغاية من ان يكون يهوديا ؟ .. وما الجزاء ، او ما المبرر لهذا التحدى الاعزل الذى لا يعود على صاحبه بغير الأسى والحزن ؟

وعندما حمل مشكلته هذه إلى ابيه ، قيـل له إن منطقه كان غثا ، وإنه يجب الا يناقش المسالة على هذا النحـو .

---

(١) الصفة الوراثية المقصودة هنا — والتى ستتضح فيما بعـد — هى انه كان يهوديا .

ولكنه لم يحظ بحل له من العمق ما يكفى لإرضائه وإقناعه ، ولان يحنى راسه للواقع المحتوم . واخذ يزدرى — تدريجا — جميع الكبار الذى زجوا به فى هذا الحرج ، دون ان يستطيعوا ان يعينوه بشىء من الإيضـاح . ولم يستثن من هذا الازدراء سوى والديه . وتملكه يقين من انه سـيصلح الأمر كله ، إذا ما كبر .

ذلك لأن احدا لم يملك ان يقول — على سبيل المثـال — إنه لم يكن ينبغى لأبيه ان يجـرى وراء ذلك المعتوه عنـدما جرى فى ردهة القطـار .. ولا إنه لم يكن ينبغى له ان يوقف القطار عندما دفعه الرجل جانبا ، وفتح الباب والقى بنفسه منه ، غائصا براسه نحو الأرض — والقطار السريع ماض فى طريقه — وكأنه غواص يقفز من منصـة الغوص إلى حوض السباحة !

ومع ذلك ، فان طول وقوف القطار بعد الحادث ، وواقع الأمـر الذى يقطع بأن « جريجورى اوزيبوفيتش جوردون » — وليس « بطرس » ، أو « بولس » — هو الذى جذب حبل الاتصال فاوقف القطار .. هذا وذاك جعلا المسالة تبدو وكأن كل ما نجم عن إعاقة القطـار من ضرر إنما عن طـريق آل « جوردون » ! .. ولم يعرف أحد عن يقين سر طـول وقوف القطار . فقال البعض إن إيقافه فجاة قد اتلف جهـاز الإيقاف (الفرامل) .. وقال آخرون إن القطار وقف عند مطلع منحدر ، ولم يكن فى وسع القاطرة ان تجتازه مالم تكن قد اكتسـبت — مع الجرى — قوة دفع وسرعـة .. وكان ثمة راى ثالث ، هو انه لما كان المنتحر شخصا معروفا ذا شهرة ، فان محاميه

— الذى كان يرافقه فى القطار — قد أصر على استدعاء موظفين مسئولين من اقرب المحطات ، وهى (كولوجريفوفكا) ، حتى يسجل محضر رسمى مدعم بشهادات الشهود . وهذا هو السر فى ان مساعد سائق القاطرة تسلق أحد أعمدة البرق (التلغراف) .. ومن ثم أصبح من المرتقب أن يصل «ترولى» التفتيش مقلا الموظفين ، بين وقت وآخر .

وانبعثت من دورات المياه رائحة عفنة خفيفة — لم يقو على إخفائها عبير ماء « الكولونيا » — ورائحة دجاج مشوى ، لف فى ورق قذر ملطخ بالدهن .. وكانت ثمة سيدات من (بطرسبورج) ، ينبعث مع انفاسهن صفير ، وتتصاعد اصواتهن من الصدور، وقد دب الشيب فى شعورهن.. هؤلاء تحولن إلى غجريات ، إذ اختلط السناج (الهباب) بالمساحيق والمعاجين التى كن يستعملنها فى زينتهن ، فتحولن ينثرن « البودرة » على وجوههن ، ويمسحن أصابعهن فى مناديلهن ، وكأنما لم يحدث شىء ما ! .. وعندما مررن بمقصورة « جوردون » وابنه ، وقد لوين اكتافهن بحركة خليعة مهد لها ضيق الردهة حجة معقولة ، خيل لميشا أنهن كن يتهامسن . برغم أن شفاههن ظلت مطبقة : « رحماك يا الله ! .. أى مخلوقين مرهفى الحس ! .. كأنما يحسبان نفسيهما خلقا آخر ! كأنهما من الطبقة المثقفة ، وكل هذا الذى يجرى اكثر مما تحتمل مشاعرهما المرهفة ! » .

* * *

وكانت جثة المنتحر ملقاة على العشب ، على مقربة من الخط الحديدى .. وكان الدم قد انساب من الجبهة خلال

علامة سوداء ، وكأنه كان ينزف من كل جسمه خلال وجهه . ولم يكن الدم الجاف يبدو انه من دم المنتحر ، بل لاح كأنه شىء منفصل عنه .. كلطخ من مادة لاصقة ، أو خيط من وحل ، أو ورقة من شجر « التامول » .

واحاطت به جماعات إثر جماعات من المتفرجين والمشفقين ، بينما وقف إلى جواره — بوجه مربد جامد الملامح — صديقه وزميله فى السفر .. محام متعجرف ، ربعة فى القوام ، كان يبدو كحيوان « معلوف » ، وعليه قميص نضحه العرق .. كان يوشك أن يموت من الحر وقد راح يستجدى النسمات محركا قبعته أمام وجهه . وأخذ يهز كتفيه — إثر كل سؤال — ويقول فى ازورار ، دون أن يجشم نفسه عناء النظر إلى السائل : « كان سكيرا . فماذا كنتم تتوقعون ؟ » .

ودنت من الجثة — مرة أو اثنتين — امرأة عجوز فى ثوب من الصوف ، ممسكة بمنديل من « الدانتيلا » .. تلك كانت الأرملة « تيفرزينا » التى كان لها ابنان من سائقى القطارات ، والتى كانت تسافر فى الدرجة الثالثة بالمجان ، مع زوجتى ابنيها . وكانت الشابتان الوادعتان تتبعانها فى صمت — كراهبتين تسيران فى أعقاب رئيستهما — وقد شدتا وشاحيهما على رأسيهما حتى غطيا جبينيهما . وكان الجميع يفسحون لهما فى كل مرة .

كان زوج تيفرزينا قد احترق حيا ، فى حادث بالسكة الحديدية .. ووقفت هى على مسافة بسيطة من الجثة ، بحيث تراها خلال المتجمعين ، ثم تنهدت وكأنها كانت تقارن

بين هذا الحادث وما جرى لزوجها .. ولعلها كانت تقــول : « لكل أجل كتاب .. تعددت الأسباب والموت واحــد ! .. فالبعض يموت ميتة من عند الله ، والبعض تودى به نزوة تمر برأسه .. أما أن يموت شخص لفرط الغنى واختلال الذهن ، فهو العجب ذاته ! » .

واقبل جميع المسافرين ليلقوا على الجثة نظــرة ، ولم يعودوا إلى مقصوراتهم إلا خوفـا من أن تسرق أمتعتهم ! .. وكانوا — وهم يثبون من القطار إلى الأرض — يلتقطون بعض الزهور ، أو يتمشون قليلا ليبسطوا عضلات سيقانهم ، وهم يشعرون بأن المكان بأسره لم يبرز إلى الوجود إلا نتيجة وقوف القطار ، فما كان للحمــاة ، ولا للنهــر العريض ، ولا للبيت الانيق والكنيسة — القائمة على الضــفة المنحدرة المقابلة — اى وجود إلا من جراء الحادث ! .. حتى الشمس وهى ترسل اشعة المساء على موقع حادث الانتحار ، بدت خجلى وكأنها بقرة من قطيع قريب اقبلت تلقى نظرة على الحشــد .. أو كأنها شمس مصطنعة فى منظر مسرحى .. اى انهــا ظاهرة مرتبطة بالمكان والزمان فحسب !

ولقد تأثر « ميشا » اعمق التأثر بالحــادث ، حتى لقد بكى — فى بادىء الأمر — لشدة المفاجاة ، وبدافع من الإشفاق . كان المنتحر — الذى اصبح فى عداد الأموات — قد اقبل على مقصورتهما بضع مرات خلال الرحلة ، وتحدث إلى والد ميشا ساعات طويلة . وكان مما قاله إنه وجد راحــة فى التواضع والدعة والفهم التى وجدها لدى محدثه ، ووجه إليه اســئلة

لا نهاية لها عن نقاط دقيقة من القــانون تتعلق بالكمبيالات ، وبعقود ملكية العقــار ، وبالإفلاس والتدليس . وكان يهتف تعقيبا على إجابات جوردون : « ما خطر لى هذا ! .. احقـا ان القانون رحيم بهذا الشكل ! .. إن محامى ينظر إلى الأمر نظرة اشد قتامة من ذلك ! » .

وفى كل مرة كانت مخاوف هذا الحطام البشرى تهدأ ، ثم لا يلبث أن يأتى زميله فى السفر — من عربة الدرجة الأولى — فيصطحبه ، ويجره إلى عربة الأكل ، ليشربا « الشمبانيا » . وكان هذا الزميل هو عين المحامى الربعة القوام ، المتعجرف ، الحليق الذقن ، الأنيق الملبس ، الذى وقف إلى جانب جثتــه يتأملها وكأنما الأمر لا يدعو إلى شىء من الدهشة ! .. وكان من العسير أن يغفل المرء أن الانفعــال الدائب الذى انتــاب عميله ، كان من الأمور التى تروق له !

ولقد ذكر والد ميشــا للصبى أن المنتحــر كان مليونيرا معروفا يدعى « جيفاجــو » .. وكان رجــلا طيب النفس ، ولكنه نزق ، فقد نصف قواه العقلية . والحق أن الرجــل لم يحسب حسابا لوجود صبى مثل ميشا فتحدث عن زوجته التى توفيت ، وعن ابنه — الذى كان فى سن ميشا — ثم عن أسرته الثانية التى هجرها كما هجر الأولى .. وعند هــذا الحــد ، تذكر أمرا ، فاذا وجهه يشتد شحوبا ، ويتجلى عليه الفزع .. وبدا يهذى ، وشرد ذهنه ، فلم يعد يتحدث عن قصته !

ولقد أبدى لميشا عطفا لا حــد له ، لعله كان انعكاسا لشعوره نحو شخص آخر ، فاغدق عليه الهدايا ، وكان يقفز

من القطار فى المحطات الكبيرة التى تقوم بها مكتبات فى استراحات الدرجة الأولى، فيبتاع له اللعب والتحف المحلية. وكان ثملا باستمرار ، وقد راح يشكو من انه لم ينم طيلة اشهر ثلاثة ، ومن ثم فانه كان كلما افاق من مفعول الخمر — ولو لفترة قصيرة — يعانى الوانا من العذاب لا يتصورها اى إنسان عادى .

وفى آخر مرة ، اندفع إلى مقصورتهما ، فأمسك بجوردون ، وحاول ان ينبئه بأمر ما ، ولكنه وجد عناء فى الحديث ، فاندفع إلى الردهة ، والقى بنفسه من القطار !

وجلس ميشا يتأمل الصندوق الخشبى الصغير ، الذى احتوى عينات من معادن جبال (اورال) ،والذى كان آخر هدية من الميت . وفجأة ، حدث هرج ، وإذا بعربة من عربات « الترولى » قد اقبلت على خط حديدى مواز . وقفز منها طبيب ، وشرطيان ، وضابط يحمل شعارا فوق قلنسوته . ووجهت أسئلة فى لهجة عملية باردة ، وسجلت إجابات . ثم جر الشرطيان وحارسا القطار الجثة إلى جانب ضفة النهر وهم ينزلقون ويغوصون فى الرمال . وشرعت امرأة من الريفيات فى العويل . وصدرت الأوامر إلى الركاب كى يعودوا إلى مقاعدهم .. ونفخ الموكل بالقطار (الكومسارى) فى صافرته ، فلم يلبث القطار ان تحرك مستأنفا رحلته !

— ٨ —

● قال « نيكى » فى نفسه ، فى سخط ضار، وهو يتلفت حوله فى الحجرة ، بحثا عن سبيل إلى الهروب منها : « ها هو

ذا مازق حرج ! » .. وكانت أصوات الضيوف تسمع خارج الباب ، وتوحى بأن سبيل الانسحاب قد قطعت عليه . وكان فى الحجرة سريران : سريره ، وسرير فوسكو بوينيكوف . ولم يكد يتردد لحظة واحدة ، قبل ان يندس زاحفا تحت اولهما !

ومن مخبئه ، سمعهم وهم ينادونه من الخارج ويفتشون عنه ، وقد ادهشهم غيابه .. ثم اقبلوا اخيرا إلى غرفة النوم. وما لبث ان سمع نيكولاى نيكولاييفيتش يقول : « لا حيلة فى الأمر ! .. اجر يا يورا ، فلعل صديقك يظهر عما قليل ، فتستطيع أن تلعب معه ! » .. ولكنهما مكثا قليلا ، إذ جلسا يتحدثان عن هياج الطلبة فى (بطرسبورج) و (موسكو) ، مضطرين « نيكى » إلى ان يبقى فى سجنه السخيف ، المهين ، زهاء نصف ساعة . ثم دلفا — اخيرا — إلى الشرفة . وإذ ذاك ، تسلل « نيكى » فى خفة ، ففتح النافذة ، وقفز منها ، ويمم شطر المتنزه .

ولم يكن قد ظفر بقسط من النوم فى الليلة السالفة ، فبات منحرف المزاج . كان فى الرابعة عشرة من عمره ، وقد استولى عليه السأم والضجر من ان يظل طفلا . ولقد ظل مسهدا الليل طوله ، ثم غادر البيت مع الفجر . وما لبثت الشمس المشرقة ان القت ظلال الأشجار الطويلة الندية ، فى جماعات ، على أرض المتنزه . ولم تكن الظلال سوداء ، وإنما كانت كالحة ، أشبه بلباد مبلل بالماء .. ولاح كأنما كان عبق الصباح — الذى يهفو بالرؤوس — يتصاعد من تلك الظلال

الندية المستلقية على الأرض ، تتخللها خطوط من النور ، أشبه بأصابع فتاة . وفجأة ، لمع خيط فى لون الزئبق ، وفى لمعان الندى على العشب ، فزحف على قيد خطوات قلائل منه . . وظل يزحف ، ويزحف ، دون أن تمتصه الأرض أو تبتلعه . ثم التوى جانبا واختفى ، بحركة حادة ، سريعة ، غير مرتقبة . . وكان الخيط ثعبانا من ثعابين الأعشاب ، فارتجف «نيكى » .

وكانت شخصيته تنطوى على بعض عادات غريبة ، فكان — إذا ما انفعل — يتكلم بصوت عال مخاطبا نفسه ، مقلدا امه فى إيثارها المضوعات الخطابية ، ومقتديا بها فى ميلها إلى التناقض .. فراح الآن يقول فى نفسه : « ما أبدع أن يكون المرء على قيد الحياة ! .. ولكن ، لماذا يتحتم أن تكون الحياة أليمة إلى هذا الحد ؟ .. إن الله موجود ، لا ريب فى ذلك . ولكن ، إذا كان الله موجودا ، فأنا إذن إياه ! » ونظر إلى إحدى نبتات الخور الرجراج ، وهى تهتز من أعلاها إلى أسفلها ، وأوراقها المخضلة تبدو كرقائق من الصفيح ، ثم عاد يقول : « سآمرها أن تسكن ! » . وفى تركيز مخبول لكل جهوده ، راح يطلق إرادته فى صمت ، بجماع جسمه وكيانه ، وبكل أوقية فيه من لحم ودم ، وهو يهتف فى نفسه « اسكتى ! » . وأطاعت الشجرة لفورها ، فأخلدت إلى جمود مطلق ! .. وإذ ذاك ، ضحك « نيكى » طربا ، وجرى نحو النهر — وهو سعيد — ليستحم فى مائه !

* * *

كان أبوه هو الإرهابى « ديمنتى دودوروف » ، الذى قضى عليه بالموت شنقا ، ثم عفا عنه القيصر واكتفى بتسخيره فى الأشغال الشاقة . أما أمه ، فكانت أميرة من (جورجيا) ، انتمت إلى أسرة « أريستوف » .. كانت امرأة جميلة ، مدللة ، لا تزال فى شرخ الشباب ، ولاتنى تندفع فى نوبات من التحمس لأى شىء أو شخص .. من انتفاضات ، إلى متمردين وثورات ، إلى نظريات متطرفة ، إلى ممثلين مشهورين ، إلى ناشلين تعساء !

وكانت تعبد « نيكى » وتحور اسمه — « إينوكنيتى » — إلى ألف لقب سخيف للتدليل لا يخطر على بال — (مثل لقب « إينوتشيك » ، و « نوتشينكا ») — ولا تفتأ تأخذه إلى (تفليس) لزيارة أسرتها . وكان أعظم ما استهواه هناك شجرة عربيدة فى ساحة دارهم .. شجرة استوائية ضخمة ، عملاقة ، ذات أوراق كآذان الفيلة تقى الساحة شواظ شمس الجنوب . وقد عجز « نيكى » عن أن يروض نفسه على اعتبارها نباتا وليست حيوانا !

وكان من الخطر على « نيكى » أن يحمل اسم أبيه الرهيب ، فرغب إليه « إيفان إيفانوفيتش » فى أن يتخذ لقب أسرة أمه ، واعتزم — بقبول من الأم — أن يلتمس من القيصر الإذن بهذا التبديل . ولقد فكر « نيكى » وهو مستلق تحت السرير ، ساخطا على الدنيا بأسرها ، فى هذا الأمر .. ترى من كان فوسكوبوينيكوف يظن نفسه حتى يتدخل فى حياته على هذا النحو المثير للغضب ؟ .. لسوف يلقنه درسا !

وتلك الفتاة التى تدعى « ناديـا » ؟ ! .. لقد كانت فى الخامسة عشرة ، لا أكثر ، فهل كان هذا وحده كفيلا بأن يبيح لها ان تلوى انفهـا عنه ، وان تتكلم إليه من عل ، وفى ترفع ، وكأنه طفل صغير ؟ .. لسوف يلقنها هى الأخرى درسا ! .. وراح يردد فى نفسه مرات ومرات : « إننى أكرهها .. ولسوف اقتلها ! .. سآخذها فى القارب إلى عرض النهر ثم اغرقها!».

وكانت أمه هى الأخرى اخبث مما ينبغى ! لقد كذبت فى الواقع عليه ، وعلى فوسكوبوينيكوف ، حين رحلت . فهى لم تذهب كما زعمت إلى اى مكان على مقربة من (القوقاز) . وكل ما هنالك انها نكصت على عقبيها عند اول محطة تلتقى فيها الخطوط الحديدية ، واتجهت شمالا إلى (بطرسبورج) .. ولابد انها ـ فى هذه الآونة ـ تنعم بفترة بديعة ، إذ تشارك الطلبة إطلاق النار على البوليس ، بينما كان هو ـ نيكى ـ يتعفن حيا فى هذا الجحر البغيض ! .. ولكنه لم يكن غبيـا بالدرجة التى تصوروها . لسـوف يقتل « ناديـا » ، ويفر من المدرسة ، ويهرب إلى ابيه فى (سيبريا) ، حيث يبدأ حركة تمرد !

— ٩ —

● كانت زنابق الماء تنمو حول حافة البحيرة من كل جانب، فراح الزورق يشق طريقه بينها فى حفيف خشن ، محدثا شقا مثلثا كان الماء يبدو خلاله كالعصير فى بطيخة اقتد منها قطاع !

وراح « نيكى » و « ناديا » يقتطفان الزنابق . وامسك كل منهما بعين الساق المطاطة المرنة ، المتينة ، فجذبتهما معا ،

حتى ارتطم راس كل منهما براس الآخر ، بينما شد الزورق إلى الشاطىء ، وكأنما كان ثمة « خطاف » يجذبه .. وهناك ـ عند الشاطىء ـ كانت السيقان أكثر قصرا، واشد تعانقا .. وراحت الزهور البيضاء ـ ذات القلوب الصفراء التى تعادل مح البيضة حجما ، والتى تتخللها خيوط بلون الدم ـ تغوص وتطفو ، والمـاء ينبثق منها .

ومضى الصغيران يقتطفانهـا ، وقد مالا على جانب من الزورق ، فزادا من ميله نحو سطح المـاء .. وقـال نيكى : « إننى سئمت المدرسة وقد حان الوقت كى ابدا حيـاتى .. حان الوقت كى انطلق فى الدنيا ، واكسب قوتى بنفسى ! » .

ـ أهذه حالك وقد كنت أرجو ان اسألك عن معادلات الجذر التربيعى ؟ .. إننى ضعيفة فى الجبر ، وقد كدت اتخلف فصلا دراسيا آخر بسببها !

وجزم «نيكى» فى نفسه بأنها كانت تخزه .. كانت ـ فى الواقع ـ ترده إلى مكانه ، وتقول له إنه كان طفلا .. وإلا ، فكيف تتحدث إليه عن معادلات الجذر التربيعى، وهو لم يصل بعد إلى شىء فى مادة « الجبر » ؟ ! .. غير انـه لم يبد ما ينم عن انها اصابت منه مطعنـا ، بل سألهـا فى عـدم اكتراث مصطنع ، وهو يتبين ـ فى اللحظة ذاتها ـ سخف سؤاله : « من الذى ستتزوجينه حين تكبرين ؟ » .

ـ هذا سؤال سابق لأوانه بزمن طويل .. لا أحـد ، فيما اعتقد . إننى لم افكر فى هذا الأمر .

— لا تظنى اننى مهتم به .

— إذن ، ففيم كان سؤالك ؟

— إنك غبية !

وشرعا يشاجران .. وتذكر «نيكى» ما خالجه فى الصباح الباكر من كراهية نحوها ، فهددها بأنه لن يتردد فى أن يغرقها إذا لم تكف عن منابذته بالألقاب . فقالت ناديا : « إذن ، حاول ! » . وامسك بها محيطا خصرها بذراعه . وراحا يتصارعان ، حتى فقدا توازنهما ! وسقطا فى الماء . وكان كل منهما يحسن السباحة ، ولكن الزنابق راحت تحيط بأذرعهما وسيقانهما ، وتشدهما إلى الأعماق على انهما شعرا — فى النهاية — بالوحل تحت اقدامهما وصعدا إلى البر والماء يقطر من احذيتهما وجيوبهما .. وكان « نيكى » اشد الاثنين إعياء !

ولو ان هذا حدث قبل اليوم — فى الربيع الماضى مثلا — لراحا بعد الانفعال يتصايحان ، ويتشاتمان ، ويضحكان ، وهما يخوضان الماء جنبا إلى جنب ، وقد نفذ البلل إلى جسميهما . ولكنهما — إذ ذاك — جلسا دون ان ينبسا ببنت شفة ، وانفاسهما المتهدجة تتتابع فى عناء ، وقد غلبهما الشعور بسخافة كل ما حدث ، وكانت « ناديا » تتلظى استنكارا وغضبا لكرامتها ، بينما كان نيكى يشعر بالآلام فى كل جسمه ، وكأنه اصيب برضوض وكدمات فى ذراعيه وساقيه ، وتمزقت ضلوعه فى صدره !

وفى النهاية ، خففت ناديا من غلوائها ، وقالت بهدوء ، فى لهجة الكبار : «إنك لمجنون حقا ! » . فقال نيكى فى لهجة الكبار ، هو الآخر : « آسف ! » .

وسارا إلى البيت ، مخلفين وراءهما خطين من الماء ، وكأنهما عربتان من عربات « الرش » ! . وقادتهما طريقهما إلى المنحدر المترب المعمور بالثعابين ، على مقربة من المكان الذى رأى عنده « نيكى » ثعبان الحشائش ، فى ذلك الصباح .. وتذكر الانفعال الذى كان يملأ جوانحه فى الليلة السابقة ، ومقدرته — عند الفجر — حينما فرض إرادته على الطبيعة .. وساءل نفسه : آى امر ينبغى ان يصدره الآن ؟ .. وخطر له أن ما كان يهفو إليه دون سواه ، هو ان يقع فى البحيرة مع « ناديا » مرة اخرى .. وما كان ليضن بشىء فى سبيل ان يعرف ما إذا كان ذلك سيتاح له ثانية !

الفصل الثانى

فتاة من عالم آخر

— ١ —

● لم تكن الحرب مع اليابان قد انتهت ، ولكنها — على غير توقع — توارت خلف احداث اخـــرى . فلقـــد اجتاحت روسيا موجات من الثورة ، كل موجة اكبر من سابقتها واكثر بعدا عن المألوف .. وفى تلك الفترة ، وصلت إلى (موسكو) — قادمة من جبال (الأورال) — ارملة مهندس بلجيكى تدعى « اماليا كارلوفنا جيشار » ، وكانت فرنسية اكتسبت الجنسية الروسية ، تصطحب معها ولديها : ابنها «روديون» ، وابنتها « لاريسا » . وكانت قد الحقت الولد بالأكاديمية العسكرية ، والحقت الابنة باحدى المدارس العليا للبنات .. وقدر للاريسا ان تكون فى ذات المدرســـة ، وذات الفصـــل ، اللذين كانت « ناديا كولوجريفوف » فيهما .

وكان زوج السيدة « جيشار » قد خلف لها مدخراته ، واوراقه المالية (الاسهم والسندات) التى كانت قيمتهـــا فى ارتفـــاع ثم بدات تنخفض . ولكى توقف تسرب مواردهـــا ، وتجد ما يشغلها ، ابتاعت الأرملة لنفسها مؤســـســـة صغيرة هى مؤســـسة « ليفيتسكايا » لصنع الثيـــاب ، القريبـــة من « قوس النصر »[١] . وقد اشترتها من ورثة « ليفيتسكايا »،

(١) حى من احياء (موسكو) الفقيرة .

واشترت معها اسمها التجـــارى ، وعميلاتها ، وحائكاتهـــا ، ومساعداتهن . وقد فعلت ذلك بنصيحة من «كوماروفسكى» ، وهو محام كان صديقا لزوجها ، واصبح عونهـــا وسندها . وكان رجل اعمال صلب الأعصاب ، يعرف دنيا الأعمـــال فى روســـيا كما يعـــرف ظهـــر يده . وهـــو الذى دبرت معـــه — بالمراسلة — امر انتقالها إلى (موسكو) ، وقد استقبلهـــا وابنيها فى المحطة ، واقلهم إلى الجانب الآخر من (موســـكو) حيث كان قد احتجز لهم غرفة فى فندق (مونتنجرو) بشـــارع « اوروجينى »[١] . وكان هو الذى اشار عليها بإلحاق ابنها « روديا » — او « روديون » — بالاكاديميـــة العســـكرية ، وابنتها «لارا» — « لاريسا » — بالمدرسة التى اختارها لها . وراح الرجل يمزح مع الفتى — فى غير كلفة — ويحملق فى الفتاة ، حتى جعل حمرة الخجل تصبغ محياها !

— ٢ —

● ولقد مكثوا حوالى الشـــهر فى « مونتنجرو » قبل ان ينتقلوا إلى مسكن صـــغير — من ثلاث حجرات — ملاصـــق لمصنع الثياب . وكان ذلك فى احقر ارجاء (موسكو) ، حيث الحـــارات الشـــعبية ، والأوكار المظلمـــة ، ومبـــاءات « الليخاشى »[٢] ، وشوارع باسرها غارقة فى الرذيلة !

(١) معناه شارع المدفعية ، او شارع مصنع السلاح .

(٢) سائقو مركبات الطبقة الراقية ، وكانت لهم سمعة سيئة ، لما عرف عن علاقاتهم بالبغايا .

ولم يستأ الولدان لقذارة المسكن ، ولا لحشرات «البق» التى كانت تحتل المخادع، ولا لحقارة الاثاث، فلقد كانت أمهما — منذ موت ابيهما — تعيش فى خوف دائم من الفاقة ، فاعتاد « روديا » و «لارا» ان يسمعا انهم جميعا على شفا الإفلاس، وادركا انهما ليسا كغيرهم من اطفال الشارع ، وإنما هما اشبه بالأطفال الذين ينشأون فى « الملاجىء » ، حتى لقد تولاهما خوف متغلغل من الغنى والثراء ! .. وكانت أمهما تضرب لهما المثل الحى لذلك الخوف.. كانت السيدة «جيشار» سيدة قصيرة ، ممتلئة الجسم ملتفة ، شقراء ، فى حوالى الخامسة والأربعين ، تتناوبها علة القلب ونوبات الغباء .. كانت مفرطة فى الجبن ، وفى ذعر دائم من الرجال . وبسبب هذا ، ولمجرد الفزع والارتباك ، راحت تنتقل من احضان عشيق ، إلى احضان آخر !

وفى فندق « مونتنجرو » كانت الأسرة تقيم فى الحجرة رقم ٢٣ . بينما كان يقيم فى الحجرة رقم ٢٤ — منذ انشىء الفندق — العازف « تشكيفيتش » . وكان رجلا اصلع ، كثير العرق ، يستخدم قلنسوة من الشعر المستعار ، ويضم يديه ويضغطهما إلى صدره فى توسل كلما اراد ان يقنع احدا بشىء ما . وكان يعزف فى حفلات الطبقة الراقية ، وفى قاعات الموسيقى ، فيطوح راسه إلى الخلف ، ويجيل إنسانى عينيه فى محجريهما ، فى غيبوبة نشوانة . ونادرا ما كان يعود إلى غرفته ، إذ كان يقضى اياما باكملها فى مسرح « البولشوى » وفى معهد الموسيقى . وقد ادى جواره للأسرة إلى احتكاك قرب بينهما . ولما كان وجود الولدين مبعث إحراج للسيدة

جيشار ، أثناء زيارات المحامى « كوماروفسكى » لها — فى بعض الأحيان — فقد اخذ « تشكيفيتش » يترك لها مفتاح حجرته ، حتى يتسنى لها أن تستعملها . وسرعان ما تقبلت هذه التضحية منه كأمر مسلم به ، حتى انها — فى كثير من المناسبات — كانت تطرق بابه ، وتساله باكية ان يحميها من نصيرها وراعيها .. المحامى !

- ٣ -

● وكان مصنع الثياب فى منزل من طابق واحد ، على مقربة من ناصية شارع (تفيرسكايا) ، فى حى تحتله سكك حديد (بريست) ، بمخازن قاطراتها ، ومخازن البضائع ، ومساكن موظفيها . وفى احد هذه المساكن كانت تقيم « أوليا دمينا » ، وهى فتاة نشيطة كانت تعمل فى مصنع السيدة جيشار ، كما كان عمها مستخدما فى مخازن البضائع . وكانت ماهرة ، سريعة ، قربتها صاحبة المصنع السابقة إليها ، وبدأت تكسب عطف صاحبته الجديدة . وقد شعرت « أوليا » بميل شديد نحو « لارا جيشار » .

ولم يكن اى شىء فى المصنع قد تغير عما كان ايام « ليفاتسكايا » ، فكانت آلات الخياطة ترسل صريرها وازيزها تحت ضغط اقدام الحائكات ، او لمسات ايديهن السريعة الحركة .. وهنا وهناك كانت ثمة امراة تجلس إلى منضدة ، تخيط بالإبرة فى هدوء ، وذراعها ترتفع فى الهواء وهى تجذب الإبرة والخيط .. وفى الأرض قصاصات مبعثرة .. وكنت مضطرا لأن ترفع صوتك كى يسمع كلامك وسط جلبة الآلات

وتغريد العصفور « الكناريا » (كيريل موديستوفيتش) الذى كان يحتل قفصا معلقا فى النافذة ، والذى حملت صاحبة المصنع السابقة سر تسميته الغريبة هذه معها إلى القبر !

وفى قاعة الاستقبال ، كانت السيدات يجتمعن فى خليط عجيب حول مائدة مستديرة مثقلة بمجلات الأزياء . وكن يجلسن ، أو يقفن ، أو يتكئن فى الأوضاع التى يرينها فى صور الأزياء ، ويتناقشن فى نماذج الثياب واطرزة « التفصيل » . . وفى مقعد المديرة — بجوار منضدة اخرى — كانت تجلس « فائينا سيلانتيفانا فتيسوفا » ، وهى امرأة بارزة العظام ، تناثرت البثور فى ثنايا خديها المتهدلين . وقد كانت رئيسة عاملات « القص والتفصيل » ، ومساعدة السيدة جيشار . وكانت تخط — فى دفتر المقاسات — تعليمات وعناوين العميلات ، وقد عضت أسنانها الصفراء على مبسم من العظم استقرت فيه سيجارة ، بينما تتبعت بمقلتيها الصفراوين الدخان الأصفر المنساب من فمها وانفها .

ولم تكن للسيدة جيشار خبرة بإدارة مصنع كهذا ، فشعرت بأنها فى غير المكان الذى تستطيع أن تفرض سلطانها عليه . ولكن العاملات كن امينات ، كما ان « فتيسوفا » كانت اهلا لأن تعتمد عليها . . ومع ذلك فقد كانت تلك ايام اضطرابات وضيق ، فكان التفكير فى المستقبل يبعث فى نفسها الخوف ، وكانت تمر بها لحظات من القنوط الذى يجمد له كيانها .

وكثيرا ما كان « كوماروفسكى » يفد لزيارتها ، فيتخذ

طريقه إلى المسكن عبر المصنع ، مثيرا جزع العميلات من السيدات الراقيات حين يفاجئهن فى ثيابهن الداخلية — اثناء تجربة او قياس اثوابهن الجديدة — فيهرعن متواريات خلف الستائر فى خجل ، وهو يطاردهن بنكاته . . فتتمتم الحائكات الجالسات إلى آلات الخياطة — فى استنكار ودهشة — بمثل هذه العبارات : « ها قد اتى صاحب السيادة » ! . . « حبيب قلب اماليا » ! . . « الجدى العجوز » . . « عشيق السيدة » !

وكان كلبه الضخم « جاك » اكثر منه تعرضا للكراهية ، فقد كان يحضره معه احيانا ، ممسكا اياه بمقود كان الكلب يشده فى عنف حتى لقد كان « كوماروفسكى » يضطر إلى أن يتبعه متعثرا ، مندفعا وهو مبسوط الذراعين ، كاعمى يسير وراء دليله . وقد غرس « جاك » اسنانه — ذات ربيع — فى ساق « لارا » ، فمزق جوربها . وإذ ذاك همست « اوليا » ، فى اذنها بصوت اجش : « سأقضى عليه ، هذا الوحش ! » .

— حقا ، إنه لكلب فظيع ! . . ولكن ، كيف ستقضين عليه أيتها الغبية ؟

— صه ، لا ترفعى صوتك . . سأذكر لك الطريقة . إنك تعرفين ذلك البيض الحجرى الملون ، الذى فى صوان ثياب ماما .

— اجل ، انه مصنوع من البلور والرخام .

— هو ذاك ! . . انحنى لاهمس لك : خذى البيض ، واغمسيه فى دهن الخنزير ، وإذ ذاك سيزدرده الوحش القذر . . ويموت اللعين . . هذا كل ما هنالك !

وضحكت « لارا » .. لقد كانت تحسد « اوليا » فى سريرتها . فمع انها كانت عاملة ، تعيش فى فقر ، بعيدة عن التدليل ، إلا انها كانت صنفا نادرا من الفتيات . فما اكثر سذاجتها ! .. جاك ، والبيض .. ترى من أين كانت تجىء بهذه الأفكار ؟ .. وراحت لارا تقول فى نفسها : « ولماذا قدر لى ان ارى كل شىء ، واتألم ؟ ! » .

— ٤ —

● « إن ماما .. ما هى الكلمة ؟ إنه بالنسبة لماما .. يالهما من كلمتين بذيئتين ، لن انطق بهما . فلماذا إذن يتأملنى بهذه النظرات ؟ .. إننى فى مكانة الابنة منه ! » .

كانت « لارا » قد تجاوزت السادسة عشرة بقليل ، ولكن جسمها كان قد استكمل تشكيله ، حتى لقد كان الناس يحسبونها فى الثامنة عشرة او تزيد . وكان لها عقل صاف ، وفطرة لينة ، وكانت مليحة المنظر إلى حد بعيد . ولقد ادركت واخوها « روديا » انهما لن ينالا من الحياة شيئا بسهولة ، فكانا — على عكس المتعطلين ، ممن يعيشون ميسورى الحال — لا يجدان فراغا للأفكار التى تراود من لم يستكملوا نضوجهم .. افكار المراهقة .. ولا وقتا للتطفل على الأمور التى لم يكن لهما بها بعد شأن عملى . وما من تفكير دنىء ، فى رؤوس الناس ، مثل التفكير الذى لا لزوم له ، ومن ثم فقد كانت « لارا » انقى واطهر مخلوق فى الدنيا ! .. وكان الشقيقان يشعران بالحمد على ما يحصلان عليه من مظاهر الحنان ، إذ كانا يعرفان ما يتطلبه كل شىء من نفقات أو عناء ،

فكانا يقدران ما استطاعا الحصول عليه حق قدره ! .. والناس عادة مسوقون إلى أن يحسنوا الظن بك إذا كنت موفقا فى عملك ، ومن ثم فقد كانت «لارا» مجتهدة فى المدرسة، لا لأنها اوتيت حبا مبهما للعلم ، وإنما لأنها ادركت ان التلميذات المجدات وحدهن ، هن اللائى يعفين من بعض نفقات الدراسة .. ولأسباب مشابهة كانت تغسل الصحاف لأمها ، وتؤدى لها بعض المهام . وكانت تتحرك فى بهاء صامت ، وكل كيانها — من صوت ، وشكل ، وحركات ، وعينين رماديتى اللون ، وشعر لامع — تتسق فى انسجام !

وكان اليوم من ايام الأحد ، فى أواسط شهر يوليو .. وفى ايام العطلات يكون بوسعك أن تمكث فى فراشك وقتا أطول من المعتاد . ومن ثم فقد رقدت « لارا » على ظهرها ، وعقدت يديها خلف رأسها . وكان المصنع ساكنا ، والنافذة المطلة على الشارع مفتوحة ، فسمعت فرقعة عجلات مركبة تتحول إلى انزلاق خافت ، حين غادرت العربة بلاط الشارع وسارت على قضبان الترام .. فقالت الفتاة لنفسها : « لأعاود النوم فترة أخرى ! » . وكانت جلبة المدينة تتناهى إليها كغمغمة ناعمة منغومة ، جلبت النعاس إلى عينيها . ولكنها ظلت تشعر بملمس غطاء السرير ، عند التقائه بكتفها اليسرى ، وبالإصبع الكبرى لقدمها اليمنى .. هاتان النقطتان كانتا تحددان الفراغ الذى شغلته من السرير .. وبإدراك غير واضح ، أحست بأن كل كيانها لا يتجاوز الحيز المحصور بين كتفها وقدمها . وكانت نفسها ، أو روحها ، تتقمص هيكل جسدها فى تلاؤم ، وتتطلع بصبر نافد إلى المستقبل !



رقدت (لارا) على ظهرها ، وعقدت يديها خلف رأسها ..

وقالت لارا لنفسها : « يجب ان استسلم للنعاس ! » . ثم راحت تتمثل فى خيالها الجانب المشمس من شارع (كارتينى رياد) — مقر صناعة المركبات — كما كان ينبغى أن يبدو فى تلك الساعة : المركبات الفخمة معروضة على الأرض النظيفة فى ساحات صناع المركبات ، ومصابيحها من الزجاج المنحوت (المشطوف) .. والدمى المحشوة على شكل دببة .. والحياة البذخة . وعلى مسافة قصيرة — فى الشارع ذاته — يتدرب الفرسان فى ساحة ثكنات (زنامنسكى) .. والمهاجمون منهم يلتحمون فى دائرة ، ثم يثب الرجال إلى صهوات الجياد ، وينطلقون وئيدا ، ثم خببا ، ثم عدوا .. بينما تتصاعد شهقات الأطفال المصطفين خارج الأسوار الحديدية مع مربياتهم ومرضعاتهم .

وعلى مسافة أخرى ، تمثلت « لارا » شارع (بيترونكا) .. « رحماك يا سماء ! .. ما الذى يخامرك بالارا ؟ .. كل ما هنالك أننى أردت أن أريك مسكنى ، ما دمنا على مقربة منه ! » .. هكذا قال لها « كوماروفسكى » ، فى يوم الاحتفال بعيد تسمية « أولجا » ، ابنة أصدقاء له كانوا يقيمون فى (كارتينى رياد) . فقد أقيمت للكبار حفلة رقص وشراب ، بهذه المناسبة . وقد دعا « كوماروفسكى » ماما ، ولكن ماما لم تستطع الذهاب ، إذ كانت متوعكة المزاج ، فقالت له : « خذ لارا ، فإنك لا تفتأ تحثنى على العناية بها . فتول أنت العناية بها اليوم ! » . ولقد اعتنى بها حقا .. يا للسخرية !

كانت تلك الألحان الراقصة ، ألحان « الفالس » ، هى التى جلبت البداية .. يا لها من رقصة رعناء ، مجنونة ! .. انك لتدور ، وتدور ، دون أن تفكر فى شىء . وبينما تعزف الموسيقى ، تشعر انك تعيش فى عالم سرمدى ، حياة كتلك التى تصفها الروايات . ولكن ما إن تكف الموسيقى حتى تشعر برعشة ، كأن دلوا من الماء البارد قد سكب فوقك ، أو كأن شخصا ما قد فاجاك عاريا ! .. إن مجرد الرغبة فى الظهور .. فى أن تظهرى إلى اى مدى كبرت ، من الأسباب التى دعتك إلى أن تسمحى لأى امرىء أن يعاملك بمثل هذه الألفة ، طبعا !

ما كانت « لارا » لتتصور قط ان بوسعها ان ترقص بمثل هذه البراعة . وما كان أمهر يديه ، واشد اطمئنانه وهو يطوق خصرها ! .. ولكنها لن تدع قط اى امرىء يقبلها مثل ما قبلها .. ابدا ما كانت لتحلم بأن مثل هذه القحة يمكن ان تجتمع فى شفتى اى إنسان كما اجتمعت فى شفتيه وهو يلصقهما بشفتيها لفترة طويلة .. يجب ان تضع حدا لكل هذا العبث .. حدا حاسما ، قاطعا ! .. يجب أن تكف عن الخجل ، والارتباك ، وتنكيس العينين ، وإلا انتهى بها الأمر إلى نكبة محققة ! .. هذا هو الوقت الذى يجب ان تضع فيه حدا ، وإلا .. فخطوة واحدة ، ثم تتردى فى هوة سحيقة ! .. يجب ان تكف عن التفكير فى الرقص ، فقد كان هذا منبت الشر ! .. يجب أن ترفض فى شجاعة ، وأن تدعى انها لم تتعلم الرقص قط ، أو أن ساقها مهيضة !

— ٥ —

• وكانت ثمة قلاقل بين العمال فى شبكة السكك الحديدية بموسكو ، فى الخريف . فقد أضرب الموكلون منهم بخط (موسكو — قازان) ، وكان من المتوقع ان ينضم إليهم أولئك الموكلون بخط (موسكو — بريست) ، فقد اتفق الرأى على الإضراب ، ولكن لجنة تنظيمه كانت فى جدل حول موعده . وأدرك كل امرىء ممن يعملون فى السكك الحديدية ان الإضراب كان مقبلا لا ريب فيه ، فلم تكن ترجئه سوى الحاجة إلى حجة أو علة .

وحان موعد دفع الأجور ، فى يوم بارد مكفهر من ايام اوائل اكتوبر .. وانقضى وقت طويل دون أن تصدر التعليمات من قسم « الحسابات » . ثم اقبل على المكتب ساع يحمل قائمة الأجور وكومة من دفاتر العمال (السراكى) كانت محجوزة لحساب الغرامات الموقعة على أصحابها . وشرع الصراف فى تسليم الأجور . وكان السائقون ، وعمال التحويلة ، والنجارون ، ومساعدو السائقين (العطشجية) ، والعاملات فى مخازن الفحم ، قد انتظموا فى صف لا نهاية له ، امتد من المخازن ، وراح يسعى عبر الأرض الفضاء التى تفصل بين بنايات الإدارة الخشبية والمحطة ، بما يتبعها من « ورش » ومخازن للبضائع ، وحظائر للقاطرات ، وقضبان .. وكان الجو ينذر بشتاء مبكر . جو مشبع برائحة أوراق الشجر المتساقطة ، والثلج المذاب ، وصناج القاطرات التى لا تزال ساخنة ، وعبير خبز الشوفان وقد غادر الفرن لتوه ، إذ كان

بصنع فى اسفل مقصف المحطة .. وكانت القطـارات تاتى وتروح ، وتساق من خط إلى خط ، وتلحق بها عربات ، أو تفصل عنها عربات ، وفقا لرفرفة رايات الإشـارة أو عدم رفرفتها . وكانت صافرات القاطرات تنطلق فى زئير عميق ، وابواق وصافرات الحراس وعمال المناورات تدوى وتجلجل .. والدخان يرقى سلالم لا نهاية لها ، إلى كبد السماء .. ومراجل القاطرات تضيف إلى سحب الشتاء الباردة سحبا ساخنة! ..

وكان « فـوفليجين » — المـدير الفـرعى — و « بافل فيرابونتوفيتش انتيبوف » — مراقب الخطـوط فى منطقـة المحطة — يخطران جيئة وذهابا ، على حافة الخط الحديدى الرئيسى . كان « انتيبوف » قد اقام الدنيا وأقعدها ، فى مخازن ورش الإصلاح ، بشأن نوع قطع الغيار اللازمة لإصـلاح الخطوط ، فإن الصلب لم يؤت قابلية كافية للامتداد ، فاخفقت القضبان فى تحمل اختبارات الضغط ، ورأى « انتيبوف » انها لن تلبث أن تتصدع فى الجو الجليدى . ولكن الإدارة لم تحفل بشكاواه .. وكان من الواضح ان ثمة من كان يكسب من وراء عقود شراء هذا النوع من الصلب !

وكان « فوفليجين » يرتدى معطفا غاليا مبطنا بالفراء ، طرزت عليه علامة الزى الرسمى للسكك الحديدية ، وقـد انفرج طرفاه فكشفا عن بزة مدنية جديدة من الصوف الخشن . وكان يخطو بحذر ، على حافة الطريق ، وهو يتأمل بسرور اطراف سترته ، واستقامة خطى ساقى بنطلونه ، وحذاءيه الانيقين . اما ما كان « انتيبوف » يقوله له ، فكان يدخل من اذن ليخرج من الاخرى ، إذ كانت تشغله افكار خاصة ، فطفق

يخرج ساعته ويلقى نظرات عليها ، وهو يتعجـل موعـد الانصراف . وما لبث أن قال بصبر نافد : « صحيح ، صحيح يا صديقى العزيز ، ولكن هذا لا يكون خطرا إلا على الخطوط الرئيسية ، أو على بعض الطرق الفرعية التى تجرى عليهـا حركة كبيرة . ولكن ، تأمل ما لديك .. مجرد خطوط ثانوية ، وخطوط للمخازن .. وما الحركة التى عندك ؟ ! .. قاطرة عتيقة من قاطرات المناورة ، لإقصاء العربات الفارغة عن الخطوط . فماذا ترجو اكثر من هذا ؟ .. لا بد انك قد فقدت عقلك ، حتى تتحدث عن الصلب ! .. لو انك أوتيت قضبانا من خشب لأدت المهمة ! » .

وتأمل « فوفليجين » ساعته ، ثم اطبق عليها غطاءها المعدنى ، وسرح بصره فى الفضاء ، نحو طريق بعيدة كانت تمتد نحو السكة الحديدية .. وقد ظهرت — عند منعـرج الطريق — مركبة . وكان هذا إيذانا بانتهاء عمل «فوفليجين» ، فها هى ذى زوجته قد جاءته . وجذب الحوذى أعنة الجوادين عند حافة الخط الحديدى الرئيسى تماما ، وهو يتحدث إليهما بصوت رفيع عال ، يشبه صوت النساء ، وكأنه مربية تؤنب طفلين هيابين متململين ، فقد كانا خائفين من القطارات . وفى ركن من المركبة جلست امراة رشـيقة ، مضـطجعة على الوسائد ، ينم مظهرها عن شرود بالها . فقال المدير الفرعى : « لا بأس يا صديقى الطيب ، دعها لوقت آخر » . ولوح بيده كما لو كان يقول : « لدى ما هو اهم من القضبان ، لاشـغل به » .. وانطلقت المركبة بالزوجين .

- ٦ -

● بعد ثلاث او أربع ساعات — وقد غابت الشمس تقريبا — نهض من الأرض شخصان ، فى حقل على مسافة من الخط الحديدى ، لم يكن يبدو فيه احد قبل نهوضهما . وتلفتا خلفهما ، ثم أسرعا بالمسير . وقال « تيفرزين » « مزيدا من السرعة ! .. لست اخاف ان يفاجئنا البوليس ، ولكن ما إن يفرغ أولئك الهيابون من عملهم فى الأرض حتى يلحقوا بنا ، ولست أطيق منظرهم .. ما الغاية من عقد لجنة إذا كنتم تسيرون فى الأمور على هذا النحو ؟ .. إنكم تعبثون بالنار ، ثم تأوون إلى المخابىء .. إنك — بالذات — رائع ، إذ تستطيع ان تساير تلك الجماعة ! » .

— لقد أصيبت زوجتى « داريا » بالتيفوس(١) ، وعلى ان انقلها إلى المستشفى . وليس بوسعى ان اقبل شيئا ريثما أفعل ذلك .

— يقولون ان الأجور تدفع اليوم ، وسأذهب إلى المكتب . فإذا لم يدفعوا اليوم ، فلن احفل بكم جميعا .. قسما بالله لن احفل ، بل سأضع نهاية لكل هذا ، وفقا لما أراه ، ولن أتريث دقيقة واحدة .

— وهل لى ان اسألك : كيف ستفعل ذلك ؟

— ليس فى الأمر سر .. سأذهب إلى غرفة الغلاية ، واطلق الصافرة .. وهذا كل شىء !

(١) الترجمة الفرنسية تنص على ان المرض « تيفويد » !

وودع كل منهما الآخر ، ثم انطلقا فى اتجاهين مختلفين . فسار « تيفرزين » على طول الخط الحديدى نحو المدينة ، وإذا به يصادف القوم قادمين من المكتب ، وقد تقاضوا اجورهم . وكانوا كثيرين ، فادرك — من المنظر — ان كل عمال المحطة تقريبا قد تلقوا نقودهم .. وكان الظلام يزداد ، وقد أضيئت المصابيح فى المكتب، بينما تجمع العمال المتسكعون فى الساحة . وعند مدخل الساحة كانت مركبة « نوفليجين » واقفة ، وقد جلست فيها زوجته ، فى عين الوضع السابق ، وكأنها لم تتحرك منذ الصباح .. وكانت فى انتظار زوجها ريثما يتسلم مرتبه .

وبدأ البرد(١) يتساقط ، فهبط الحوذى عن مجلسه ليرفع الغطاء الجلدى . وبينما كان يعالج الأذرع المعدنية المتيبسة ، وقد اتكأ بقدمه على ظهر العربة ، كانت مدام نوفليجين فى جلستها تعجب بمنظر قطرات البرد الفضية وهى تلمع تحت الضوء المنساب من مصابيح المكتب . وكانت نظراتها الثابتة الحالمة تتجاوز رؤوس العمال ، بشكل يوحى بأنها كانت كفيلة بأن تخترقهم — لو ان الأمر استدعى ذلك — وكأنهم مجرد برد او ضباب . ولمح « تيفرزين » منظرها فأشاح بوجهه ، ومر دون ان يحييها ، واعتزم ان يرجىء الذهاب لاستلام اجره ، حتى لا يصادف زوجها فى المكتب . واجتاز الساحة إلى ركن معتم منها ، فى ناحية « الورش » ،

(١) الثلج الرفيع (بفتح الباء والراء) .

حيث كانت المنصة الدوارة(١) تبدو كشبح مظلم ، والخطوط الحديدية تتفرع منها — فى اتجاه المخازن — على شكل مروحة.

وارتفعت عدة اصوات فى الظلام ، تنادى : « تيفرزين ! كوبريك ! » . وكانت ثمة ثلة من الناس أمام « الورش » . وفى الداخل ، كان ثمة شخص يصيح ، وصبى يبكى . وصاحت امرأة فى الجمع : « ادخلوا فانقذوا الصبى ! » .. كان رئيس العمال الكهل « بيوتر خودولييف » يضرب مساعده يوسوبكا(٢) ، كالمعتاد . وما كان « خودولييف » طيلة عمره بالقاسى على مساعديه ، ولا بالسكير السريع الانفعال . بل لقد مرت به فترة من الزمن — عندما كان عاملا شابا نشيطا — كان يجتذب فيها نظرات الإعجاب اجتذابا من عيون بنات التجار والقساوسة فى الضواحى الصناعية بموسكو . ولكن « مارفا » ، التى تخرجت فى مدرسة الراهبات بالأبرشية — فى ذلك العام — رفضته لتتزوج زميلا له ، هو « سافيلى نكيتيش » ، والد « تيفرزين » . وبعد خمس سنوات من النهاية الأليمة التى لقيها سافيلى — إذ احترق تماما فى حادث السكة الحديدية المروع الذى وقع فى سنة ١٨٨٣ — عاد « خودولييف » يجدد خطبته ، ولكن « مارفا » رفضته . ومن ثم عكف « خودولييف » على الشراب ، وتعود الشراسة ،

---

(١) « الصينية » . وهى جهاز تقف عليه القاطرة فيدور بها لتغيير اتجاهها .

(٢) تدليل اسم « يوسف » بلغة التتار .

محاولا ان يعبر عن نقمته على دنيا كانت تحمل وزر كل ما حاق به من نحس ، فى رايه .

أما « يوسوبكا » فكان ابن « جيمازيتدين »(١) حارس مجموعة المساكن التى كان « تيفرزين » يقيم فى احدها . وكان « تيفرزين » قد وضع الصبى تحت رعايته ، مما زاد من حقد « خودولييف » عليه ! .. وراح خودولييف يزأر ، وهو يجر يوسوبكا من شعره ، ويدق قفاه : « اهكذا يمسك المبرد ، ايها المدلل الأحول ؟ .. اهذه هى الطريقة التى تبرد بها قطعة من الزهر ، ايها التترى الدنىء المنحرف العينين ؟ » .

— اووو .. لن افعل ذلك مرة اخرى يا سيد ! .. اووو ، لن افعل ذلك ثانية ! .. اووو ، انك توشك ان تقتلنى !

— كأنما قلت له مرة ، وليس الف مرة .. أولا ، اضبط « ملزمة المخرطة » ، ثم ادر المخرطة ، ولكن ، أتحسبه يسمع الكلام ؟ .. كلا ، وإنما يمضى فى العمل بطريقته الجميلة .. لقد كاد يكسر المحور .. من حقه أن يحمد حظه لأنه لا يزال على قيد الحياة ، هذا الشيطان المنحرف العينين .. كل ما فعلته هو أن قرصت اذنيه وجذبت شعره قليلا !

وهنا تدخل تيفرزين ، قائلا : « إذن ، فأنت ترى ان من الواجب ان يقطع راسه جزاء على هذا ؟ .. خليق بك ان تخجل من نفسك يا خودولييف .. حقا ، خليق بشيخ ورئيس

---

(١) اسم تتارى ، هو تحريف لاسم جمال الدين المسلم .

عمال قديم مثلك أن يستحيى ! .. لقد شاب شعرك ، ولكنك لم تتعلم شيئا من حسن الإدراك بعد ! » .

ــ ابتعد .. ابتعد وأنت لا تزال سليما ، فلسوف أدق عظامك .. اتعظنى يا ذيل الكلب ؟.. لقد وضعوا نطفتك على أخشاب السكة الحديدية (الفلنكات) ، تحت بصر أبيك ، أيها الرخو ! .. إننى أعرف أمك المومس ، القطة الجربة !

والذى وقع بعد ذلك ، حدث فى ثانية واحدة، فقد أمسك كل من الرجلين أول شىء وصلت إليه يده على أرفف المخارط ــ حيث كانت الأدوات الثقيلة وكتل الحديد متناثرة ــ وأوشك أن يقتل الآخر ، لو لم يندفع الجمع ليفصل بينهما . ووقف خودولييف وتيفرزين ، ورأساهما منحنيان ، وجبهتاهما تكادان تتماسان ، وقد شحب لوناهما ، واحتقنت عيونهما . وكان الغضب قد ذهب بهما مذهبا جعلهما لا يقويان على الكلام . وكان القوم قد أمسكوهما بأيد حازمة ، وعقدوا أذرعهما خلفهما . وحاول الرجلان ــ مرة أو اثنتين ــ أن يفلتا ، وراحا يلويان جسديهما ويجران زملاءهما الذين كانوا يمسكونهما .. وتطايرت مشابك ثيابهما وأزرارها ، وانزلقت سترتاهما وقميصاهما عن أكتافهما .. وأحاطت بهما جلبة لا تنقطع : « الإزميل ! .. خذوا الإزميل منه ، وإلا هشم رأسه ! .. كفى ، اهدأ أيها الشيخ بيوتر ، وإلا كسرنا ذراعك ! .. لماذا تبقونهما وتتفرجون عليهما ! .. جروهما ، وأبعدوا كلا عن الآخر ، واحبسوا كلا فى مكان ، حتى ينتهى كل شىء ! » .

وبمجهود خارق ، استطاع تيفرزين ــ فجأة ــ أن يدفع عنه الرجال الذين كانوا يمسكونه ، وانطلق متحررا ، فاندفع نحو الباب . وهموا بأن يجروا وراءه لولا أن رأوه قد عدل عن الشجار ، فتركوه وشأنه . وخرج جاذبا الباب خلفه بقوة، وسار دون أن يتلفت وراءه . وأطبق عليه ليل الخريف المظلم الرطب ، وراح يتمتم لنفسه وهو يسير دون أن يفطن إلى وجهته : « كلما تحاول أن تساعدهم ، ينقضوا عليك بسكين ! » .. لقد أصبحت هذه الدنيا الدنيئة ، الحافلة بالأكاذيب والغش ، والتى ترسل فيها سيدة متخمة بصرها عبر حشد من العمال فى قحة وازدراء ، والتى يجد فيها سكير ــ من ضحايا مثل هذه المعاملة ــ لذة فى أن يثأر لنفسه ممن هم على شاكلته .. هذه الدنيا أصبحت بغيضة فى نظره أكثر مما كانت فى أى يوم آخر ! .. وراح يغذ السير وكأن خطواته كانت قادرة على أن تسبق الزمن إلى اليوم الذى يصبح فيه كل ما على الأرض معقولا ، متسقا فى انسجام ، كما كان يتمثل له فى مخه المحموم ! .. وكان يعرف أن كل جهوده فى الأيام القلائل الأخيرة : كل المتاعب ، وكل الخطب والاجتماعات ، وقرار الإضراب الذى لم ينفذ بعد ــ ولكنه لم يلغ على أية حال ــ كل هذه كانت « محطات » صغيرة منفصلة ، على الطريق العظيمة التى تمتد أمامهم !

ولكنه كان ــ إذ ذاك ــ مرهقا ، ضيق الصدر ، حتى لقد ود أن يجرى طيلة الطريق ، دون أن يقف ليلتقط أنفاسه . ولم يكن قد فكر فى المكان الذى يسعى إليه بخطواته الواسعة ،

ولكن قدميه كانتا تعرفان تمام المعرفة إلى أين تحملانه : إلى الصافرة !

ولم يقدر له ــ إلا بعد ذلك بكثير ــ أن يعرف القرار الذى اتخذته لجنة الإضراب بعد أن غادر مع « انتيبوف » المخبأ الأرضى .. القرار بأن يبدأ الإضراب فى تلك الليلة بالذات . ولقد قرروا ــ لتوهم ولحظتهم ــ المكان الذى يذهب إليه كل رجل منهم ، وأى الرجال يستدعون .. وكان ثمة جمع قد بدأ يزحف فعلا من المخازن ومن ساحة البضائع ، عندما أطلق « تيفرزين » صافرة « ورشة » إصلاح القاطرات، فانطلق صفيرها الأجش وكأنه يتصاعد من أعماق قلبــه ، ليسترسل بعد ذلك فى طبقة متوسطة من طبقات الصوت . وسرعان ما انضم إلى ذلك الجمع رجال من قسم « الغلايات»، القوا بأدواتهم عندما سمعوا إشارة تيفرزين . ولقد ظــل تيفرزين لسنوات عديدة يظن انه الوحيد الذى اوقف العمل والحركة على الخط الحديدى فى ذلك المساء . ولم يعلم الحقيقة إلا بعد ذلك بكثير ، اثناء المحاكمة ، عندما اتهم بالاشتراك فى الإضراب ، وليس بالتحريض عليه !

وجرى الناس خارجين ، وهم يتساءلون : « إلى اين يذهب القوم ؟ .. لماذا تنطلق الصافرة ؟ » . فانبعث صوت من جوف الظلام : « إنك لست أصم .. هناك حريق ، وهم يطلقون الصافرة للإنذار ، ويريدون منــا ان نطفئــه ! » .. « واين الحريق ؟ » .. « لا بد أن ثمة حريقا ، وإلا ما اطلقوا الصافرة ! » .. وصفقت أبواب ، واقبل مزيد من الناس ،

وسمعت أصوات أخرى : « حريق ؟ ! .. اسمعوا إلى هــذا الجاهل ! .. انه إضراب ، هل فهمت ؟ .. القوا بأدواتكم يا رفاق ، ودعوهم يأتوا بحمقى غيرنا يؤدون هــذا العمل القذر . اخرجوا إلى دوركم ايها الفتيان ! » .

وأخذ عدد المنضمين إلى الجمع يتزايد باطراد .. واعلن عمال السكة الحديدية الإضراب !

ـ ٧ ـ

. عاد « تيفرزين » إلى داره بعد يومين ، مســوقا بالحاجة إلى النوم ، وقد راح البــرد ينخــر عظامه ، فان الصقيع ــ الذى لم يسمع من قبل عن سقوطه فى مثل هذا الوقت من العام ــ اخذ يتساقط فى الليلة السابقة ، ولم يكن « تيفرزين » يرتدى ثيابا شــتوية . واســتقبله لدى الباب الخارجى « جيمازتدين » ، حارس الباب ، فبادره قائلا فى لغة روسية مهشمة : « شكرا لك يا سيد تيفرزين .. إنك لم تترك يوسوبكا حتى يصاب بضر .. لسوف أدعو لك فى صلاتى دائما » .

ــ انك معتوه يا جيمازتدين .. من الذى تدعوه سيدا ؟ .. دعك من هذا بالله وعجل بما لديك من قــول ، فأنت تدرك قسوة البرد !

ــ ولماذا تتعرض للبرد ؟ .. لسوف تدفــأ سريعــا يا « كوبريان سافيليتش » . لقد احضرت وأمك « مارفــا جافريلوفنا » من مخــازن المحطــة بالأمس ملء حظيرة من

الخشب .. وكان كله من خشب التامول الجاف ، الصالح للوقود .

ــ شكرا يا جيهازتدين . إذا كان لديك ما تريد أن تنبئنى به ــ فوق هذا ــ فعجل به ، إذ أن جسدى يكاد يتجمد .

ــ اردت ان انبئك بان لا تقضى ليلتك فى البيت يا سافيليتش .. يجب ان تختبىء ، فقد كان البوليس هنا ، يسأل عمن يفد على البيت . وقد قلت ان ليس هناك من يفدون على البيت . اسعفتنى قريحتى ، فقلت إن الذين يزورونك كلهم من السكك الحديدية ، ولا أغراب هناك .. تالله ، لقد قلت هذا !

ولم يكن تيفرزين متزوجا ، بل كان يقيم مع أمه واخيه الأصغر المتزوج . وكانت المساكن ملكا لكنيسة « الثالوث المقدس » المجاورة ، فكان بين السكان بعض رجال الدين ، واثنان من الباعة المتجولين ــ احدهما قصاب ، والآخر بدال ــ ولكن القسم الأكبر من السكان كانوا من صغار الكتبة المستخدمين فى سكة (موسكو ــ بريست) الحديدية .. اما البيت فكان مشيدا بالحجر ، حول فناء قذر غير مرصوف . وكان ثمة سلم ــ ذو درجات مكسوة بالخشب ــ مثبت إلى الواجهة الخارجية المطلة على الفناء ، تفوح من درجاته القذرة النحيلة رائحة القطط والكرنب المخمر .. وقد الحقت بطبقات الدار دورات المياه وحجرات محكمة الرتاج لتخزين الأطعمة .

وكان شقيق « تيفرزين » قد خاض غمار الحرب مع

اليابان ، متطوعا ، وجرح . وكان ــ فى تلك الآونة ــ يقضى فترة النقاهة فى المستشفى العسكرى فى (كراسنويارسك) ، فذهبت زوجته وابنتاه إلى هنــاك ليرينه ويعدن به . فقد كان آل تيفرزين يعملون دائما فى السكك الحديدية ــ جيلا بعد جيل ــ فكانوا محبين بطبيعتهم للأسفار ، وكانوا يسافرون فى طول روسيا وعرضها بموجب اذون مجانية .. ومن ثم فقد كان المسكن هادئا وخاليا اللهم إلا من « تيفرزين » وأمه . وكان المسكن فى الطابق الثانى ، وقد اقيم خارج مساكن الطابق برميل كبير كان السقاء يملأه يوميا بالماء . ولاحظ « تيفرزين » ــ حين بلغ الطابق الثانى ــ ان وعاء البرميل كان قد دفع جانبا ، واستقر على سطح الماء المتجمد قدح من الصفيح ، فابتسم قائلا لنفسه : « لا بد أن « بروف » كان هنا . إن طريقة هذا الرجل فى الشرب تجعله يلوح وكأن أمعاءه تضطرم ! » .. وكان يعنى «بروف أفاناسييفيتش سوكولوف» مرتل الأناشيد فى الكنيسة .. وكان من اقارب أم «تيفرزين».

وانتزع « تيفرزين » القدح من الثلج ، وجذب يد جرس باب مسكنه . وهبت ريح دافئة ، منزلية ، محملة ببخار الطهو ، تحييه . فصاح : « هالو يا أماه ، إن لديك نارا مستعرة طيبة ، ما أبدع الدفء هنا ! » . فارتمت امه على صدره ، مطوقة عنقه ، وانخرطت فى البكاء . فمسح على رأسها ، ولم يلبث ــ بعد برهة ــ ان نحاها عنه فى رفق ، وقال بصوت لطيف : « لا مكسب بلا إقدام ومغامرة يا أماه .. إن الخط الحديدى قد توقف من موسكو إلى وارسو » .

— اعرف .. وهذا سر بكائى . لسوف يسعون للقبض عليك يا كوبرينكا(١) . فيجب أن تهرب !

— إن صديقك اللطيف « بيوتر » يا اماه اوشك ان يحطم راسى !

قال هذا محاولا ان يضحكها ، ولكنها قالت بلهجة جادة : « من الإثم ان تضحك منه يا كوبرينكا .. يجب ان تحزن عليه، فهو نفس مسكينة ضالة ! » .

— لقد قبضوا على «انتيبوف» .. جاءوا بالليل ففتشوا مسكنه ، وقلبوا كل شيء راسا على عقب ، ثم اخذوه فى هذا الصباح . فى حين ان زوجته « داريا » فى المستشفى مريضة بالتيفوس ، وابنهما « باشا » — التلميذ فى المدرسة الثانوية — وحيد فى البيت مع عمته الصماء .. ولسوف يطردونهما من المسكن . اعتقد ان من واجبنا ان نأخذ الصبى ليقيم معنا .. وما الذى كان « بروف » يبتغيه ؟

— وكيف عرفت انه جاء ؟

— رايت برميل الماء غير مغطى ، والقدح على الثلج .. فقلت فى نفسى ان بروف كان ولا بد يعب الماء عبا !

— ماأذكاك يا كوبرينكا ! .. اجل ، لقد كان بروف هنا ، « بروف افانا سييفيتش » ، جاء ليستعير بعض كتل الخشب ،

(١) « كوبرينكا » ، او « كوبريان سانيليتش » ، او « تيفرزين » ، كلها اسماء لرجل واحد .

فأعطيته بعضا . ولكن ، ما أحمقنى إذ اتكلم عن هذا ! .. لقد انمحت من ذهنى الأنباء التى جاء بهـا بروف . فكر معى يا كوبرينكا ! .. لقد وقع القيصر بيانا ، ولن يلبث كل شيء ان ينقلب راسا على عقب . سيلقى كل امرىء المعـاملة الصحيحة ، فيحصل الفلاحون على الأرض ، ونحظى نحن بالمساواة مع علية القوم !.. لقد وقع البيان فعلا، كما يقول، ولم يبق إلا إعلانه . وارسل المجمع المقدس تعليمات باجراء يتخذ فى القداس .. صلاة شكر لله ، او صـلاة من اجل القيصر .. لقد ذكر لى الأمر ، ولكننى نسيت !

— ٨ —

● وجاء « باشا انتيبوف » — الذى كان أبوه قد اعتقل كواحد ممن نظموا الإضراب — ليعيش مع آل تيفرزين . وكان صبيا نظيفا ، حسن الهندام ، ذا قسمات متسقة وشعر احمر مفروق عند منتصف رأسه . وكان لا يفتأ يمر عليه بالفرشاة، ويسوى من أطراف زيه المدرسى ، أوقفل حزامه الذى كان يحمل شعار المدرسة . وكان على حظ كبير من روح الفكاهة ، وقد أوتى قوة ملاحظة نادرة ، واعتاد ان يغرق نفسه وكل من معه فى الضحك بمهارته فى تقليد كل ما كان يسمعه أو يراه .

وما إن أعلن البيـان — فى ١٧ اكتوبر — حتى انتظمت مظاهرة كبيرة ، بدأت من (بوابة تفير) ، وكان مقدرا ان تسير إلى (بوابة كالوجا) فى الطرف الآخر من موسكو . ولكن من المحتمل انها كانت مصداقا للمثل القائل : كثرة الطهاة تفسد المأدبة ! .. إذ كانت عدة هيئات ثورية قد رسمت خطتهـا

مشتركة ، ولكنها لم تلبث ان اختلفت فيما بينها ، فتخلت عنها، حتى إذا سمعت ان الناس قد خرجوا فى اليوم المعين ــ رغم ذلك ــ بادرت إلى إرسال مندوبيها ليقودوا المتظاهرين . وبالرغم من كل ما بذله « تيفرزين » كى يثنى امه عن الاشتراك فيها ، فانها انضمت إلى المتظاهرين ، كما ذهب معها « باشا » فى مرح وود ، كعادته .

وكان يوما باردا ، من ايام نوفمبر ، مشوبا بالصقيع ، وقد خيمت على المدينة سحابة غائمة ، واخذت كسف الجليد تتساقط ــ واحدة بعد اخرى ــ فتدور فى بطء وتردد ، قبل ان تستقر على الرصيف كتراب أسمر متفتت . واقبل الناس فى الشارع متدفقين كسيل عرم .. وجوه ، ووجوه ، ووجوه .. ومعاطف شتوية مبطنة، وقبعات من فراء الغنم .. طلبة وطالبات ، شيوخ واطفال ، عمال السكك الحديدية فى زيهم الرسمى ، عمال من مخزن « الترام » ومن مركز « التليفونات » فى احذية ذات رقاب تصل إلى الركب ، وتلميذات وتلاميذ من المدارس .. وظلوا وقتا ينشدون « المارسيليز » و « وارسو » و « سقطوا ضحايا » ثم اعتدل رجل كان يسير بظهره ــ عند راس الموكب ــ منشدا وملوحا بقلنسوته، وقد راح يستخدمها كعصا رئيس الفرقة الموسيقية ليضبط الانغام .. اعتدل موليا وجهه فى اتجاه الموكب ، واعاد قلنسوته إلى راسه ، وراح يصغى لما كان غيره من القادة المحيطين به يقولون . وإذا الإنشاد يضطرب فى فوضى ، ويخفت .. وارتفع صوت الأقدام التى لا حصر لها ، وهى تسحق الجليد على ارض الطريق .

وكان القادة قد تلقوا رسالة من الذين كانوا يعطفون عليهم: إن فرسان القوزاق[1] كانوا يتربصون فى كمين للموكب قرب نهاية الشارع ، وقد ابلغ النبأ تليفونيا إلى صيدلى قريب . فقال القادة : « وماذا فى ذلك ؟ .. يجب ان نلزم الهدوء ، ولا نتسرع ، فهذا هو اهم الامور . يجب أن نحتل اول مبنى من المرافق العامة نصادفه ، ثم نحذر القوم ، ونتفرق ! » . ودار الجدل حول خير بناية يقصدونها . واقترح بعضهم مبنى جمعية مستخدمى المتاجر ، واقترح آخرون مبنى المدرسة الفنية .. وكان ثمة فريق ثالث اقترح مبنى مدرسة المراسلات التجارية الأجنبية . وفى جدلهم هذا ، بلغوا طرف مبنى لإحدى المدارس العليا ، يتيح حمى ومأوى لا يقل عما تتيحه تلك البنايات التى سلف ذكرها . فلما حاذوا مدخل المدرسة ، عرج عليها قادة المظاهرة ، وصعدوا درجات مدخلها شبه الدائرى ، واشاروا لمقدمة الموكب بالتوقف ، ولكن القوم اساءوا فهم إشارتهم ، ففتحت الأبواب العديدة ، وزحف القوم ــ معطفا إلى جانب معطف ، وقلنسوة إلى جانب قلنسوة ــ إلى البهو الذى كان يلى المدخل ، وراحوا يصعدون سلم المبنى .

وصاحت بضعة اصوات فى المؤخرة : « إلى قاعة المحاضرات .. قاعة المحاضرات ! » . ولكن الباقين ظلوا مندفعين إلى الأمام . متفرقين فى الردهات ، منتشرين فى

---

(١) كان الجنود الذين استخدموا من فرق الفرسان العادية ، ولكن العامة ظنوهم من « القوزاق » .

الفصول . على أن القادة أفلحوا — فى النهاية — فى سوقهم
إلى قاعة المحاضرات، وحاولوا بضع مرات أن
ينبهوهم إلى الكمين ، ولكن أحدا لم يصغ إليهم .. بل ان
ما حدث من توقف ، ومن دخول إلى المبنى ، اخذ ماخذ الدعوة
الى اجتماع تقرر ارتجاليا ، وهو ما بدأ فى الحال ، فى الواقع .
واغتبط القوم بالجلوس هادئين برهة ، بعد كل ما سبق
من مشى وإنشاد ، فتركوا غيرهم يقومون بما كان عليهم ان
يقوموا هم به من هتاف ، حتى بحت أصوات هؤلاء . ولاح
ان الخطباء — الذين اتفقت كلماتهم على جميع النقاط — كانوا
يكررون جميعا اقوالا واحدة . وإذا كانت ثمة فوارق بينهم ،
فقد تركت تمر فى سبيل الاستمتاع بالجلوس والراحة. وانتهى
الأمر إلى ان اسوأ الخطباء جميعا هو الذى تلقى اكبر قسط
من الحفاوة والتحمس . ولم يبد القوم اى محاولة لأن يتتبعوا
حديثه ، بل راحوا يضجون بالتحبيذ والإطراء إثر كل كلمة ؛
دون أن يحفل أحد بهذه المقاطعات ، ومع موافقة كل امرىء
على كل ما كان يقال ، بدافع من مجرد السأم ونفاد الصبر .
وكانت ثمة صرخات « يا للخزى ! » ، وكتبت مسودة برقية
للاحتجاج ، ثم ضاق الحشد بصوت الخطيب الأجش البطىء ،
فوقفوا دفعة واحدة ، وكأنهم شخص واحد ، وتدفقوا إلى
الخارج كتلة واحدة ، متناسين ذلك الخطيب تماما .. وراحوا
يهبطون السلم ، وينسابون إلى الشارع ، معطفا إلى جانب
معطف ، وقلنسوة إلى جانب قلنسوة .. واستأنف الموكب
سيره .

وكان الثلج قد بدأ يتراكم اثناء الاجتماع الذى عقد داخل
المبنى ، فاذا الشارع أبيض .. وأخذ الجليد يتساقط بغزارة
مطردة . وعندما انقض الفرسان ، لم يدرك السائرون فى
المؤخرة شيئا مما جرى بادىء ذى بدء ، فقد انحدرت إليهم
جلبة متضخمة ، كأنها صادرة عن جموع تهتف : « هوراه ! » ،
وضاعت وسط الضجيج الصرخات الفردية التى كانت تنادى:
« النجدة ! » و « يالك من قاتل ! » . وفى نفس اللحظة تقريبا
ظهرت خلال الدرب الذى حدث حين انقسم الجمع ، رؤوس
الفرسان ورؤوس جيادهم وعفراتها ، والسيوف الملوحة .
تنطلق — فى صمت وخفة — وسط الجمع ، وكأنها محمولة على
موجات الجلبة والضوضاء .

واندفعت نصف فصيلة من الفرسان خلال الحشد ،
تصول وتجول ، وتنقض على ذيل الموكب .. وبدأ التقتيل !..
وإن هى إلا بضع دقائق ، حتى كان الشارع خاليا بمعنى
الكلمة ، إذ تناثر الناس فى الشوارع الجانبية ، حيث كان
الجليد أخف انهمارا . وكانت بوادر المساء أشبه بخطوط
مهوشة من عبث قلم من اقلام الفحم . ثم مدت الشمس
الجانحة للمغيب اصبعا من وراء المنازل ، صوب ناصية
الطريق ، فصبغت كل ما فى الشارع باللون الأحمر .. فاذا
قمم خوذات الفرسان حمراء ، وإذا العلم المجرور على الأرض
احمر ، وإذا لطخ الدم وخيوطه على الجليد حمراء . وكان ثمة
رجل يزحف على حافة الطريق وهو يئن ، وقد شق رأسه .
وكانت ثمة ثلة من الفرسان عائدة على مهل ، من الشارع
الذى كانت المطاردة قد حملتهم إليه ، وإذا « تفرزينا »

العجوز(١) تجرى من جانب إلى آخر — تحت أقدام الخيــل تقريبا — وقد تهدل وشاحها عن راسها ، وراحت تصرخ عاليا فى جزع : « باشا ! .. باشا ! » .

كان « باشا » إلى جانبها طيلة الوقت ، يضحكها بتقليد آخر خطيب فى الاجتماع . ولكنه اختفى فجــأة ، فى غمـــرة الارتباك والفوضى ، عندما انقض الفرسان .. وهوى على ظهرها أحد سياط هؤلاء . ومع انها لم تكد تشعر به خلال معطفها ذى الحشو السميك ، فانهــا راحت تســب وتلوح بقبضتها مهددة الفرسان المتراجعين ، وهى تستنكر جراتهم على أن يضربوا عجوزا مثلها ، ويضربوها علانيـــة بهــذا الشكل .. وراحت تتلفت حولها من جانب إلى آخر — فى قلق — حتى قدر لها أن تلمح الصبى ، اخيرا ، فى الجـــانب الآخر من الشــارع . وكان يقف فى فجوة بين حانوت بدال ومدخل دار مشيدة بالأحجار ، لجا إليهـــا فريق من المـــارة مصادفة ، إذ ساقهم إليها فارس كان فوق الرصيف ، حتى لا يمسهم الأذى الذى كان منصبا على المتظاهرين .. وراق للفارس ذعرهم ، فراح يعرض عليهم سلطانه مزهوا ، دافعا جواده الى التراجع بمؤخرته نحو الحشد ، وهو يرفع مقدمتيه فى الهواء ، وكانه فى « سيرك » ! ثم لمح رفاقه يعودون فجاة ، فاستدار بسرعة ، وبقفــزتين ، اتخــذ لنفســه مكانا فى صفوفهم !

---

(١) هى والدة « تيفرزين » ، واسمها الرسمى الكامل هو « مارفــا جافريلوفنا » .

وتفرق الحشد ، فاندفع « باشا » إلى العجوز ، وقد ذهب به الخوف إلى حد اعجزه عن ان يصدر اى صــوت . وراحت « تيفرزينا » تزمجر وتدمدم ، طيلة طريقهما إلى البيت: « يا للقتلة السفلة ! .. إن الشعب مغتبط بأن القيصر قد منحهم الحرية ، ولكن هؤلاء السفاكين الملاعين لا يطيقون ذلك .. كل ما يبغون هو ان يفسدوا كل شىء ، وأن يقلبوا معنى كل كلمة ! » .. كانت ناقمة على الفرسان ، ناقمة على الدنيا باسرها .. بل إنها كانت ناقمة — فى تلك اللحظة — على ابنها ذاته . فقد كانت — إذا ما ثارت نفسها — ترى كل المتـــاعب الراهنـــة من ذنب « رفاق كوبرينكا المتبطلين ، المتسكعين » ، كما كانت تدعوهم !

وراحت تغمغم ســاخطة : « ما الذى يبتغونه ، هؤلاء الأغبياء ؟ .. إنهم هم أنفسهم لا يعرفون ، طالما كان بوسعهم ان يرتكبوا الشرور .. يا لهم من اماع ! .. إنهم على شاكلة ذلك الثرثار الذى لم يكن يعى ما يقول .. ارنى يا « باشا » ، يا حبيبى ، كيف كان يتكلم .. ارنى ايها العزيز ! .. اواه ، اكاد انفجر من الضحك ، اكاد انفجر ! .. إنك لتقلده حتى لتكاد تبدو فى صورته ! » .

وفى البيت، راحت تنحى باللائمة والتقريع على ابنها .. افكانت فى سن يليق معها لجلف مجعد الشعر ، يمتطى جوادا، ان يضربها بسوط على ظهرها ؟ ! .. ولم يزد ابنها على القول: « وما ذنبى يا أماه ؟ .. من تظنيننى ؟ .. كأنى بك تحسبيننى قائد القوزاق ، أومدير الشرطة ! » .



فاندفع « الباشا » الى العجوز ، وقد ذهب به الخوف الى حد اعجزه عن أن يصدر اى صوت ..

- ٩ -

• كان « نيكولاى نيكولاييفيتش » يشهد فرار المتظاهرين من النافذة ، فتبين شخصياتهم ، وراح يبحث عما إذا كان « يورا » بينهم • ولكن احدا من اصدقائه لم يكن هناك — على ما لاح له — وإن خيل إليه انه لمح ابن « دودوروف » ، ذلك المتهور الذى لم يكن يتذكر اسمه ، والذى استخرجت رصاصة من كتفه ، منذ عهد غير بعيد •• وها هو ذا قد عاد ثانية — فيما بدا — وراح يتسكع فى اماكن لم تكن له بها اية علاقة •

وكان «نيكولاى نيكولاييفيتش» قد عاد من (بطرسبورج) منذ عهد قريب • ولم يكن له فى (موسكو) مسكن ، كما انه لم يكن راغبا فى ان ينزل بأحد الفنادق • ومن ثم فقد نزل فى دار اقارب له تربطهم به علاقة نسب بعيد ، هم اسرة « سفينتيتسكى » ، فأفردوا له ركنا من حجرة فى الطابق الاول • ذلك انهم لم يؤتوا اطفالا ، وكان البيت الذى استأجره اهلهم من اسرة الامير « دولجوروكى » — منذ زمن سحيق — كبيرا جدا ، فقد كان من تلك المجموعة من البنايات التى اقيمت فى غير تناسق ، وعلى انماط متباينة — تتوسطها ثلاثة افنية وحديقة — على ارض (ولجوروسكى) •• وهى ارض مؤلفة من ثلاث قطع تربط بينها حوارى ضيقة، وتعرف بالاسم القديم (موشنوى جورودوك) •• اى بلدة الدقيق !

وكانت حجرة المكتبة معتمة قليلا ، بالرغم من نوافذها الاربع • وكانت مزدحمة بالكتب ، والصحف ، والسجاجيد ، والستائر •• ولها شرفة على شكل نصف دائرة حول احد

اركان المبنى ، وقد أحكم سد الأبواب الزجاجية لهذه الشرفة ، اتقاء لبرد الشتاء . وكانت هذه الأبواب — ونافـذتان من الأربع — تطل على حارة تمتد إلى مسافة غير قصيرة ، وتبدو فيها دروب الزحافات ، وصفوف متعرجة من الدور والأسوار . ومن الحديقة ، كانت الظلال القرمزية تتصاعد إلى الحجرة ، وكان الأشجار المثقلة بالصقيع الأبيض ، وفروعها — التى كانت تبدو كقضبان من الشمع المغبر — تتوق إلى ان تلقى بأثقالها على ارض حجرة المكتبة .

ووقف « نيـكولاى نيـكولاييفيتش » يسرح بصره فى الفضاء ، وهو يفكر فى آخر شتاء قضاه فى (بطرسبورج) .. يفكر فى « جابون »[1] ، و « جـوركى » ، وفى لقـائه مع « ويت »[2] ، وكلهم من أحدث الكتاب الذين ذاع صيتهم .. إنه قد فر من المدينة المتهوسة إلى هـدوء العاصـمة القديمة وسكينتها ، لينصرف إلى تأليف كتاب اختمر فى ذهنه . ولكنه لم يجد نفسه اسعد حالا .. فمن محاضرات فى كل يوم ، إلى برامج دراسية عليا للنساء ، إلى الجمعية الفلسفية الدينية ، إلى الصليب الأحمر ، إلى صندوق الاكتتابات للاضراب .. لم تكن تتاح له لحظة واحدة كى يستجمع أفكاره . لقد استجار

---

(١) قس كان من زعماء الثورة ، وعلى رأس المظاهرة التى اتيت فى ساحة القصر الشتوى فى سنة ١٩٠٥ ، فى يوم عرف باسم « يوم الاحـد الدامى » . ثم اشتبه الثوار فى أنه من الجواسيس الموفدين لاثارة الفتن ، فقتلوه !

(٢) تولى رئاسة الوزارة الروسية فى سنة ١٩٠٥

من الرمضاء بالنار . ولعل ما كان بحاجة إليه هو ان يرحل إلى سويسرا .. إلى إحدى مقاطعاتها النائية ، إلى البحيرات الوادعة ، والسماء ، والهواء الصافى .

وتحول « نيكولاى نيكولاييفيتش » عن النافذة . واحس برغبة فى أن يصيح مناديا اى مخلوق ، أو فى أن ينطلق هائما فى الطرقات ، ولكنه تذكـر ان « فيفولوشـنوف » — تلميـذ تولستوى — كان قادما لمقابلته من اجل مهمة ما . فراح يذرع الحجرة ، وافكاره تجنح نحو ابن أخته .. فعندما انطلق — خلال نهر (الفولجا) — إلى (بطرسبورج) ، ترك « يورا » فى (موسكو) ، حيث كان له كثير من الأقارب : آل فيدينيابين ، وآل اوستروميسلينسكى ، وآل سيليافين ، وآل ميخايليس ، وآل سفينتيتسكى ، وآل جروميكو . ولقد مكث — فى البداية — مع ذلك الكهل الثرثار الخامل « اوستروميسلنسكى » ، الذى كان معروفا بين اهله باسم « فريدى » . وكان فريدى يعيش فى الإثم مع « موتيا » ، التى كانت تحت وصايته . ومن ثم فقد كان ينظر إلى نفسه كخارج على النظام القائم ، وبطل للفكر التقدمى . وكان قليلا ما يحقق ثقة اقاربه فيـه ، حتى إنه استولى على النقود التى قـدمت إليـه — للانفـاق على « يورا » — وراح ينفقها على نفسه . فلم يلبث « يورا » ان نقل إلى رعاية آل جروميكو — اسرة العلماء — وظل مقيما معهم .

وقال نيكولاى نيكولاييفيتش فى نفسه إن الوسط لدى آل جروميكو كان ملائما كل الملاءمة ليورا . فقد كانت ابنتهم « تونيا » فى سن « يورا » . كما كان « ميشـا جـوردون »

— صديق يورا وزميله فى الدراسة — يقضى معظم وقته معهما .. وقال نيكولاى نيكولاييفيتش فى نفسه : « يا لهم من ثلاثى مضحك ! » . وكان الثلاثة قد استغرقوا فى قصص « معنى الحب » ، و « انشودة كرويتزر » ، وتولتهم نزعة إلى التبشير بالعفة . وكان من الخير للمراهقين أن يتجهوا إلى التحمس للطهر ، طبعا .. ولكنهم كانوا يسرفون فى ذلك ، حتى فقدوا كل إدراك للحد المعقول ! .. ما كان اغرب افكارهم، ويا لسذاجتهم الصبيانية !.. كانوا — وقد ازعجهم « الجنس » — يدمغون كل ماله علاقة به بانه « مبتذل » ، ويستخدمون التعبير اللاتينى « يدعو إلى الاشمئزاز » ، ووجوههم تشحب او تتضرج إذ ينطقون به .. كان « الابتذال» تعبيرا يطبق على الغريزة ، والفعل الفاضح، والدعارة، و.. كل دنيا الجسد تقريبا !

وقال نيكولاى نيكولاييفيتش لنفسه : « لو اننى كنت فى موسكو ، ما سمحت لهذا بان يستفحل . ان الحياء ضرورى ، ولكن فى نطاق محدود .. آه ، ها هو ذا نيل فيوكتيسوفيتش قد اقبل ! » .

وقطع عليه افكاره مقدم الضيف .

— ١٠ —

● اقبل رجل بدين ، يرتدى قميصا رماديا — من طراز « تولستوى » — وحزاما عريضا من الجلد ، وحذاءين من اللباد ، و « بنطلون » منتفخا عند الركبتين . وكان يبدو سمحا ، محلقا فى اجواء الخيال ، بينما كانت ثمة نظارة انفية

(بدون إطار ، ولكنها ذات مشبك يضغط على جانبى الأنف) ترتعش فى غضب على طرف انفه ، وقد علقت بشريط اسود عريض . وكان قد خلع معطفه فى البهو ، ولكنه لم يتخل عن ملفحته ، فدخل الغرفة وهو يجرجرها على الأرض ، وقبعته اللبادية المكورة فى يده . وكانت هذه العوائق كفيلة بان تمنعه من ان يصافح صاحبه ، بل ومن ان يحييه ، فاكتفى بأن زمجر وهو يجيل بصره فى الحجرة : « أمـ .. مم .. م ! » . وإذ ذاك قال نيكولاى نيكولاييفيتش : « ضعها فى اى مكان ! » . وبذلك رد إليه جاشه ومقدرته على الكلام !

كان الضيف من تلاميذ تولستوى .. اولئك الذين كانت تعاليم الأستاذ القلقة تفقد معهم عمقها ، وتتجاوز كل إصلاح، وتنتهى اخيرا إلى استقرار وخمول طويلين لا يعكر صفوهما شىء . وكان قد جاء يدعو نيكولاى نيكولاييفيتش إلى ان يخطب فى اجتماع لمعونة المسجونين السياسيين كان من المقرر عقده فى مدرسة من المدارس .. فقال نيكولاى : « لقد القيت خطابا فى تلك المدرسة فعلا ! » .

— لمساعدة المسجونين السياسيين ؟

— اجل .

— إذن ، فعليك ان تعيد الكرة !

وتردد نيكولاى نيكولاييفيتش قليلا ، ثم لم يلبث ان قبل . وإذ انتهى الأمر ، لم يحاول ان يستبقى ضيفه ، وكان بوسع هذا ان ينصرف لفوره ، لولا ان شعر — فيما يبدو — بان

التعجيل بالانصراف امر غير لائق، فراح يفكر فى شىء يقوله .. شىء فيه حيوية ، وفيه انطلاق طبيعى . واشتد التوتر ، وبات الحديث ممجوجا !

ــ إذن فانت تتقاعد فى هذه الايام .. هل ستتجه إلى التصوف ؟

ــ ما الذى تعنيه ؟

ــ إنه مضيعة ، كما تعرف ! .. هل تذكر مجلسنا القروى ؟

ــ طبعا .. الم نجاهد فيه معا ؟ !

ــ ولقد ابلينا فيه بلاء حسنا ، إذ كافحنـا من اجـل المدارس ، وكليات المعلمين .. اتذكر ؟

ــ طبعا .. كانت معركة بديعة !

ــ ثم ، الم تقم بعد ذلك بجهد من اجل الصحة العامة ؟

ــ بلى .. لبعض الوقت .

ــ هم ــ م ــ م ! .. اما الآن ، فهناك مدعو العلم ، اولئك المتالهون ، المترهفون ، المترفعون ، و : « لنكن مثل الشمس »[١] ! .. إننى لا اصدق هذا .. رحماك اللهم ! رجل ذكى مثلك ، اوتى ما لديك من روح طيبة ، ومن دراية بالناس .. اعترف ! ام ترانى اتطفل على قدس الأقداس ؟

---

(١) عنوان ديوان للشاعر « ك . د . بالمونت » .

ــ لماذا تتكلم لمجرد الكلام ؟ .. فيم تجادل ؟ .. إنك لا تعرف آرائى .

ــ إن روسيا بحاجة إلى مستشفيات ومدارس ، لا إلى متالهين ومترقعين !

ــ ليس هناك من ينكر هذا .

ــ إن الفلاحين فى أسمال بالية ، يتضورون جوعا .

وهكذا راح الحديث يسير متخبطا . ومع ان نيكولاى نيكولاييفيتش كان يدرك أن لا جدوى من ورائه ، إلا انه حاول ان يشرح ما اجتذبه إلى بعض كتاب المدرسة المثالية . ثم عرج على آراء تولستوى ، فقال : « إننى اقرك إلى حد ما ، ولكن تولستوى يقول إن المرء كلما اوغل فى التعلق بالجمال ، بعد عن الخير » .

ــ إذن فانت ترى العكس .. إن الدنيا ستجد الخلاص عن طريق الجمـال ، اليس كذلك ؟ .. دوستويفسـكى ، وروزانوف[١] ، والمسرحيات الغامضة ، وما إلى ذلك ؟ !

ــ مهـلا ، دعنى احـدثك عما أرى .. إننى ارى ان الوحش الكامن فى الإنسان إذا تسنى إخضاعه بالتهديدات .. اى نوع من التهديدات، سواء السجن أو العقاب بعد الموت..

---

(١) ف. روزانوف (١٨٥٦ ــ ١٩١٩) .. كانت أفكاره التصوفية ذات اثر على بعض المثقفين فى (سانت بطرسبورج) و (موسكو) ، ولكن أتباع تولستوى لم يكونوا يقرونها .

فإن المثل الأعلى للإنسانية يصــبح « مروض الأســود » فى «السيرك» بسوطه، وليس الداعية الذى يضحى بنفسه !.. ولكن ، الا ترى ان الأمر على هذا النحو : ان الذى ظل يرفع الإنسان فوق مستوى الوحش ليس الإرهاب ، وإنما هى الموسيقى التى فى اعماقه .. قوة الحقيقة العزلاء التى لا سبيل إلى مقاومتها ، وجاذبية امثلتها .. لقد كان من الأمور التى اخذت على علاتها دائما ، ان اهم ما فى الأناجيل هى التعاليم الخلقية والوصايا . اما فى رأيى ، فإن أهم شىء هو ما حدث من ان المسيح استمد حكمه وعظاته من الحياة اليومية .. هو انه شرح الحقيقة على ضــوء الواقع الملموس فى كل يوم .. والفكرة الكامنة وراء ذلك هى أن المعــاشرة بين المخلوقات الفانية أمر سرمدى ، وأن الحياة كلها مجرد معنى رمزى ، لأن لها كلها معنى !

— لم افهم كلمة واحدة .. جدير بك ان تؤلف كتابا فى ذلك !

وانصرف فيفولوشــنوف اخيرا ، فشــعر نيــكولاى نيكولاييفيتش بحيرة بالغة .. وحنق على نفسه لأنه أفضى ببعض الآراء التى يحرص على كتمانها ، إلى مثل ذلك الغبى الجامد العقل ، فلم يكن لها اى اثر عليه . ثم تحول سخطه إلى هدف آخر، كما يحدث فى بعض الأوقات ، فتذكر سببا آخر يدعوه للاستياء ، وبذلك نسى « فيفولوشنوف » وكل شىء عنه ! .. ولم يكن يحتفظ بمفكرة يومية ، ولكنه اعتــاد ان يسجل — مرة او اثنتين فى العام — فى دفتر سميك ، بعض

الآراء التى تخطر له وتبرز بين أفكاره . ومن ثم فقد أخــرج الدفتر ، وشرع يكتب بخط كبير مقروء . وهذا ما كتبه :

« قلبت مزاجى — طيلة اليوم — تلك المرأة الســخيفة « شليزنجر » ، إذ جاءت فى الصباح ، وظلت حتى موعــد الغداء ، وضايقتنى ساعتين كاملتين بقراءة ذلك الهراء .. أوبرا شعرية من نظم الشاعر الرمزى « س » ، وفقا لأنغام « السيمفونية » التى ابدعها الملحن « ص » مستمدا وحيه من نظــرية خلق الــكون .. ارواح الكواكب ، وأصــوات العناصر ، الخ . الخ .

« وادركت نجاة السر فى ان هذا اللغو مميت ، لا يطاق ، ومصطنع ، زائف .. حتى حين يصادفه المرء فى « فاوست » .. إن الامر كله اصطناع ، لا يهتم به أحد اهتماما صادقا ، فليس الإنسان الحديث بحاجة إليه . وإذا حيرته غوامض الكون ، تحول إلى الطبيعيات ، وليس إلى ســداسيات الشــاعر « هسيود » .. وليس الأمر مجرد شكليات تنطوى على خطأ تاريخى ، او ان ارواح الأرض والهواء تلك إنما تضل العقل عما أوضحه العلم .. وإنما لأن النوع كله لا يتمشى إطلاقا مع روح الفن — فى الأيام الحاضرة — ولا مع القوة الباعثة عليه .

« إن النظريات المتعلقة بخلق الكون تمت إلى الدنيــا القديمة .. وهى دنيا كانت قليلة الناس إلى درجة ان الطبيعة لم تكن ذلولا للإنسان ، فكانت الهوام الضخمة لا تزال تدب على الأرض ، وكأن التنين والدينوصــاور لا يزالان ماثلين فى ذاكرة الناس .. كانت الطبيعة تصــدم عينيك بوضــوح ، وتمسك بخناقك بعنف ملموس ، حتى لكأنها كانت فعلا مليئة

بالآلهة والأرباب .. تلك كانت الصفحات الأولى فى سجل الجنس البشرى .. مجرد البداية فحسب . وقد انتهت تلك الدنيا بانهيار سلطان (روما) ، إذ قضى تزايد الإنسان المطرد عليها ! .. كانت روما سوقا ضئيلة للآلهة المستعاره والشعوب المغلوبة .. ساحة للمساومة ذات طابقين : الأرض والسماء .. العبيد فى طابق ، والآلهة فى الآخر .. داسيون ، وهيروليون ، وسيثيون ، وسارماتيون ، وهايبربوريون .. عجلات ثقيلة ، حرساء ، وعيون مغرقة فى السمنه ، وبهيميه ، واذقان متهدلة لفرط البدانة ، واباطرة اميون ، واسماك تتغذى على اجساد العبيد العلماء .. حيوانيه ملفوفه فى ثلاث طيات كالأمعاء ! .. لقد كان فى الدنيا يومئذ من الناس أكثر مما كان بها فى أى يوم — منذ ذلك الحين — وكانوا جميعا محشورين فى ردهات « الكوليزيوم » ، وكانوا جميعا بؤساء أشقياء !

« ثم ، ووسط الذهب والمرمر المتراكمين فى غير تناسق مستساغ ، اقبل « هو » — المسيح — بخطى خفيفة ، وقد تدثر بالنور .. اقبل بإنسانيته الواضحة ، وطباعه المستمدة بجلاء من أرض الجليل . ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد ثمة آلهة ولا شعوب .. لم يعد ثمة غير الإنسان وحده .. الإنسان النجار ، والإنسان زارع الأرض ، والإنسان الراعى يسوق قطيعه عند مغرب الشمس .. الإنسان الذى لا يبدو وقع اسمه محفوفا باقل فخر(١) ، ومع ذلك فهو محور كل اغنية ؛

(١) اشارة الى قول جوركى « الانسان الذى لاسمه وقع مفعم بالفخر » .

وشخصية كل صورة فى معارض الصور ، فى كافة أرجاء الدنيا » !

- ١١ -

● كان شارع (بيتروفكا) أشبه بركن من (بطرسبورج) وضع فى (موسكو) عن خطأ . فإن البيوت المتناسقة على جانبى الطريق ، والزينات غير الصارخة على واجهاتها ، والمكتبة ، وحانوت بيع الكتب ، ورسام الخرائط ، وبائع التبغ الطيب ، والمطعم البديع ببابه الأمامى الذى قام على جانبيه مصباحان يشعلان بغاز الاستصباح — على عمودين هائلين — وقد كساهما الجليد .. كل هذه كانت توحى بذلك الشبه . وكان الشارع يتالق فى الشتاء تالقا يجعل اى دخيل يحجم عن ارتياده ، وكانه منطقة محرمة . فقد كان سكانه من اصحاب المهن الحرة الراسخى الأقدام ، المحترمين ، ذوى الدخول الطيبة .

وهنا استاجر « فيكتور إيبوليتوفيتش كوماروفسكى » مسكنه الفخم القائم فى الطابق الثالث من إحدى البنايات ، يفضى إليه سلم واسع ذو سياج من خشب البلوط المتين . وكانت مدبرة منزله — أو بالأحرى « محافظة » معقله الهادىء — « إيما ارنستوفنا » ، تدبر شؤونه دون أن يسمعها احد أو يراها ، فى كفاءة تفوق التصور ، وفى حرص على أن لا تتطفل على تفصيلات حياته الخاصة . وكان يجازيها عن ذلك بتلطف كريم ليس بالغريب على سيد فى مثل كماله ، فلا يستقبل أحدا فى مسكنه — رجلا كان أو امرأة — إذا لم

يكن وجوده مما يروق لوقار دنيا شيخوختها ! وكان يسود المسكن سلام وادع .. فالمصاريع الخشبية للنوافذ مسدلة ، وليس ثمة ذرة من غبار ، وكأن المرء على منصة مسرح معد !

وكان كوماروفسكى يتريض — فى صباح كل يوم احد — على قدميه ، مصطحبا كلبه « البولدوج » ، فيسيران الهوينى إلى نهاية شارع (بيتروفكا)، ثم يعرجان على شارع (كوزنتسكى موست) ، ثم لا يلبث ان ينضم إليهما — عند احد مفترقات الطرق — الممثل والمقامر « كونستانتين إيللاريونوفيتش ساتانيدى » . فيسيرون معا على مهل ، ويتبادل الرجلان بعض انباء موجزة، وبعض ملحوظات مقتضبة، تافهة وموشاة بالازدراء بكل شىء فى الدنيا ، إلى درجة انه كان من الممكن الاستغناء عنها باى ضوضاء اجشة ، على شريطة ان تملأ الشارع من احد جانبيه إلى الجانب الآخر بصوت فى ارتفاع صوتيهما ، وعمق نبراتهما ، ولهثاتهما المفضوحة ، وكأن ذبذبات صوتيهما كانت تخنقهما خنقا !

— ١٢ —

● لم يكن الطقس مما يناسب ذلك الفصل من السنة .. كانت قطرات الماء تتساقط على معدن انابيب التصريف والميازيب ، محدثة هذه الأصوات : « تب .. تب .. تب » .. وكل سقف يدق رسالة للسقف الآخر ، كأن الربيع قد اقبل .. لقد اخذ الجليد فى الذوبان !

وكانت « لارا » تسير — طيلة الطريق — شبه مذهولة، فلم تتحقق مما جرى لها إلا عندما بلغت دارها ! .. كان كل

امرىء قد نام . وارتدت إلى ذهولها وشرود ذهنها ، وجلست — وهى شبه غائبة عن العالم — إلى منضدة زينة امها ، وهى لا تزال فى ثوبها ذى اللون الأصفر الخفيف — حتى ليكاد يبدو ابيض — وقد وشيت اطرافه بتطريز رقيق ، وخمارها الطويل الذى استعارته من مصنع امها لتقضى به السهرة ، فبدت فيه كما لو كانت فى ثوب تنكرى طريف .. وتعانقت راحتاها على منضدة الزينة ، وقد جلست امام صورتها المنعكسة على المرآة ، وإن لم تكن تراها .. وما لبثت بعد برهة ان نكست راسها فوق يديها .

لو قدر لماما ان تسمع بما جرى ، لقتلتها ! .. اجل ، لقتلتها ، وقتلت نفسها بعد ذلك !

كيف تسنى ان يحدث ذلك ؟ .. بل كيف امكن ان يحدث ؟ .. لقد فات الآن اوان التساؤل ، وكان خليقا بها ان تفكر قبل ذلك بوقت طويل !

لقد اصبحت .. ما الاسم الذى يطلقونه ؟ .. اصبحت امراة ساقطة ! .. اصبحت امراة من نساء الروايات الفرنسية ، وإن كانت ستذهب فى الغد إلى المدرسة ، وتجلس إلى جانب الفتيات الأخريات اللائى يعتبرن فى براءة الأطفال بالنسبة إليها ! .. اواه ، يا الهى ، يارب .. كيف قدر لهذا ان يحدث ؟ !

لسوف تخبر « اوليا ديمينا » بالأمر يوما ما ، عندما يتسنى ذلك ، بعد سنوات عديدة ، طويلة .. ولسوف تضمها « اوليا » إلى صدرها ، وتنخرط فى البكاء .

وفى الخارج ، كانت قطرات الماء تتتابع فى وسوسة .. كان الثلج الذائب يهمس بتعويذته السحرية . وفى الطريق ، كان شخص ما يدق باب احد البيوت المجاورة .

وجلست « لارا » تبكى ، وقد نكست راسها ، واخذت كتفاها تهتزان !

- ١٣ -

. « كل هذه اقذار يا عزيزتى « ايما ارنستوفنا » .. لقد سئمتها واصبحت اشمئز منها ! » . وظل يفتح الأدراج ويغلقها ، ويقلب الأشياء خارجها ، ويقذف بأساور الأكمام وياقات الأقمصة على البساط والأريكة ، وهو لا يدرى ما الذى يريده فى الواقع !

كان الذى يريده ، ويتوق إليه فعلا ، هى « لارا » .. ولم تكن ثمة فرصة ميسورة لرؤيتها فى ذلك اليوم من ايام الأحد . فراح يذرع الحجرة فى هياج ، كحيوان حبيس ! .. كان لها عليه ما للأشياء المعنوية، غير الملموسة ، من سحر! .. كانت يداها تبهرانه كما تبهره الفكرة السامية ! .. ولقد لاح له خيالها على جدار تلك الغرفة — فى الفندق — كما لو كان طيف البراءة ذاتها ! .. وكانت صدريتها مشدودة على صدرها ، كما تشد قطعة القماش على إطار التطريز .

وراحت أصابعه تطرق زجاج النافذة مع وقع حوافر الجياد التى كانت تسير فى غير عجلة على أرض الطريق المكسوة بالأسفلت .. وهمس وهو يغمض عينيه : « لارا ! »

.. وتمثل له طيفها ، وراسها مسند إلى ذراعه ، وعيناها مغمضتان .. كانت نائمة ، غير واعية إنه كان يرقبها مسهدا لساعات طويلة . وكان شعرها القاتم متناثرا ، وجمالها يلهب عينيه — كما يفعل الدخان إذ يتسرب إلى المآقى — ويفرى قلبه!

ولم يستمرىء رياضته التى ألفها فى صباح كل يوم من ايام الأحد .. فخطى بضع خطوات مع كلبه «جاك» ، ثم توقف وراح يفكر فى (كورنتسكى موست) وفكاهات « ساتانيدى » ، وسيل معارفه .. لا ، لقد كان هذا فوق ما يطيق . لذلك نكص على عقبيه ، عائدا . وبهت الكلب وتطلع إليه فى استنكار ، ثم دلف خلفه وهو يبصبص بذنبه فى استهجان !

وقال كوماروفسكى فى نفسه : « ما معنى كل هذا ، بحق الشيطان ؟ .. أى نوع من الاعيب الشيطان هذا ؟ » .. ترى اكان هذا من فعل ضميره ، أم شفقة ، أم ندما ؟ .. وإلا فما الذى كان يقلقه بشأنها ؟ .. لا لقد كان يدرك انها بسلام فى دارها . إذن ، فلماذا لم يكن يقوى على ان يقصيها عن باله ؟

وسار إلى داره .. وصعد السلم .. وتجاوز الطابق الأول ، حيث كانت الرسوم الزخرفية على زجاج النافذة تلقى كسفا من ضوء ملون على قدميه .. وفى منتصف الدرجات المفضية إلى الطابق الثانى، وقف .. يجب ان لا يستسلم لذلك المزاج المضنى ، المشاكس ، القلق ، فهو لم يكن تلميذا صغيرا بعد كل هذا العمر . يجب ان يعرف ما الذى قد يحدث إذا قدر لهذه الفتاة — التى لم تكن سوى مجرد طفلة ، وابنة صديقه المتوفى — ان يصبح شخصا مفروضا عليه ، ولا غنى له عنه ،

بدلا من ان تكون مجرد العوبة يلهو بهـا ! .. يجب ان يتمالك نفسه .. يجب ان يرجع إلى نفسه وعاداته ، وإلا فسيذهب كل شيء بددا !

وشد كوماروفسكى قبضته عن سياج السلم المصنوع من خشب البلوط ، حتى آلمته يده . واغمض عينيه لحظة ، ثم استدار فى عزم ، وهبط الدرجات .. وعنـد زاوية السـلم الموشاة ببقع الضوء الملونة ، كان كلبه فى انتظـاره ، فرفع راسه كقزم كهل متهدل الصدغين ، وراح يحملق فيه بإعجاب . لقد كان الكلب يكره الفتاة ، ويزمجر لرؤيتها .. ولقد انشب اسنانه فى ساقها ، ومزق جوربها . كان يغار منها وكأنه كان يخشى ان تنتقل إلى مولاه عدوى شيء غير إنسانى !

ـ إذن فانت تظن ان كل شيء سيظل على ما كان عليه من قبل : ساتانيدى ، والقصص المضحكة ، والحيل القذرة ، وكل شيء ؟ .. حسنا إذن ، إليك هذه ، وهذه ، وهذه ! » . وراح يضرب الكلب بعصاه ، ثم ركله .. وصرخ جاك ، وراح يعوى ، وقفز صاعدا الدرجـات وهو يهز مؤخرته ، واحتك بالباب ليشكو امره إلى « إيما ارنستوفنا » .

واخذت الأيام والأسابيع تمضى ..

ـ ١٤ ـ

● يا لها من حلقة مسحورة!.. لو ان اقتحام كوماروفسكى حياة « لارا » ملأ نفسها اشمئزازا فحسب ، لتمردت ، ولنأت عنه . ولكن الأمر لم يكن بمثل هـذه البسـاطة ! .. لقـد

استهواها ان رجلا انيقا ، مليحا ، دب الشيب إلى شعره ـ فهو فى سن تؤهله لان يكون والدا لها ! ـ رجلا كانوا يصفقون له فى الاجتماعات ، ويذكرونه فى الصحف .. استـهواها ان ينفق رجل كهذا وقته وماله عليها ، وان يصطحبها إلى قاعات الموسيقى والمسارح ، وان يقول لهـا انهـا كانت تبدو ذات « قداسية ربانية » ، وانها خليقة بان تصـقل ذهنهـا وتغير افكارها .. كما يقولون !

انها ـ على اية حـال ـ لم تكن سـوى تلميذة فى زى مدرسى بنى اللون ، تسـتمرىء المؤامرات البريئـة التى تحاك فى المدرسة . وكان كوماروفسكى يروق لها فى غزله من وراء ظهر الحوذى ـ وهمـا فى العربة ـ او فى غزله العلنى وهما فى مقصورة الأوبرا ، على مراى من الحضور جميعا .. وكان يذهلها بذلك المزيج من التكتم والجراة !

ولكن المغامرات الصبيانية كانت قصيرة العمر !

.. واخذ يتغلغل فى اعماقها ويستبد بها استنكار ممض ، صادر عن روح محطمة .. وارهقتهـا الصراع مع الدروس ، والسهد الذى طال ليالى عديدة ، والدموع ، وصـداع دائم مستمر .. فنامت النهار طوله !

ـ ١٥ ـ

● وكرهتـه .. لقد كان اللعنة التى حاقت بحياتهـا . وراحت كل يوم تستعيد ذلك فى ذهنها .. لقد باتت سـجينته مدى العمر . كيف قدر له ان يستعبدها ؟ .. وما الذى جعلها

تخضع لرغباته ، وترضى حاجته إلى ان يجعلها تحس بالخجل والعار ؟ .. وما سلطانه عليهـا ؟ .. اهو عمره ؟ .. أم هو احتياج امها إلى ماله ؟ .. وهل اثر فيها هذا او اخافهـا إلى هذه الدرجة ؟

كلا ، والف مرة كلا .. لقد كان هذا جميعه هراء !

لقد كانت هى التى اوتيت سلطانا عليـه .. او لم تكن تعرف مدى حاجته إليها ؟ .. لم يكن ثمة ما يخيف ، فقـد كان ضميرها خلوا من اى ذنب . وإنمـا كان هو الذى ينبغى ان يخاف، وان يخجل ، وان يجزع من انها قد تتخلى عنه وتصده ، ولكن هذا كان عين المسلك الذى لن تتخذه . فلقد كان ينقصها غدره .. هـذا الغدر الذى كان عماده الأوحـد فى تعامله مع الضعيف والمحتاج !

وكان هذا عين الفارق بينهما .. وكان هذا هو الذى جعل الحياة باسرها رهيبة إلى هذا الحد . فانت لا تذعر من الرعد والبرق ، وإنما من النظرات المستترة ، والوشايات الهامسة ! .. لقد كانت الحياة كلها غادرة ، وغامضة ! .. ان اى خيط بمفرده يكون واهيا كخيط العنكبوت ، ولكن .. حاول أن تنتزع نفسك من الشـبكة المؤلفة من خيوط كثيرة ! .. إنك كلمـا حاولت ذلك ، لم تزد هى إلا اطباقا عليك !

حتى الأقوياء يتعرضون لسلطان الضعيف والغادر !

- ١٦ -

● وحاولت ان تخدع نفسها . وتساءلت : ماذا لو انها كانت متزوجة ؟ .. اى فارق كان يحدثه الزواج ؟ .. ولكنها كانت احيانا تقع تحت سلطان هم يائس .

كيف لم يكن يستحيى من ان يتمرغ عنـد قدميها ، وان يضرع إليهـا ؟ .. كيف لم يستح من ان يقول لها : « لن نستطيع ان نمضى هكذا . فكرى فيمـا فعلته من أجلك . إنك تسيرين إلى حتفك . يجب ان نصارح امك، وان اتزوجك!» . وكان يبكى ، ويلح ، ويلحف ، وكانها كانت تجادله وتعارضه . ولكنها كانت تعرف انه لا يعنى شيئا من كل هذا ، فكانت لا تكاد تصغى إليه !

وظل يصحطبها — وهى تسدل خمارا على وجههـا — ليتناولا العشـاء فى حجرات خاصـة فى ذلك المطعم البغيض ، الذى كان سقاته وخدمته ورواده يجردونهـا — بنظراتهم — من كل ثيابهـا ، كلما دخلته .. وكان كل ما فعلته هو انهـا ساءلت نفسها : « افكان يعرضنى لكل هذا الهوان ، لو انه كان يحبنى حقا ؟ » .

ولقد حلمت مرة .. رات فى المنام انها دفنت تحت الأرض، ولم يبق منها سوى جنبها الايسر ، وقدمها اليمنى . ونبت من حلمة ثديها اليسرى عود من العشب .. وفوق سطح الأرض كان ثمة قوم يغنون : « عينان سوداوان وثدى ابيض » .. و « يجب أن لا تعبر ماشا النهر » !

- ١٧ -

● ولم تكن « لارا » متدينة ، ولا كانت تؤمن بالطقوس ، ولكنها كانت تحتاج احيانا إلى ان تانس إلى موسيقى — تنبعث من اعماقها — لتمكنها من أن تحتمل حياتها .. ولم يكن بوسعها ان تنظم الحان تلك الموسيقى لنفسها دائما . تلك الموسيقى كانت كلمة الله فى الحياة ، فكانت تذهب إلى الكنيسة لتبكى على وقعها !

وحدث مرة — فى أوائل ديسمبر — عندما كانت تشعر بما كانت تشعر به « كاترينا » فى مسرحية « العاصفة » ، ان ذهبت لتصلى بقلب كان مثقلا إلى درجة أنها راحت تخال ان الأرض قد تنشق تحت قدميها — فى اية لحظة — وان سقوف الكنيسة المحدودبة قد تطبق عليها. وكان هذا عين ما يلائمها ، إذ انه كان كفيلا بأن يضع نهاية للأمر كله .. ولم تكن تأسف على شىء ، اللهم إلا انها اصطحبت إلى الكنيسة تلك الثرثارة « اوليا ديمينا » .

وهمست لها اوليا : « ها هو ذا بروف افانا سييفيتش » .

— صه . دعينى وشأنى ! .. اى بروف افانا سييفيتش هذا ؟

— بروف افانا سييفيتش سوكولوف . ذلك الذى يقرأ .. انه من الدرجة الثانية من ابناء خؤولتنا فى القربى !

— آه ، المرتل .. قريب تيفرزين ؟ ! .. الا اسكتى !

وكانتا قد جاءتا فى بداية القداس . وكان المزمور : « باركى يا نفسى الرب وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدوس » . ووقف المصلون جميعا فى حشد عند الطرف الذى يقوم فيه المذبح ، فى الكنيسة التى كانت الأصداء تردد فى جانباتها ، وهى شبه خاوية .. وكانت حديثة البناء ، وزجاج نافذتها الخالى من الرسوم والألوان لا يضفى اية زينة على منظر الشارع الحافل بالحركة ، الرازح تحت الجليد ، فى الخارج . وامام الكنيسة ، كان حارسها يقف غير حافل بالقداس ، وقد راح يوبخ متسولة صماء ، نصف معتوهة ، بصوت خال من كل رواء ، خلو النافذة ، والشارع ، من الرواء ..

وفى الوقت الذى استغرقته « لارا » فى استخراج قطع النقود الصغيرة ، واطباق راحتها عليها ، والسعى خلال المصلين دون ان تزعجهم ، وشراء شمعتين لنفسها ولأوليا من لدن الباب ، ثم العودة ثانية .. فى ذلك الوقت ، كان « بروف افانا سييفيتش » قد رتل تسعا من دعوات التطويب ، بسرعة توحى بأن الجميع كانوا يعرفونها دون حاجة إلى ترتيله !

« طوبى للمساكين بالروح .. طوبى للحزانى .. طوبى للجياع والعطاش إلى البر .. طوبى للمطرودين .. » .

وارتجفت لارا ، وجمدت فى مكانها .. كانت تلك الموعظة موجهة إليها .. وهى بالذات . واستمر المرتل يتلو :

« طوبى لكم إذا طردوكم وعيروكم ، وقالوا فيكم كل كلمة

شريرة كاذبين ، من اجلى .. افرحوا وتهللوا لان اجركم عظيم فى السموات » .

كان هذا رايه « هو » ! .. راى المسيح !

— ١٨ —

● وحان وقت قيام ثورة (بريسنيا) . وكان مسكن آل « جيشار » يقع فى منطقة التمرد ، فكان العمل قائما على قدم وساق فى بناء استحكامات فى شارع (تفير) على بعد بضع ياردات من منزلهم . وراح الناس ينقلون دلاء الماء من فناء دارهم، ليعجنوا الأسمنت مع الأحجار وقطع الحديد والجليد. واستخدم المحرضون فناء الدار المجاورة ليكون مقرا للجنة ، وليكون احيانا اشبه بمركز للصليب الأحمر ومطبخ لإعداد الحساء للثوار .

وكانت « لارا » تعرف اثنين من الفتيان الذين راحوا يترددون على المركز ، كان احدهما « نيكى دودوروف » صديق زميلتها فى المدرسة « ناديا » . وكان ذا كبرياء ، وصراحة ، كما كان قليل الكلام .. كان من شدة الشبه بلارا بحيث إنه لم يثر اهتمامها .. اما الآخر ، فكان « باشا انتيبوف » الذى كان فى المدرسة العليا ، والذى كان يقيم مع « تيفرزينا » العجوز ، جدة « اوليا » . ولم تكن « لارا » تملك سوى ان تلاحظ الأثر الذى كانت تحدثه فى نفس الفتى عندما تلتقى به فى مسكن آل «تيفرزين» .. كان صبيانيا فى سذاجته حتى انه لم يكن يفكر قط أن يخفى اغتباطه برؤيتها ،وكأنها

واحة من اشجار وعشب وسحب ، يأوى إليها فى احد ايام العطلة ، فيمرح دون أن يتعرض لسخرية من أحد !

وما إن تبينت أنها ذات تأثير عليه ، حتى بدأت تستغل هذا التأثير دون أن تعى أو تتعمد ، وإن لم يكن مقدرا لها ان تسيطر بيد حازمة على شخصيته المطواعة السهلة إلا بعد عدة سنوات ، عندما تطورت علاقتهما إلى مرحلة أوثق .. وكان « باشا » قد ايقن — إذ ذاك — انه غريق حتى أذنيه فى حبها ، وانه مشدود إليها ما قدر له أن يعيش . .

وكان الشابان يلعبان اخطر العاب الكبار . الحرب ! وكانا — فى هذه الحرب بالذات — غير معرضين للأخطار المالوفة فى الحرب فحسب ، بل كان هناك خطر النفى والشنق كذلك ! .. ومع ذلك ، فان الطريقة التى كانت تنحسر بها قلنسوتاهما — المصنوعتان من الصوف — عن راسيهما ، كانت تنم عن انهما لا يزالان صغيرين يحتاجان — أو يجب ان يحتاجا — إلى اهل يرعونهما .. وما فكرت « لارا » فيهما إلا على انهما صغيران ! .. كان للهوهما الخطر طابع البراءة والسذاجة . وكانا يعكسان هذا الطابع على كل شىء .. على المساء المثقل بندف الصقيع الأسمر ، حتى لتبدو سوداء اكثر منها بيضاء .. وعلى الظلال القائمة الزرقة ، التى كانت تترامى فى فناء الدار .. وعلى الدار القائمة فى الجانب الآخر من الطريق ، حيث كان الشابان يختبئان .. بل — واكثر من ذلك كله — على طلقات المسدس التى كانت تنبعث من تلك الدار ! .. وكانت « لارا » تقول فى نفسها : « ها هما ذا الشابان يطلقان الرصاص ! » .

هكذا كانت ترى «نيكى» و « باشا » .. بل وكل اولئك الذين كانوا يطلقون الرصاص ، فى طول (موسكو) وعرضها . فكانت تحدث نفسها عنهم قائلة : « إنهم فتية بواسل ، طيبون .. وما يطلقون الرصاص إلا لطيبتهم ! » .

- ١٩ -

● وســـمعوا ان من المحتمل أن تنسف الاستحكامات ، وتغدو دارهم فى خطر . وكانت فرصـــة التفكير فى الانتقـــال للإقامة مع اى اصدقاء فى شطر آخر من (موسكو) قد فاتت ، إذ ان المنطقة باتت مطوقة ، واصبح عليهم ان يبحثوا عن مأوى فى نطاق المنطقة ذاتها ، ففكروا فى فندق « مونتنجرو » . وظهر ان كثيرين ممن كانوا فى عين الموقف قد فـــكروا فى ذلك المكان كذلك .

وكان الفندق مزدحما ، ولكن آل « جيشـار » تلقوا وعدا بان يفرد لهم ركن فى حجرة الغسيل « والبياضـات » ، إكراما لعلاقتهم القديمة بالفندق . ولكى لا يستلفتوا الانظـــار إذا هم حملـــوا ثيابهم فى حقائب ، فانهم حزمـــوا اهم ما تمس إليـــه الحاجة ، فى ثلاث حزم ، ثم راحوا يرجئون الانتقال إلى الفندق يوما بعد يوم .. وكذلك فعلت اسرات عملائهم المترددين على مصنع الثياب ، فبقى المصنع مفتوحا فتـــرة طويلة بعـــد بدء الاضراب العام . ولكى جرس باب المصنع رن فى اصيل يـــوم بارد ، كئيب . وإذا بشخص قد اقبل يشكو ويجادل ، ويطلب ان يرى المديرة . واسـرعت « فيتيســـوفا » إليه لتهـــدىء من هياجه وإن هى إلا بضع لحظات حتى طلبت العاملات الجالسات

إلى آلات الحياكة ، وقدمتهن إلى الرجل ، فصافحهن جميعا فى ارتباك وتأثر ، وغادر المصنع بعد أن اتفق مع « فيتيسوفا » على امر .. وعادت العاملات إلى حجرة العمل ، ورحن يحكمن اوشحتهن حـــول رؤوســـهن . ويرتدين معاطفهن الشـــتوية العتيقة .

واسرعت إليهن السيدة جيشار متســـائلة : « ما الذى جرى ؟ » .

ـ لقد قرروا ان يخرجونا يا سيدتى .. إننا مضربات !

فانبثقت الدموع من عينى السيدة جيشــــار ، وقالت : « ولكنى لا ارى .. لا احسب .. اى ضرر الحقته بكن ؟ » .

ـ لا تحملى الأمر هذا المحمل يا اماليا كارلوفنا ، فلسنا نضمر لك اية موجدة ، بل إننا جد عارفات بفضلك .. إن الأمر لا يتعلق بك وبنا فحسب، ولكن كل امرىء مسوق إلى الإضراب .. الدنيا كلها . وليس بوسعك ان تخرجى على إرادة الجميع .. اليس كذلك ؟

وانصرفن جميعا .. حتى اوليا ديمينا . وحتى فيتيسوفا التى همست فى اذن السيدة جيشار ــ وهى تودعها ــ بانهـــا إنما تساير الاضراب من أجل مصلحة المؤسسة وصاحبتها . ولكن همسها لم يسر عن السيدة جيشـــار اســـاها ، فراحت تقول بعد انصرافهن : « يا له من عرفان اسود ! .. تصورى كيف كنت مغترة بهؤلاء القوم !؟ .. يا للكرم الذى اغدقته على



فقالت (لارا) تحاول أن تخفف عنها : « ليس بوسعهن أن يخرجن على المجموع من اجلك يا أماه ..

تلك الصبية الضئيلة(١) .. ومع ذلك فهى ليست سوى طفلة ، ولها بعض العذر ، ولكن .. أى عذر للماهرة الكبيرة(٢) ؟ » .

فقالت لارا تحاول أن تخفف عنها : « ليس بوسعهن ان يخرجن على المجموع من اجلك يا أماه . الا ترين حقيقة الموقف؟ .. ان أحدا لا يكن لك ضغينة ما ، بل العكس اصح . ان كل ما يجرى الآن إنما يجرى باسم الإنسانية ، للدفاع عن المستضعفين ، لخير النسوة والأطفال . اجل ، هذه هى الحقيقة ، فلا تهزى رأسك ! .. لسوف تتبينين يوما انك وإياى فى حال افضل ، نتيجة ذلك ! » .. ولكن أمها لم تستطع أن تفهمها ، فقالت وهى تنهنه بالبكاء : « هكذا شأنك دائما ! .. فى الوقت الذى يرتبك فيه عقلى ، تطلعين على بأمور لا أفقهها ، بل إنها تزيد من حيرتى . إن الناس يقدمون على لعبة قذرة إزائى ، فتقولين إن هذا لصالحى ! .. لا ، لا بد إننى قد فقدت عقلى ! » .

وكان « روديا » فى المدرسة ، فراحت اخته وامه تهيمان فى البيت الخالى وحيدتين . وكان الشارع المعتم يطل بنظرات جوفاء على الحجرات ، فترد الحجرات إليه نظراته بمثلها . وقالت لارا فى رجاء : « لنذهب إلى الفندق يا ماما ، قبل ان يشتد الظلام . هيا يا ماما ! .. لا ترجئى الامر ، فلننتقل الآن ! » . ونادتا حارس الدار ، وقالتا له : « فيلات ! .. رافقنا إلى فندق مونتنيجرو ، ايها العزيز فيلات ! » . فقال : « حسنا يا سيدتى » .

---

(١) تقصد « أوليا ديمينا » . (٢) تيتيسوفا .

ــ احمل الحزم إلى هنـــاك ، ثم احرس الدار بانتبـــاه يا فيلات ، إلى ان تنجلى الأمور . ولا تنس من فضلك الحبوب لتغذية العصفور « كريل موديستوفيتش » ، واحرص على أن تغير له المـــاء . هاك المفتاح . هذا كل ما لدى ،فيما اعتقد ، فكن يقظا فى الحراسة !

ــ اطمئنى تماما يا سيدتى .

ــ شكرا يا فيلا ، وليحفظك الله ! .. لنجلس اولا(١) ، ثم ننطلق !

وعندما خرجوا ، بدا لهم الهواء العليل شيئا غير مألوف، كما يحدث للمرء عندما يبرح داره بعد اســـابيع من المرض . وكانت الضوضاء تلف حولهم ، مرددة صدى خفيفا فى الفضاء البارد ، الجليدى ، الشـــديد الصـــفاء . وكانت الطلقـــات والصفعات تمرق وترتطم ، فيتردد صداها وكأنها كانت تقرب المسافة . وبالرغم من الجهود التى بذلهـــا « فيلات » ، فقد اصرت « لارا » و « اماليا » على أن الطلقات كانت تطلق جزافا للارهاب . وراح يجادلهما ليقنعهما بالعكس ، ولكنهما راحتا تقولان : « لا تكن غبيا يا فيلات ! .. فكر قليلا فيما بينك وبين نفسك، كيف تكون الطلقات مقصودة وانت لا ترى أحدا يطلقها؟ .. من الذى تراه يطلقها : الروح القدس ، أو ماذا ؟ » .

---

(١) كان من عادة الروس اذا تهيأوا للسفر ان يجلسوا بضع لحظات ، قبل شروعهم فى الرحيل ، اجتلابا للحظ .

وعند احـــد مفترقات الطـــرق ، اســـتوقفهم ثلة من « القوزاق » . وراحوا يبتسمون فى خبث وهم يفتشـــونهم ، ويتحســـسون بايديهم كل جـــزء من جسمى لارا وامهـــا ، من راسيهما حتى قدميهما . وكانت قلنســواتهم التى لا حواف لها ، منحرفة ــ فى تأنق مقصود ــ إلى جانب ، مما كان يبديهم وكأن كلا منهم لم يؤت سوى عين واحدة ! .. وقالت لارا فى نفسها . وهى تستأنف السير . « بديع ! » .. انهـــا لن تعود تـــرى « كومارونسكى » طالما ظلت المنطقة محاصرة ، مفصـــولة عن بقية المدينة . ذلك لأن امها لن تكن تمكنها من أن تقاطعه وتكف عن رؤيته . فما كان بوسعها ان تقول لها : « ارجو أن تكفى عن استقباله يا أماه ! » .. فلو انها قالت ذلك ، لافتضح كل شىء ، ولا ريب !

ولكن ، ماذا لو حدث ذلك ؟ .. لماذا ترهبه وتفزع منه ؟ .. اواه ، يا لله ! ليحدث اى شىء ، على شريطة أن تكون فيه نهاية هذا الامر !

يالله ! الله ! .. لقد كادت أن تهوى فاقدة الرشـــد ، تحت وطأة التقزز ! .. ترى ما هذا الذى تذكرته لتوها ؟ .. ما كان اسم تلك الصورة الفظيعة ؟ .. كان فيها رجل رومانى بدين . وكانت معلقة فى اول حجرة اختلت فيها مع كومارونسكى .. الحجرة التى بدا فيهـــا كل شىء ! .. آه ، كان اسمها : « حاملة إناء الزهور ! » .. اجل ، هو ذا ! .. كانت صورة مشهورة ، طبعا . وكان الرومانى البدين يبدو وكأنه يفكر فى ايهما يختـــار : المرأة أم إناء الزهـــر . ولم تكن قد اصـــبحت

« امراة » عندما رات الصورة لأول مرة ، فلم يكن ثمة وجه للمقارنة بينها وبين عمل فنى ثمين كهذا ، بعد .. لقد حدث ذلك فيما بعد ! .. وكانت المائدة معدة اجمل إعداد لمادبة فخمة !

وقالت السيدة جيشار ، وهى تلهث متقطعة الانفاس : « إلى اين تراك ذاهبة حتى تهرعى بمثل هذه السرعة ؟ .. إننى لا استطيع ان الحق بك ! » .. كانت لارا تسير بخطى خفيفة ، قد اجتاحتها قوة خفية ، مجهولة ، وكأنها كانت تخطو فى الهواء ، تحملها تلك القوة المسرعة ، المعتدة . وقالت فى نفسها وهى تنصت إلى طلقات البنادق : « ما أبدعها ! .. طوبى للمطرودين، طوبى للمخدوعين.. اللهم اكلأ الرصاصات برعايتك ، فهى وإياى متفقات فى الفكر والغاية ! » .

— ٢٠ —

● كان للشقيقين « جروميكو » بيت عند التقاء شارع (سيفتسيف فراجيك) بشارع آخر صغير . وكان كل من « الكسندر الكسندروفيتش جروميكو » و نيكولاى الكسندروفيتش جروميكو » استاذا فى الكيمياء ، احدهما فى اكاديمية «بتروف» والآخر فى الجامعة . وكان نيكولاى اعزب ، اما الكسندر فكان متزوجا من «آنا كروجر» ، ابنة احد اقطاب الحديد . وكان ابوها يمتلك ضيعة هائلة فى جبال (اورال) — قرب (يورياتين) — فيها عدة مناجم مهجورة ، لم تعد تدر نفعا . اما دار اسرة « جروميكو » فكانت من طابقين ، شغل الاعلى منهما بحجرات النوم ، وبحجرة الدرس ، وحجرة مكتب

الكسندر الكسندروفيتش ومكتبته ، وحجرة جلوس « آنا » ، وحجرتى « تونيا » و « يورا » .. وكانت هذه هى الأجزاء المأهولة من البيت . اما الطابق الأرضى فكان مخصصا لاستقبال الضيوف . وكانت ستائره الفستقية اللون ، وقمة المعزف البراقة ، وحوض تربية الأسماك ، وكساء الأثاث المصنوع من قماش اخضر اللون ، والنباتات النامية فى الأصص وفى الآنية كأنها اعشاب بحرية .. كل هذه كانت تجعل الطابق اخضر ، اشبه بقاع بحر ساكن ، ناعس !

وكان آل جروميكو اهل ثقافة وحفاوة وكرم ، كما كانوا من عشاق الموسيقى والخبراء بها ، وكثيرا ما كانوا يعقدون ندوات وسهرات موسيقية ، تعزف فيها الرباعيات الوترية والثلاثيات البيانية . وقدر لإحدى هذه السهرات ان تعقد فى يناير سنة ١٩٠٦ . وكان المقرر أن تبدأ بعزف لحن على الكمان لمؤلف شاب من تلاميذ « تانييف » ، ثم أداء ثلاثى لأحد الحان تشايكوفسكى . وقد بدىء فى اتخاذ الأهبة لذلك فى اليوم السابق ، فنقل الأثاث اللازم إلى قاعة الجلوس . وفى احد الأركان ، كان المكلف بضبط أوتار البيانو يدق على كل وتر عشرات المرات ، وينثر النغمات حوله جزافا كأنها حبات مسبحة .. وفى المطبخ ، كان الدجاج الذبيح يجرد من ريشه ، والخضر تنظف ، والخردل يمزج بزيت الزيتون لعمل السلاطات .

واقبلت « شورا شليزنجر » — صديقة آنا الحميمة ومستودع سرها — مع أول بواكير النهار ، لتجعل من نفسها مصدر إزعاج لكل امرىء .. وكانت «شورا» طويلة ، نحيلة ،

ذات قسمات منتظمة ، ووجه اقرب إلى وجوه الذكور ، ويبعث فى ذاكرة الرائى صورة وجه الامبراطور ، لا سيما حين تكون مرتدية قلنسوتها المصنوعة من الفراء « الاستراخان » ، قد امالتها على حافة وجهها بزاوية معينة . وكانت تستبقيها على راسها فى البيت ، ولا تفعل أكثر من ان تزيح الخمار المثبت إليها قليلا . وكانت كل من الصديقتين تخفف عن صاحبتها فى أوقات الاسى أو القلق ، بأن تشرع كل منهما فى إثارة الأخرى ، فلا يلبث حديثهما ان يحتد حتى تنفجر العاصفة العاطفية فى النهاية ، وتنبثق الدموع ، ثم يكون الصلح ! .. وكان لهذه المواقف اثر مهدىء على كل منهما ، اشبه بأثر الديدان ماصة الدماء حين تستخدم لتخفيف ارتفاع ضغط الدم !

وكانت « شورا شليزنجر » قد تزوجت عدة مرات ، ولكنها كانت تنسى ازواجها بمجرد ان تطلق منهم ، ولا تحفل بزيجاتها ، حتى اصبحت اخلاقها تحتفظ دائما بذلك الفتور وعدم الاستقرار اللذين تتسم بهما المراة غير المتزوجة .. وكانت من انصار « الثيوصوفية » (فلسفة التصوف لله ، دون تقيد بطقوس دين معين) ، ولكنها كانت خبيرة كذلك بطقوس الكنيسة الأرثوذكسية .. بل إنها كانت ـ إذا استخفتها النشوة فى إحدى نوبات استغراقها التصوفى ـ لا تحجم عن ان تقاطع رجل الدين الذى يؤدى القداس ، صائحة : « اسمع ايها الرب ! » .. وتتمتم دون انقطاع ، بصوت اجش ، ممتلىء بالنبرات : « المجد لله فى الأعالى .. الآن ، وإلى الأبد » !

كذلك كانت شورا على إلمام بعلوم الرياضة وبطقوس العبادات الباطنية الهندية ، وكانت تعرف عناوين اشهر

المدرسين فى معهد موسكو الموسيقى ، ومع من كان كل منهم يعيش ، وما لا يدريه احد من شؤون اخرى ! .. ومن اجل ذلك كانت تدعى كحكم ومنظم فى كل مناسبات الحياة الهامة .

❋ ❋ ❋

وفى الموعد المحدد ، بدا الضيوف يفدون . وكان الثلج يتساقط من السماء ، وكلما فتح الباب كنت ترى الهواء يندفع مارا به ، وكانه مسوق بسوط ذى ألف عقدة ، يلهبه به الصقيع المنهمر . وكان الرجال يندفعون إلى الداخل ، هاربين من البرد ، منتعلين احذية ضخمة طويلة ، وكل واحد منهم ـ بلا استثناء ـ يبذل كل ما فى وسعه ليبدو فى مظهر الجلف الريفى المتغطرس . اما زوجاتهم فكن على العكس .. كانت وجوههن تلمع من تاثير الصقيع ، ومعاطفهن غير محكمة الالتفاف ، واوشحتهن منحسرة عن شعورهن الموشاة بقطع الجليد الدقيقة ، مقلدات ابرع الغوانى المحنكات .. بل مقلدات الفتنة الفتاكة الإغواء ، ذاتها! .. وسرى الهمس بين الحضور عندما اقبل الموسيقى الشاب الحديث العهد : «انه بن اخ كوى»(١).

وخلف ابواب قاعة الرقص ـ التى فتحت على مصراعيها ـ كانت مائدة العشاء تبدو طويلة ، بيضاء ، اشبه بطريق فى الشتاء .. وكان انعكاس الضوء على زجاجات « الفودكا » الحمراء المثلوجة ، يبهر الأنظار .. والكؤوس البلورية القائمة على قواعد من الفضة ، والنظام البديع الذى نسقت عليه

(١) موسيقى روسى مشهور (١٨٣٥ — ١٩١٨) .

الطيور وانواع المشهيات (الاورديفر) تستهوى الخيال .. حتى المناشف المطوية على اشكال هرمية ، وسلال زهور « السينيراريا » النادرة ، ذات الصفرة الشاحبة ، وقد تصاعد منها عبير اللوز .. حتى هذه بدت كما لو كانت تذكى شهية القوم إلى الأكل وتزيدها حدة !

ولكى لا يطيلوا من امد انتظار لذة الأكل الدنيوية ، أسرع القوم إلى التهام غذائهم الروحى ، فجلسوا فى صفوف ، وعادوا يتهامسون عندما اتخذ الموسيقى مجلسه إلى «البيانو»: « انه ابن اخ كوى » .. ثم بدأ الحفل الموسيقى . وكانوا يتوقعون أن يكون لحن الشاب جاثما ، ثقيل الوطأة ، مملا .. وقد حقق حدسهم ، فكان طويلا بطيئا فى بلوغ نهايته ! .. وفى الاستراحة التى اعقبته ، راح الناقد كريمبيكوف والكسندر جروميكو يتناقشان بشأنه ، فاذا كريمبيكوف يهوى به إلى الحضيض ، وانبرى جروميكو يدافع عنه ، فى حين كان القوم حولهما يدخنون ، ويتكلمون ، ويزحزحون مقاعدهم فى ضوضاء ، حتى استرعى انتباههم — مرة اخرى — وميض غطاء المائدة فى الحجرة المجاورة ، فقرروا أن يستأنفوا الحفل الموسيقى .

واوما عازفالبيانو براسه لزميليه ، فرفع عازف الكمان وزميله تشكيفيتش قوسيهما ، وارتفعت النغمات فى شكوى وانين .. وكان « يورا » و « تونيا » و « ميشا جوردون » — الذى كان يقضى نصف وقته فى دار آل جروميكو — يجلسون فى الصف الثالث ، فهمس يورا لالكسندر الكسندروفيتش ، الذى كان يجلس امامه مباشرة : « أن يجوروفنا تشير إليك

تستدعيك ! » . وكانت « يجوروفنا » — خادم آل جروميكو العجوز ، ذات الشعر الأبيض — تقف عند الباب ، وهى تنظر إلى يورا فى يأس ، وتشير بحماس نحو الكسندر الكسندروفيتش ، محاولة الإيحاء إلى يورا بأنها بحاجة ماسة عاجلة إلى مولاها .

والتفت إليها الكسندر الكسندروفيتش ، فرمقها بنظرة عاتبة وهز كتفيه . ولكنها صمدت فى موقفها ، وسرعان ما اخذا يتبادلان الحديث بالاشارات ، عبر الحجرة ، وكأنهما أصمان أبكمان . وبدا القوم ينظرون إليهما . وراحت « آنا » ترمى زوجها بنظرات غاضبة ، فنهض — وقد تضرج وجهه — وسار على اطراف قدميه ، متسللا بجوار جدران الحجرة ، حتى بلغ الباب ، فهتف: « خليق بك أن تخجلى من تصرفك يا جوروفنا! ..فيم كل هذه العجلة ؟ ماذا وراءك ؟ » . فتمتمت يجوروفنا بكلمات فى اذنه ، قال على اثرها :« اى مونتنجرو ؟ » .. فاجابت : « الفندق » .

— حسنا ، وما شأنه هو ؟

— إنهم يسألون عنه ، ويطلبون عودته فورا ، لأن ثمة قريبا له يحتضر .

— وهل حلا للناس الموت الآن ؟ .. إننى لاأتصور .. ولكن هذا غير ممكن يا يجوروفنا . سأخبره بعد انتهاء هذه القطعة . أما قبل ذلك ، فلست استطيع ..

— لقد ارسلوا خادم الفندق بمركبة ليقله . هناك من

يحتضر .. قلت لك يحتضر ، افلا تفهم ؟ .. انها سيدة تحتضر
.. سيدة من علية القوم !

ــ وانا اقول لك إن هذا مستحيل . كانما بضع دقائق
كفيلة بان تغير من الأمر .

وسار على اطراف قدميه عائدا إلى مكانه ، وقد عبس
وبدا كالمكروب ، وراح يحك قنطــرة انفه .. وقبل ان يخفت
التصفيق ــ بعد المقطع الاول ــ سعى إلى الموسيقيين، وقال
لتشكيفيتش إنه مطلوب فى مسكنه ، وأن ثمة طارئا يستوجب
التوقف عن العزف ثم التفت إلى الحضور ، ورفع يديه إيذانا
بالصمت ، ثم قال :

« سيداتى وسادتى .. اخشى ان نضطر إلى بتر العزف
الثلاثى ، فقد تلقى السيد تشكيفيتش نبا سيئا ، وإنا لنعرب له
عن عطفنا البالغ . وهو مضطر إلى الانصراف ، وما كنت لأدعه
ينصرف وحده فى لحظة كهذه ، ومن ثم فسوف اذهب معه ، إذ
انه قد يحتاج إلى معونة ما .. اذهب يا يورا فاطلب إلى
سيمون ان يحضر المركبة لدى الباب يا بنى .. لقد اعدها منذ
برهة . ولن اقول وداعا ، سيداتى وسادتى ، بل ارجوكم ان
تمكثوا جميعا ، فلن اغيب طويلا » .

والح الشابان « يورا » و « ميشــا » فى ان يرافقاه ،
طمعا فى الاستمتاع بالانطلاق فى المركبة خلال الليل الجليدى !

— ٢١ —

● بالرغم من ان الحيــاة كانت قــد عادت إلى مجراها

العادى ــ منذ شهر ديسمبر ــ فقد ظلت الطلقات تنبعث هنا
وهناك، وبعض الحرائق تندلع من آن إلى آخر، كما هى العادة
دائما عندما تعود الأحوال إلى أوضاعها ، وكأنما كانت بقايــا
حرائق ديسمبر تأتى على ذاتها .

ولم يكن الشابان قد نعما بمثل هذه النزهة الطويلة ــ فى
المركبة ــ من قبل .. وكان فندق « مونتنجرو » غير بعيد ــ فى
الواقع ــ إذ كان فى نهاية طريق (سمولنسكى) ، لا يفصله عن
دار آل جروميكو سوى شارع (نوفينسكى) ، ثم تعرج المركبة
إليه عند منتصف شارع (سادوفايا) . ولكن الصقيع العاتى،
والضباب الطاغى ، غيرا المسافات وباعدا بينها ، وكأنمــا لم
يعد الفراغ كما كان العهد به فى الدنيا بأسرها . وكان دخان
حرائق الشارع[1] القذر المتسخ ، ووقع الأقدام وهى تسحق
الجليد ، وصهيل خيل الزحافات .. كل ذلك كان يساعد على
الإيحاء للشابين بأنهما كانا فى رحلة لا يعلم سوى الله مداها ،
وبأنهما كانا فى طريقهما إلى مكان سحيق ، رهيب !

وأمام مدخل الفندق ، وقفت زحافة غير عريضة ، انيقة
المظهر ، وقد اكتسى جوادها بغطاء ســابغ ، واحيطت ركبه
بضمادات واقية ، وجلس الحوذى منحنيا على نفسه فى المقعد
المخصص للراكب ، يحاول ان يبعث الدفء فى جسمه المقرور،
وقد دفن رأسه بين قفازيه الكبيرين .

وكان الدفء يشيع فى بهو الفندق ، حيث جلس الحارس
يغفو وراء حاجز غرفة المعاطف .. وكان أزيز جهاز التهوية ،

---

(١) كانت العادة أن توقد النيران على ناسيات الطرق فى الشتاء .

وزمجرة اللهب فى المدفاة ، وفوران الماء فى الآنية «الساموار»، قد خدرت اعصابه ، فلم يكن يوقظه من نعاسه سوى صوت غطيطه ، عندما كان يرتفع من آن إلى آخر ! .. وإلى جوار المرآة القائمة إلى يسار المدخل ، وقفت امرأة عريضة المنكبين، ذات وجه اشبه بلقمة القاضى . وكان معطفهـا الفرائى أخف من ان يقيها وطأة الطقس . كانت فى انتظار شخص تتوقع ان يهبط بين آن وآخر ، وقد أولت المرآة ظهرها ، وراحت تنظر من فوق كتفيها لتتحقق من منظرها الخلفى .

ودلف الحوذى المقرور إلى الداخـل ، ومعطفه المنتفخ بيديه اشبه بفطيرة مرسومة على لافتـة مخبز ، وقد ضاعف من الشبه ذلك البخار الذى كان ينبعث من طاقتى انفه وفمه . وسأل المـرأة الواقفة لـدى المرآة : « إلى متى تستبقيننى يا آنسة ؟ .. لست أدرى ما الذى جعلنى أعامل واحدة على شاكلتك .. إننى لا أحب أن يتجمد حصانى ويموت بردا ! » .

وكان الجزع قد ذهب باهـل الفندق كل مذهب ، فإن الحادث الذى وقع فى الغرفة رقم (٢٣) كان ازعاجا جديدا زاد من متاعبهم(١) .. كانت الأجراس ترن فى كل دقيقة ، والأرقام

(١) من العجيب أن الترجمة الفرنسية تذكر رقم الغرفة على أنه (٢٤) .. فاذا رجعنا الى ما ورد فى صفحة ٥٦ من هـذه الترجمة العربية من أن الغرفة رقم ٢٤ كان يشغلها العازف « تشيكيليتش » بصفة دائما ، فمعنى هذا أن السيدة جيشار قد حاولت الانتحـار فى غرفة العـازف ، وليس فى غرفتها !

تقفز خلف زجاج اللوحة الطويلة المثبتة إلى الجدار ، لتبين اى الغرف تلك التى كان نزيلها يقض راحة الخادم أو الوصيفة ..

وفى تلك اللحظة ، كان الطبيب يعطى مقيئا لتلك العجوز الحمقاء « جيشاروفا »(١) ، ويغسل أمعاءها . وكانت ساقا « جلاشا » — الخادم — قد أنهكهما طول الجرى ، ومسح أرض الغرفة، ونقل دلاء مليئة بالأوساخ، وإحضار دلاء نظيفة .. ولكن العاصفة التى احتدمت فى غرفة الخدم — فى الوقت ذاته — كانت قد بدأت فى الواقع قبل هذه الجلبة بكثير .. قبل أن يوفد « تيراشكا » فى مركبة ليستدعى الطبيب وعـازف الكمان التعس ، وقبل أن يصل كوماروفسكى ، وتزخر الردهة الممتدة أمام باب الحجرة رقم (٢٣) بكل هذا العدد من الناس.

لقد بدأت المتاعب بعد ظهر ذلك اليوم ، عنـدما اندفع شخص فى الردهة الضيقة المفضـية من حجرة إعداد أدوات المـائدة ، فاصطدم عفوا بالساقى « سيسوى » وهو مار وقد انحنت قامته تحت ثقل صحفة توازنت على يده اليمنى ، وهى مثقلة .. فهوت الصـحفة إلى الأرض ، واريق الحسـاء ، وتهشم طبقان للحساء وطبق للحم . وأصر « سيسوى » على أن العاملة الموكلة بغسل الاطباق هى التى كانت مسئولة عن الحادث ، ولا بد من أن تدفع التعويض . ومع أن الساعة كانت قد شارفت الحادية عشرة ، وآن لنصف مستخدمى الفندق أن

(١) صيغة روسية ابتكرها خدم الفندق لاسم السيدة جيشار .

ينصرفوا — إذ انتهت نوباتهم — إلا ان الشجار ظل دائر الرحى :

— لقد اصبح مصابا بالرجفة ، لا يستطيع ان يستبقى يديه وقدميه دون ارتعاش .. كل همه ان يجلس إلى زجاجة الشراب ، حتى لتحسبها زوجته.. انه يجف ويتيبس كالسمك المدخن ، ثم يتهم الناس بأنهم دفعوه واراقوا الحساء وحطموا الاطباق! .. فمن تراه قد دفعك ايها الشيطان.. ايها الحيوان الاستراخانى .. ايها المخلوق المجرد من الحياء ؟ !

— لقد انذرتك مرارا يا ماتريونا ستيبانوفنا بأن تتكلمى بأسلوب مهذب !

— ومن الذى اثار كل هذا الضجيج ؟ .. خبرنى ! إن المرء ليحسب ان صاحب هذا الضجيج يستحق أن تهشم الأطباق بسببه ! .. ثم هناك تلك العاهر ، جوابة الطرق ، مدعية العظمة .. التى كانت تبيع نفسها بالبخس ، ثم قدر لها ان تتقاعد ، لقد احسنت صنعا بنفسها ، إذ تجرعت الزرنيخ ! .. حقا إن السيدة التى تقيم فى «مونتنجرو» مرفهة، لا تحتمل قطة تتلصص فى الردهة !

وكان « ميشا » و « يورا » يذرعان الردهة خارج غرفة السيدة جيشار . .كان كل شىء قد انجلى عن عكس ما كان « الكسندر الكسندروفيتش » يتوقع . فلقد حدس أن ثمة مأساة نظيفة ، كريمة ، قد حاقت بحياة الموسيقى عازف الكمان . اما الذى وقع فكان من ابشع الحوادث .. حادث قذر ، معيب ، فاضح ، لا يليق بالصغار ان يقفوا على أمره . ومن ثم فقد بقى الشابان فى الردهة ، ولكن الخادم جاءهما

محاولا — للمرة الثانية — بصوته المتباطىء ، المعسول ، ان يغريهما بالجلاء عن الردهة : « ادخلا ايها السيدان الشابان ، فقد تحسنت حال السيدة .. ادخلا ولا تخشيا شيئا ، فالسيدة بخير ، ولا حاجة بكما إلى ان تخافا .. لقد شفيت السيدة تماما . ثم إنه ينبغى ان لا تقفا هنا، فلقد وقع حادث فى الردهة — بعد ظهر اليوم — وتهشمت آنية من الخزف الثمين . إننا مضطرون إلى الجرى من اول الردهة إلى آخرها لنقدم الأطعمة ، وهى ردهة ضيقة كما تريان .. ادخلا ! » .

وانصاع الشابان.. وفى الحجرة، كان المصباح البترولى الموقد — الذى كان يقام عادة فوق المنضدة — قد رفع عن مكانه ووضع خلف حاجز خشبى ، كان المخدع وراءه . وكان هذا المخدع مزركشا بالبق ، وتسدل عليه ستار مغبرة تخفيه عن الحجرة الرئيسية والردهة . على أن الستار كانت مزاحة إذ ذاك ، ولم يفكر احد — فى غمرة الفوضى — فى أن يردها إلى وضعها الصحيح . وكان المصباح موضوعا على مقعد منخفض ، وقد ارسل فى المخدع ضوءا باهرا انبعث من اسفل إلى اعلى ، أشبه بضوء منصة المسرح .

وكانت السيدة جيشار قد حاولت أن تسم نفسها باليود ، وليس بالزرنيخ كما ظنت الخادم الموكلة بغسل الأطباق . فكانت تشيع فى الحجرة رائحة حادة نفاذة ، كعبير ثمار الجوز الخضراء عندما تكون قشرتها الخارجية لا تزال طرية يسود لونها للمسات الأصابع . وكانت الخادم تمسح الأرض خلف الحاجز الخشبى ، اما على السرير فقد رقدت امراة نصف عارية، ابتل وجهها بالدموع، والماء، والعرق، ولصق شعرها

بجبينها .. وكانت تنحنى على دلو ، وهى ممسكة براسها بين راحتيها ، وقد راحت تصرخ بصوت عال .

واعرض الشابان عن المنظر لفورهما ، إذ شعرا بأن من المخجل والمعيب أن ينظرا إلى السيدة ، ولكن « يورا » كان قد راى ما يكفى لأن يتبين ان المراة فى بعض الأوضاع — التى تتخذها دون فطنة او حذر ، وفى أوقات الإعياء والإرهاق — لا تظل كما تصورها التماثيل وفن النحت ، بل تغدو أشبه بالمصارع ذى العضلات البارزة المنتفخة ، وقد تعرى اللهم إلا من سرواله ، وتأهب للنزال !

* * *

واخيرا ، فطن احد الواقفين خلف الحاجز ، فأسدل الستار ، بينما راحت السيدة تقول :

— اين يدك يا عزيزى السيد تشكيفيتش ؟ .. هات يدك !

وكانت العبرات والغثيان تخنق صوتها . ومع ذلك فقد مضت تقول : « آه ، يا لها من اهوال تلك التى مررت بها ! .. وما افظع الهواجس والشكوك التى انتابتنى .. يا سيد تشكيفيتش ! .. لقد خيل إلى .. ولكن ، لحسن الحظ اتضح انه كان مجرد وهم فارغ ، مجرد خيال مضطرب .. تصور مدى ارتياحى .. وتصور ما انتهى إليه الأمر كله .. ها انذى .. ها انذى على قيد الحياة .. » .

— هدئى من روعك يا أماليا كارلوفنا .. ارجوك يا له من امر محرج .. كل هذا .. انه لمحرج جدا والله !

وقال الكسندر الكسندروفيتش للشابين، بصوت أجش : « لقد آن ان ننصرف ! » . وكانا يقفان فى المدخل المفضى إلى الردهة ، وقد اشتد بهما الارتباك ، فلم يعرفا إلى اين يوجهان نظراتهما ، ومن ثم راحا يحملقان بنظرات ثابتة فيما امامهما .. فى الحجرة الرئيسية ، التى رانت عليها ظلال عميقة .. وكانت ثمة صور معلقة إلى الحائط ، ورف للكتب زخر بـ «النوتات» الموسيقية ، ومكتب تراكمت عليه الصحف ومجلات الأزياء . وخلف المائدة المستديرة — التى كسيت بغطاء مطرز بـ « الكروشيه » — كانت ثمة فتاة غلبها النعاس فى مقعد وثير ذى مسندين ، وقد طوحت إحدى ذراعيها حول ظهر المقعد ، واستندت بيدها الأخرى إلى الحشية التى كانت تجلس فوقها . ولا بد انها كانت متعبة إلى اقصى حد ، وإلا ما استطاعت ان تنام فى هذه الضجة وهذا الارتباك الحافل بالانفعال !

وعاد الكسندر الكسندروفيتش يقول للشابين : « لقد آن أن ننصرف ! » .. لم يكن ثمة داع لمجيئهم ، كما أن بقاءهم لفترة أخرى ، كان مجافيا للذوق ! .. وأردف قائلا : « بمجرد أن يخرج السيد تشكيفيتش من وراء الحاجز ؛ يجب ان اودعه وننصرف ! » .

ولكن تشكيفيتش لم يكن هو الذى نفذ من وراء الحاجز ، وإنما خرج — بدلا منه — سيد عريض المنكبين ، معتد بنفسه . وسار — وهو يحمل المصباح فوق راسه — إلى المائدة ، فوضعه عليها ، فى المكان المخصص له اصلا . وإذا الضوء

يوقظ الفتاة ، فاجالت إنسانى عينيها فى محجريهما ، وتمطت وهى تبتسم للرجل .

واجفل « ميشا » حين راى الرجل ، وراح يحملق فيه وكانه لم يكن يقوى على ان يحول عينيه عنه . ثم جذب كم « يورا » ، وحاول ان يتحدث إليه همسا ، ولكن « يورا » ابى ان يجاريه ، بل قال : « لا يليق بك ان تهمس امام الناس .. ما الذى يظنونه بك ؟ » . وفى تلك الاثناء ، كانت الفتاة والرجل يمثلان دورا صامتا ، فلم يتبادلا كلمة واحدة ، ولكن اعينهما تلاقت فى حديث خاص. على ان التفاهم بينهما كان يتسم بطابع رهيب ، وكأنه نوع من السحر الخبيث .. او كأن الرجل كان صاحب مسرح للدمى (اراجوز) ، وكانت الفتاة دمية تتحرك وتنصاع لكل حركة او إشارة تصدر منه ! .. وكانت ثمة ابتسامة مرهقة تثقل عينيها وشفتيها المتباعدتين ،ولكنها لم تلبث — استجابة لنظرة طروب صدرت عنه — أن غمزت بعينيها فى مكر نم عن امر بينهما .. كان كل منهما مغتبطا بان كل شىء قد انتهى نهاية طيبة .. وان سرهما كان بمأمن ، وان محاولة الانتحار — التى اقدمت عليها السيدة جيشار — قد انتهت إلى الفشل !

وراح «يورا» يلتهمهما بعينيه .. ومضى يحملق فى دائرة الضوء ، من الركن المظلم الذى كان يقف فيه ، بقرب الباب .. كان الموقف بين الفتاة الأسيرة ومولاها المسيطر عليها غامضا محيرا ، وصريحا مفضوحا ، فى آن واحد ، ودون ما تفسير ! .. وبدات تتدافع فى فؤاد « يورا » مشاعر جديدة ، متضاربة ، ومؤلمة ! .. فأمامه كان عين الشىء الذى

طالما تناقش فيه مع تونيا وميشا ، والذى استبعده عن افكارهم بوصفه « مبتذلا » .. الشىء الذى كان سلطانه يفزعهم ويجتذبهم فى آن واحد ، والذى كانوا يخضعونه بسهولة لسلطانهم بان يقفوا على مسافة مأمونة منه ، ولا يمسوه إلا بالكلمات ! .. ولكن ، ها هى ذى هذه القوة تتجلى أمام ناظرى «يورا» حقيقة ثابتة ، ولكنها — مع ذلك — تتوارى خلف غلالة من حلم مدمر ، عات .. تتجلى مستيئسة ، وكأنها تشكو .. ترى اين ذهبت فلسفة « يورا » الصبيانية أمام هذا المنظر ، وما الذى كان مقدرا له ان يفعل ؟

وإذ نفذوا إلى الشارع ، ساله ميشا : « هل تعرف من هو هذا الرجل ؟ » .. ولكن «يورا» كان مستغرقا فى افكاره ، فلم يجب ! .. على ان ميشا استطرد يقول : « إنه ذلك الذى اغرى اباك بالاقبال على الخمر ، وكان سببا فى موته ! .. إنه المحامى الذى كان فى القطار معه .. لقد انباتك بذلك . فهل تتذكر ؟ » . بيد ان يورا كان مستغرقا فى التفكير فى الفتاة ، وفى المستقبل .. وليس فى ابيه ، ولا فى الماضى ! .. ولم يفقه — فى البداية — ما كان « ميشا » يحدثه به .. ثم إن البرد كان اقسى من ان يحلو معه الكلام ، على اية حال .

وقال الكسندر الكسندروفيتش للحوذى ، إذ بلغا المركبة : « لا بد انك قد تجمدت يا سيمون ! » .. ثم انطلقت بهم المركبة إلى البيت .

الفصل الثالث

حفلة عيد الميلاد

فى دار آل « سفنتيتسكى »

- ١ -

● فى شتاء عام من الاعوام ، اهدى « الكسندر الكسندروفيتش » لزوجته « آنا » صوانا اثريا ، كان قد ظفر به كصفقة موفقة . وكان الصوان مصنوعا من الأبنوس ، وذا حجم هائل ، حتى أنه لم ينفذ خلال الباب إلا بعد تفكيكه ، فادخل إلى البيت على اجزاء . ثم كانت مشكلة المكان الذى يوضع فيه . إذ انه لم يكن مناسبا لحجرات الاستقبال ، نظرا لطبيعة استخدامه ، كما انه لم يكن ملائما لحجرات النوم ، نظرا لحجمه .. وانتهى الأمر إلى إخلاء جزء له من بهو الطابق الاعلى ، خارج حجرة نوم ربى الأسرة .

وجاء « ماركل » — العامل — لتركيب اجزائه ، فاحضر معه ابنته مارينكا ، وكانت فى السادسة من عمرها . وقدم بعضهم إليها قطعة من سكر الشعير ، فامسكت بها بين اصابعها اللزجة ، ووقفت تمتصها ، وهى ترقب اباها ، وانفها يرسل صفيرا اجش .. ومضى كل شىء على ما يرام — فى البداية — فاذا الصوان يتخذ شكله شيئا فشيئا امام عينى « آنا » . حتى إذا اوشك ان يكتمل ، ولم تبق سوى قمته لترفع إلى مكانها ، خطر لآنا ان تساعد « ماركل » ، فوقفت داخل

الصوان ، على القاعدة المرتفعة ، ولكن قدمها زلت ، فوقعت على احد جوانب الصوان ، التى لم تكن قد احكم تثبيتها بعد ، وإذا بالحبل الذى احاطه « ماركل » به يهبط وينفك .. وهوت « آنا » على الارض مع الألواح ، فى ضجيج عال ، فاصيبت بكدمات موجعة .

واندفع ماركل نحوها قائلا : « اواه يا سيدتى، يا مولاتى .. ما الذى جعلك تفعلين ذلك ، ايتها الغالية ؟ .. ارجو ان لا يكون قد اصاب العظام اى كسر . تحسسى عظامك ! .. العظام هى المهمة ، اما الأجزاء الطرية فلا خوف عليها البتة .. أن الأجزاء الطرية تستعيد حالتها الطبيعية سريعا ، فهى — كما يقول المثل — مجرد كماليات ! » .. ثم التفت إلى مارينكا صائحا : « لا تعولى‌ايتها اللعينة ! .. امسحى الافراز من انفك واذهبى إلى امك ! .. آه يا سيدتى ، اما كان بوسعك ان تركنى إلى فى ان اقيم هذا الصوان بدون ان تتجشمى تعبا ما ؟ .. إنك إذ تنظرين إلى، لا تظنين سوى اننى مجرد عامل بسيط ، ولكن صناعة الصوانات والخزانات هى حرفتى . لقد بدات عملى كصانع صوانات . وما اظنك تتصورين كم من قطع الاثاث مرت بين يدى .. من صوانات ، و « بوفيهات » .. « لا كيه » ، ومن خشب الجوز ، او خشب المهوجنى .. على سبيل المثال لا الحصر . لقد ضاع كل هذا ، فى الواقع .. وكانت الخمر هى‌السبب .. المشروبات الروحية القوية يا سيدتى ! » .

واحضر « ماركل » مقعدا ذا مسندين ، تهالكت فيه « آنا » بمساعدته ، وراحت تتوجع وتلك كدماتها . ثم انهمك

فى إعادة تركيب الصوان . حتى إذا وضع الرأس مكانه ، قال : « بقى أن يوضع البابان فى مكانيهما ، ويصبح صالحا لأن يعرض على الناس ! » .

ولم تحب « آنا » الصوان ، إذ كان شكله وحجمه يذكرانها بالضريح ، أو بمقبرة ملكية ، فيملأ نفسها بتشاؤم مقيت . ومن ثم أطلقت عليه اسم « مقبرة آسكولد »(١) ، وإن كانت ترمى إلى جواد الأمير « أوليج » الذى تسبب فى موت صاحبه (٢) . فإن عدم عنايتها بما تقرأ كان يجعلها تخلط بين الأفكار خلطا عجيبا .

وأصبحت « آنا » — بعد هذا الحادث — تشكو ضعفا رئويا .

— ٢ —

● وقضت « آنا » طيلة شهر نوفمبر من عام ١٩١١ فى الفراش ، من جراء التهابات فى الرئتين . وكان « يورا » و « ميشا جوردون » و « تونيا » فى طريقهم إلى الخارج فى الربيع التالى : يورا فى الطب ، وتونيا فى القانون ، وميشا فى الفلسفة .

وكان كل شىء مختلطا فى ذهن يورا ، فى ارتباك وعدم

---

(١) كان اسكولد أحد مؤسسى الدولة الروسية ، وكانت (كييف) مقر حكمه ، وقد دفن فيها بعد موته .

(٢) الأمير أوليج حاكم آخر من حكام (كييف) ، قتله ثعبان من جمجمة جواده الذى كان مشغوفا به .

انتظام .. كما كان كل شىء ينطبع — إلى درجة كبيرة — بطابعه الخاص : سواء أفكاره ، أو عاداته ، أو ميوله .. كان ذا تأثير خارق ، وكانت نضارة بصيرته وطرافتها تستلفتان الانتباه . ومع أنه كان ميالا إلى الفن والتاريخ إلى درجة كبيرة ، إلا أنه نادرا ما تردد إزاء اختيار مهنته . إذ كان يعتبر أن الفن لا يمكن أن يكون مهنة ، اللهم إلا إذا كان من الممكن للفرح أو الحزن أن يكون مهنة ! .. كما كان يهتم بالعلوم الطبيعية والبدنية ، ويؤمن بأن على المرء أن يمارس عملا نافعا فى حياته العملية ، ومن ثم اتجه إلى الطب .

ولقد قضى فصلا دراسيا — فى العام الأول من أعوام دراسته الأربعة — فى قاعة التشريح ، وكانت فى الطابق الأرضى من مبنى الجامعة ، غائرة تحت مستوى الأرض ، تهبط إليها بسلم حلزونى . وكانت تزخر دائما بالطلبة المشعثى الهيئة . بعضهم عاكفون على الدراسة — وأمامهم كتبهم تحيط بها العظام — أو منصرفون إلى التشريح فى هدوء ، كل فى ركنه المختار .. وبعضهم يتسكعون فى القاعة ، يطلقون النكات ، ويطاردون الفئران التى كانت تجرى فى أسراب على الأرض الحجرية ! .. وكانت الجثث العارية — جثث الغريقات والمنتحرات المجهولات الهوية — تومض كالفسفور فى عتمة المشرحة . وكانت حقن أملاح الشب تجددها ، وتبعث فيها استدارة خداعة .. فكانت الجثث تشق ، وتقطع أوصالها ، ومع ذلك فإن الجسم الإنسانى كان يظل محتفظا بجماله فى أدق أجزائه .. ومن ثم فإن « يورا » كان يشعر إذ يحدق فى ذراع أو كف مبتورة من جسم فتاة ، بعين ما كان يشعر به حين يتأمل

هذا الجسم وهو ملقى بوحشية على إحدى الموائد الحديدية . وكان جو المكان ممتلئا بروائح حامض الفنيك و «الفورمالين» ، مشحونا بالأسرار الغامضة .. اسرار الحياة المجهولة لتلك الاجسام العارية الميتة .. اسرار الحياة والموت ذاتهما ! .. كان الموت مألوفا فى تلك القاعة الغائرة تحت الأرض ، حتى لكنها كانت بيته او مقر عمله ! !

وكان صوت هذه الأسرار الغامضة يطغى على كل ما عداه ، ويشغل بال « يورا » اثناء انهماكه فى التشريح . على ان كثيرا من الأشياء فى الحياة كانت تشغله .. وقد الفها فلم تكن تصرفه عن العمل !

وكان « يورا » يحسن التفكير ، كما يجيد الكتابة . وكان يحلم ــ منذ ايام التلمذة الأولى ــ بأن يؤلف كتابا نثريا .. كتابا عن انطباعات الحياة ، يدس خلاله اغرب ما رآه او خطر له ــ فيما انقضى من عمره ــ كما تدس أصابع الديناميت ! .. على انه كان اصغر سنا من ان يضع ذلك الكتاب ، فألف ــ بدلا منه ــ ديوانا شعريا . لقد كان أشبه بالرسام الذى يقضى عمره فى رسوم جزئية يؤلف منها ــ فى ذهنه ــ صورة كبيرة . ولقد حملته قوة اشعاره وطرافتها على أن يغفر لنفسه ما كانت هذه الأشعار تنطوى عليه من خطيئة ، إذ كان يؤمن بأن القوة والجدة وحدهما خليقتان بأن تكسبا العمل الفنى واقعية ، وان الفن بدونهما عديم النفع ، زائف ، ومضيعة للوقت !

ولقد تبين « يورا » مدى ما ساهم به خاله فى تكوين شخصيته . وكان « نيكولاى نيكولاييفيتش » يقيم ــ إذ ذاك ــ

فى (لوزان) ، حيث نشرت عدة كتب له باللغة الروسية وغيرها من اللغات . وقد عالج فى هذه الكتب آراءه فى التاريخ ككون قائم بذاته .. كون شيده الإنسان بمعونة الزمن والذاكرة ، كرد على الموت المسلط على عنقه . وإذ كانت هذه الآراء مستمدة من فهم جديد للمسيحية ، فانها أدت إلى اتجاه جديد فى الفن .

ولقد كان « ميشا » اكثر تأثرا بهذه الآراء من « يورا » ، وكان سلطانها عليه هو الذى حدا به إلى أن يتخذ الفلسفة موضوعا لدراسته ، كما كان يحضر درس اللاهوت ، بل ويفكر فى ان يتحول ــ فيما بعد ــ إلى كلية فقه الدين . وهكذا كان « يورا » يرقى تحت تأثير نظريات خاله ، التى حررته ، بقدر ما قيدت ميشا بالأغلال . وكان « يورا » يدرك ان أصل « ميشا » العنصرى كان يحدث رد فعل يغريه بالتطرف فى آرائه .. بيد انه كان من الحكمة بحيث لم يحاول أن يصارحه بغرابة افكاره ومشروعاته ، وإن كان يتمنى ــ فى بعض الأحيان ــ لو أن « ميشا » كان اكثر قربى إلى الحياة ، واكثر ميلا إلى التجربة فيها !

ـ ٣ ـ

● وفى امسية يوم من الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر ، عاد يورا من الجامعة إلى البيت متأخرا ، متعبا ، لم يتبلغ بشىء طيلة يومه ، وقيل له إن اهل البيت قد تعرضوا لذعر فظيع فى ذلك اليوم ، إذ أصيبت « آنا » بتشنجات ، وقد عادها عدة اطباء ، ونصحوا الكسندر الكسندروفيتش بأن يستدعى



وامسك برسغ « آنا » وراح يجس نبضها .
ثم مد يده الى جيب معطفه ليخرج مسماعه ..

القس ، ولكنهم لم يلبثوا ان رجعوا عن رأيهم هذا .. وكانت « آنا » — حين عاد يورا — قد تحسنت ، وامرت بأن يرسلوه إليها بمجرد وصوله . ومن ثم فانه بادر بالذهاب إليها .

وكانت فى الحجرة آثار الارتباك الذى حدث ، وقد انهكمت ممرضة فى إعداد شيء ما على منضدة بجوار الفراش، فى هدوء . وكانت المناشف التى استخدمت لعمل « الكمادات » ملقاة فى كل مكان ، وهى مبتلة ومتسخة . وكان الماء — فى حوض النفايات — ورديا من جراء الدم الذى انساب مع البصاق ، وقد سبحت على سطحه انابيب المصل وقطع من القطن الطبى .. اما « آنا » فكانت مغرقة فى العرق ، وقد جفت شفتاها وتشققتا ، وشحب وجهها وهزل عما كان عليه فى الصباح .

وساءل يورا نفسه : « ترى هل كان التشخيص خطأ ؟ .. إن لديها كافة اعراض داء الرئة ، ويبدو انها تعانى ازمة ! » .. وبعد ان حياها ، قائلا كل ما يمكن ان يقال — فى مثل هذه المناسبات — على سبيل التشجيع ، اقصى الممرضة عن الحجرة ، وامسك برسغ « آنا » وراح يجس نبضها . ثم مد يده إلى جيب معطفه ليخرج مسماعه ، ولكنها حركت راسها ، وكأنها تقول له : «لا جدوى!.. فيم تتعب نفسك؟» . وادرك انها كانت تبغى منه شيئا آخر . وقالت فى عناء : « لقد تلوا .. الطقوس الأخيرة .. الموت مسلط فوق رأسى .. فى اية لحظة .. انك حين تضطر إلى نزع إحدى اسنانك ، تشعر بخوف من ان تؤلمك ، وتهيىء نفسك .. ولكن هذه ليست سنا .. إنما كلك .. كل حياتك ، تنتزع منك .. وما معنى هذا ؟

.. لا احد يدرى .. ان قلبى مثقل ، وإننى لفى ذعر ! » . ولاذت بالصمت . وانهمرت الدموع مدرارة على وجنتيها ، فلم يقل يورا شيئا .

وعادت آنا بعد لحظة تقول : « إنك ماهر ، موهوب .. وهذا يجعلك على غير شاكلة الآخرين .. فقل لى شيئا .. ارح بالى ! » . فاجاب يورا : «حسنا ، ماذا عساى قائلا؟ » . وتململ فى مقعده ، ثم نهض وراح يسير فى الحجرة ذهابا وإيابا . وما لبث ان قال : « أولا ، لسوف تشعرين بتحسن فى الغد .. إننى ارى البشائر ، واؤكد لك ذلك .. اما عن الموت ، فهو يقظة الوعى ، وهو البعث .. افتريدين أن تعرفى رايى من الناحية العلمية ؟ .. اما ترين ان نرجئه إلى وقت آخر ؟ .. لا ؟ فورا ؟ .. حسنا ، لك ما تشاءين . ولكنك تعرفين أن من العسير صوغه فى كلمات على الفور » . ثم شرع فى الحديث ، فاذا به يلقى محاضرة مستفيضة ، اذهلته هو نفسه :

« البعث ! .. إن الشكل غير المصقول ، الذى تصور به الفكرة للتسرية عن الضعيف، لا يروق لى. لقد اعتدت ان افهم دائما كلمات المسيح عن الحياة والموت على نحو آخر .. اين يمكن توفير الفراغ لكل هذه الجحافل من الناس ، المتجمعة فى آلاف السنين ؟ إن الكون ليس من الكبر بحيث يتسع لهم ، ولسوف يضيق الله والخير والعقل بكل هذه الجحافل المتزاحمة فى تدافع حيوانى !

« ولكن الحياة تظل هى هى ، طيلة الوقت ، ودائما متحفظة بطابعها بطريقة لا يدرك احد كنهها ، مالئة الكون ،

متجددة فى كل لحظة فى أشكال ، وتركيبات ، وتحولات لا حصر لها .. ولعل القلق يراودك إذ تتساءلين عما إذا كنت ستقومين من الموت أو لا تقومين ، ولكنك قد قمت من قبل فعلا .. قمت من الموت عندما ولدت ، ولكنك لم تفطنى إلى ذلك .. وإذ تتساءلين عما إذا كنت ستشعرين بالم ، ولكن : هل تشعر الانسجة بتحللها ؟ .. وبمعنى آخر ، ما الذى سيجرى لوعيك ؟ .. ولكن ، ما هو الوعى اولا ؟ .. ان محاولتك النوم — ووعيك يحس بهذه المحاولة — لهى الطريقة المؤكدة للأرق والسهاد . .كما ان محاولة الوعى بعملية الهضم وهى تجرى، لهى الطريقة المثلى لإشاعة الاضطراب فى المعدة .. فالوعى سم حين نحاول ان نطبقه على انفسنا ! .. او هو شعاع من نور ينبعث من اعماقنا إلى الخارج ، فيضىء الطريق امامنا حتى لا نتعثر .. إنه اشبه بالمصباح الكشاف المثبت فى صدر القاطرة ، فاذا انت حولت شعاعه إلى الداخل ، كان وقوع الكارثة محققا !

« وإذن ، فما الذى سيجرى لوعيك ؟ .. وعيك انت ، لا وعى احد سواك ؟ ولكن ماذا انت ؟ .. هذه هى ذروة المعميات ، فلنحاول ان نكتشفها .. ما هو الشىء الذى فيك ، والذى كنت تعرفينه طول عمرك بانه انت ؟ .. ما الذى تعينه عن نفسك ؟ .. كليتاك ، ام كبدك ، ام اوعيتك الدموية ؟ .. لا . فمهما تعودى إلى الوراء منقبة فى ذاكرتك ، فلن تصادفى ماهيتك وكنهك إلا فى ظاهرة خارجية ، فعالة ، نشيطة على الدوام.. فى عمل يديك، فى اسرتك ، فى اهلك ! .. والآن، هل رايت؟ انك انت — نفسك — فى الغير ! .. هكذا انت . هذا

ما كان وعيك يستنشقه ويعيش عليه طيلة عمرك .. إنه نفسك ، خلودك ، حياتك فى سواك ! . وبعد ؟ .. لقد كنت دائما فى الغير ، وستبقين دوما فى الغير . فماذا يعنيك إذا سمى ذلك ــ فيما بعد ــ ذكراك ؟ .. انه سيكون انت .. الـ « انت » التى ستدخل المستقبل وتصبح جزءا منه !

« بقيت نقطة اخيرة : ليس ثمة داع لان تتلقى او تهتمى ، فليس هناك موت .. إن الموت ليس وظيفتنا . ولقد ذكرت الموهبة .. وهذه امرها يختلف ، لأنها ملك ايدينا .. رهن إرادتنا ! .. وان تكونى موهوبة باوسع واسمى المعانى ، معناه ان تكونى موهوبة للحياة !

« لن يكون ثمة موت ، هكذا يقول القديس يوحنا ، فتاملى بساطة حجته : لن يكون ثمة موت ، لأن الماضى قد انتهى .. إنه اشبه بان تقولى إنه لن يكون ثمة موت ، لأن الموت قد ولى فعلا ، فهو عتيق وقد سئمناه .. إن الذى نحتاج إليه هو شىء جديد ، وهذا الشىء الجديد هو الحياة الأبدية ! » .

وكان يروح ويغدو ، وهو يتكلم . ثم دنا من السرير ، ووضع يده على جبين « آنا » قائلا : « .. فنامى ! » . وبعد لحظات ، بدأت تستسلم للنعاس فعلا . فغادر « يورا » الحجرة فى هدوء ، وطلب إلى « يوجوروفنا » ان تستدعى الممرضة لتلازم المريضة . واخذ يقول فى نفسه : « ياللشيطان! .. اى مهرج اوشك ان اغدو ! .. اتلو تعاويذ ، وامسح بيدى على الجبين .. » .

وفى اليوم التالى ، كانت « آنا » احسن حالا !

— ٤ —

● وواصلت « آنا » تحسنها ، فما إن انتصف شهر ديسمبر حتى حاولت ان تنهض ، ولكنها كانت بالغة الضعف . ونصحها الأطباء بان تلزم الفراش وتنعم باكبر قسط من الراحة .

وكثيرا ما كانت ترسل فى طلب يورا وتونيا ، فتروح تحدثهما ساعة باكملها عن طفولتها فى جبال (اورال) . فلقد نشات فى ضيعة ابيها (فاريكينو) ، على نهر (رينفا) . ولم يكن يورا ، ولا تونيا ، قد ذهبا إلى تلك الضيعة ، ولكن يورا كان يتمثل فى خياله بسهولة ــ وهو ينصت إليها ــ تلك الأفدنة الاثنى عشر الفا من الغابات البكر الكثيفة ، المظلمة كالليل ، والجدول يخترقها مندفعا فى تعرج ، خلال مجراه الصخرى .

ولأول مرة فى حياتهما، حظى يورا وتونيا بثياب للسهرة، صنعت لهما خصيصا . فحصل يورا على بزة رسمية ، وحصلت تونيا على ثوب للسهرة من « الساتان » ، انحسر قليلا عن عنقها . وكانا يزمعان ان يرتدياهما ــ لأول مرة ــ فى حفلة عيد الميلاد التقليدية لدى آل « سفنتيتسكى » فى السابع والعشرين من الشهر . وقد وصلت بزة يورا وثوب تونيا فى يوم واحد ، فارتدياهما على سبيل التجربة ، وطربا ، ولم يحاولا ان يخلعاهما عندما ارسلت « آنا » تستدعيهما .. حتى إذا دخلا عليها ، نهضت معتمدة على مرفقها ، وتاملتهما ، وسالتهما ان يستديرا ، ثم قالت : « بديع جدا .. جميل جدا ! .. ما تصورت أنهما سيكونان معدين فى الموعد . دعينى اتاملك

فى الثوب مرة اخرى يا تونيا . كنت أظن ان الياقة ستكون منتفخة من الخلف . اتعرفان لماذا دعوتكما ؟ .. ولكنى أحب ان اقول لك كلمة يا يورا ، أولا ! » .

ـ أعرف ما لديك يا آنا ايفانوفنا .. اعرف انك رايت الخطاب ، فقد بعثت به إليك بنفسى ، وادرك انك توافقين « نيكولاى نيكولايفيتش » فى الراى . فكلاكما تريان انه ما كان ينبغى ان ارفض الوصية ، ولكن .. مهلا ، لحظة واحدة ! من المضر بك أن تتكلمى ، فدعينى اشرح لك كل شىء .. وإن كنت تعرفين الشطر الأكبر منه .. لا بأس ، إليك رايى . أولا : يروق للمحامين ان تكون هناك قضية ذات ضجيج .. « قضية جيفاجو » ، لأن فى ضيعة أبى من المال ما يكفى لأن يسد النفقات ويوفيهم أتعابهم . وفيما عدا ذلك ، لا تجدين ثمة تركة البتة . لا شىء هناك سوى الديون والارتباكات .. وكثير من القاذورات التى لا يحسن غسلها أمام الملأ ! .. ولو كان ثمة ما يمكن أن يدر نقودا ، افتظنين اننى كنت اقدمه للمحكمة هدية ، ولا افيد منه ؟ .. ولكن الأمر كله هو ان القضية مجرد شعوذة ! .. لذلك فقد كان من الخير ان ارفض ثروة لا وجود لها ، حتى لا اكشف عن الأوساخ ، وان ادعها لثلة من المتزاحمين المتكالبين والمدعين الزائفين ، كما هى حقيقتهم برغم كل شىء ! .. إن من المطالبين بها ـ كما تعلمين ـ سيدة تدعى « اليس » ، تنسب نفسها إلى « جيفاجو » ، وتعيش مع اطفالها فى باريس .. لقد علمت بأمرها منذ أمد طول . على ان ثمة ادعياء جددا عديدين ، لست أعرفهم ، ولكنى نبئت بهم منذ عهد قريب .. ويبدو أن أبى شغف اثناء حياة أمى بأميرة

غريبة الأطوار والنزوات تدعى « ستولبونوف الريتسى » ، وقد أنجبت هذه السيدة طفلا منه يدعى ايفجراف ، فى العاشرة من عمره .. لقد اعتزلت الأميرة المجتمع ، وهى تعيش اليوم فى دار خارج أطراف (اومسك) ، لا تبرحها إطلاقا . ولا يعرف احد مورد دخلها .. ولقد رايت صورة للبيت ، فاذا به جميل ، ذو خمس نوافذ طويلة على النمط الفرنسى (١) ، تعلو حافتها العليا نقوش مرمرية .. وقد ظللت ـ فى الفترة الأخيرة ـ اخال ان البيت يحدجنى بنظرات محرجة تنبعث من النوافذ الخمس ، وتجتاز آلاف الأميال التى بين (الاورال) و (موسكو) ، وانه لن يلبث ان يحيق بى شر من وراء ذلك . فماذا ابغى من كل هذا ؟ .. مال وهمى ، مطالبون زائفون ، وشر ، وحسد .. ثم محامون ! فهل هذا ما ابغيه ؟ » .

فقالت آنا « مهما يكن الأمر ، فما كان ينبغى أن ترفضه » . ثم تساءلت فجاة ، وهى تعود بهما إلى حيث وقف بها الحديث فى اليوم السابق (٢) : « افتعرفان لماذا دعوتكما ؟ .. لقد تذكرت اسمه .. اتذكران حارس الغابة الذى كنت احدثكما عنه بالأمس ؟ .. انه يدعى « باكوس » . اسم غريب ، أليس كذلك ؟ .. رجل مخيف حقا ، أسود كالشيطان ، ذو لحية تتصل بحاجبيه ، ويدعو نفسه « باكوس » ! .. وكانت بوجهه ندوب ، إذ هاجمه دب ، ولكنه استطاع أن يصده

---

(١) ابواب كابواب الشرفات ، ولكنها لا تفضى الى شرفات ، وانما الى حديقة الدار .

(٢) حين حدثتهما عن طفولتها فى ضيعة ابيها .

ويقاومه .. وكلهم هناك على هذه الشاكلة .. اسماء مؤلفة من مقطعين ، ملفوفـة ، ذات رنين : باكـوس ، لوبوس ، فاوستوس ! .. ومن آن لآخر ، كان الخـدم يعلنون مقـدم شخص على هذه الشـاكلة .. ربما كان « اوكتوس » .. شخصا ذا اسم اشبه بطلق من بندقية جدك ذات الفوهتين ! .. وكنا نهبط فى الحال ، فى صف متتابع ، من غرفة الأطفال إلى المطبخ . وهناك ما كان بوسعك ان تحدس ما قد يكون عليه الموقف، او ان تحدس من الذى قد تجده هناك .. فقد يكون القادم تاجر فحم يحمل جرو دب ، او احد المنقبين عن الحديد من الطرف الأقصى للضيعة ، وقـد جـاء بقطعة من المعـدن الغفل .. وكان جدك يدعوهم دائمـا إلى المكتب ، فصـيب بعضهم مالا ، وبعضهم حنطة سوداء ، وبعضـهم قذائف من « الخرطوش » . وكانت الغابة تمتد حتى النوافذ ، والجليد .. الجليد ! كان اكثر ارتفاعا من السقوف ! » .

وشرعت آنا فى السعال ، فاهابت بهـا تونيا ويورا : « كفى حديثا ، فان هذا يضر بك ! » .

— هراء ، فانها انا بخير تماما . وبهذه المناسبة ، لقد اخبرتنى « يوجوروفنا » بانكما كنتما غير مرتاحين إلى الذهاب إلى تلك الحفلة التى ستقام بعد غد ، ولست احب ان اسـمع مثل هذا السخف مرة اخرى .. يجب ان تخجلا من نفسيكما ! .. أفتسمى نفسك « دكتور » يا يورا ؟ ! .. إذن، انتهينا من هذا الامر ، وسوف تذهبان ، وكفى ! .. والآن ، لنعـد إلى « باكوس » .. لقد كان فى صباه حدادا ، وقد زج بنفسه مرة فى شجار ، فاتلف جوفه ، فصنع لنفسه امعاء من حـديد ..

على رسلك يا يورا ، لا تكن غبيا ، فاننى ادرك ـ طبعا ـ ان هذا لم يكن صحيحا ، وإننا يجب ان لا نصدق كل كلمة يقولها .. على انه اعتاد ان يقول للناس ذلك !

وقطعت عليها الحديث نوبة اخرى من السعال ، اطول من سابقتها بكثير ، فظلت تسعل وتسعل دون ان تقوى على التقاط انفاسها . واسرع إليها يورا وتونيا ، فوقفا كتفـا إلى كتف بجوار سريرها .. وتلامست يداهما . وامسكت « آنا » باليدين فى راحتهـا ، وهى لا تزال تسـعل ، واستبقتهمـا متشابكتين لحظة . حتى إذا استطاعت ان تتكلم، قالت : « إذا قدر لى ان اموت ، فابقيا معا . لقد خلق كل منكما للآخـر ، فتزوجا ! » . وارتفع صوتها ، وهى تردف : « ها قد خطبت كلا منكما للآخر ! » . ثم انخرطت فى البكاء .

— ٥ —

● فى حوالى ربيع سنة ١٩٠٦ ـ قبل ان تبلغ « لارا » الفصل الأخير فى مدرستها ـ كانت الأشهر الستة التى قضتها على اتصال بكومارونسكى قد ذهبت بكل ما لديها من طاقة على الاحتمال . فقد كان داهية فى استغلال بؤسها ، وكان يذكرها ـ عندما يحلو له ـ بعارها ، دون ان يبدو عليـه انه كان يعتمد ذلك . وكانت هذه التلميحات تهوى بها إلى الارتبـاك والحيرة اللذين يحتاج اى فاجر إلى ان يلقى بامراة إليهمـا ، ليتركها عاجزة عن ان تقاوم كابوسا من الشهوانية لا تستيقظ منه إلا لتستسلم إلى الخوف والفزع .. كان العالم المختبـل المتناقض الذى راحت «لارا» تعيش فيه لياليها، عالما غامضـا، مبهما ، كانه سحر خبيث اسود .. كان كل شىء فيه مقلوبا

راسا على عقب ، وعلى نقيض كل منطق . فكان الألم الحاد يعلن عن نفسه بسيل من الضحكات الرنانة، وكانت المقاومة والصد يعنيان الخضوع والانصياع ، والقبلات التى تغرق يد الرجل الذى كان مصدر كل عذاب !

وكانما لم تكن ثمة نهاية لكل هذا . ولكن حدث فى ذلك الربيع ان « لارا » ، وهى تجلس فى درس التاريخ شاردة الذهن ، تفكر فى العطلة الدراسية التى كانت تقترب ، وفى ان المدرسة والبيت لن يعودا يقفان بينها وبين كوماروفسكى . . إذا بها تهتدى - فجاة - إلى قرار بدل مجرى حياتها باسرها ! . . كان اليوم حارا ، وفى الجو نذر عاصفة تتاهب . ومن خلال نوافذ حجرة الدرس ، كان ضجيج المدينة ينساب مقبلا من بعد كانه طنين رتيب كطنين خلية من خلايا النحل ، تتخلله صرخات اطفال يلعبون فى الساحة الخارجية . . وعبير الأرض المعشوشبة واوراق الشجر الحديثة النبت يهفو براسها كما تهفو رائحة فطائر عيد الصوم الكبير و « الفودكا » براس الصائم !

وكان الدرس عن حملة نابليون على (مصر) . فلما وصل المدرس إلى معركة « فريجوس »(١) ، اسودت السماء ، وانبثق البرق وقصف الرعد ، واندفعت إلى الحجرة سحب من الغبار والرمل ، وفى اعقابها عبير المطر . واندفعت فتاتان

(١) فريجوس Fréjus : بلدة فى جنوبى شرقى فرنسا ، بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ، ولعل اتصالها بالحملة الفرنسية انها كانت من نقاط التقاء الاسطول الفرنسى بالاسطول الانجليزى الذى كان يراقبه .

- ممن اعتدن مداهنة المدرسين - إلى خارج الحجرة لتناديا خادما يغلق النوافذ . فلما فتحتا الباب ، اطارت الريح ورق النشاف عن الأدراج جميعا . . وما لبثت النوافذ ان اغلقت . ثم انهمر المطر مدرارا ، محملا بالغبار . ومزقت « لارا » ورقة من كراستها ، وكتبت فيها لجارتها ناديا كولوجريفوف : « ناديا ، إننى اريد ان اعيش بعيدا عن امى . ساعدينى فى الحصول على عمل كمعلمة ، بافضل اجر ممكن ، فانت تعرفين كثيرا من الاغنياء » .

وكتبت ناديا الرد قائلة : «إن ابى وامى يبحثان عن مربية لأختى ليبا ، فلماذا لا تاتين للاقامة معنا ؟ . . إنها لفكرة بديعة ، فانت تعرفين مدى ولعهما بك » .

- ٦ -

● وقضت «لارا» ثلاث سنوات لدى آل كولوجريفوف ، آمنة مطمئنة ، وكانها فى معقل حصين . فما ضايقها احد ، بل إن امها واخاها - اللذين قطعت ما بينها وبينهما من وشائج - ابتعدا عن طريقها .

وكان كولوجريفوف رجل اعمال من طراز جديد ، شديد الذكاء وكان يزدرى النظام المتداعى ويكرهه كراهية مضاعفة، بوصفه غنيا اوتى اكثر مما فى خزانة الدولة ، وبوصفه شخصا ارتفع من ادنى اصل إلى مكانة خيالية . فكان يأوى المجرمين السياسيين فى داره ، ويوكل المحامين للدفاع عنهم . وقيل عنه - على سبيل المزاح - إنه كان يعين الثورة ماليا ، وكان يجرد نفسه من ثرائه بأن يثير الإضرابات فى مصنعه ! . . ولما كان مغرما بالرماية ، ومن امهر الرماة ، فإنه كان يقضى ايام الأحد

— طيلة شتاء سنة ١٩٠٥ — فى غابة (سيربريانى) يدرب دعاة القلاقل على إطلاق البنادق .

كانت زوجته « سيرافيما » ذات شخصية رائعة ، من نوع جديد — هى الأخرى — كزوجها . وقد تعلقت بهما «لارا»، كما احبها اهل البيت كله ، من اعماق قلوبهم .

وبعد ثلاث سنوات من هذه الحياة الخالية من الهموم ، تلقت « لارا » زيارة من اخيها « روديا » ، الذى اقبل لمقابلتها فى مسألة تهمه . وراح يتارجح على ساقيه الطويلتين ، إلى امام وإلى خلف ، فى اسى .. ولكى يضاعف من تاثرها لحاله ، اخذ يتكلم من انفه ، فاخبرها ان زملاءه فى سنته الدراسية بالاكاديمية الحربية جمعوا فيما بينهم مبلغا ليبتاعوا هدية وداع لناظر الاكاديمية ، وعهدوا بهذا المبلغ إليه، موكلين إليه اختيار الهدية وابتياعها . فما كان منه إلا ان قامر بالمبلغ فخسره — قبل يومين — إلى آخر « كوبيك » منه ! .. وإذ اخبر « لارا » بكل هذا ، ارتمى فى احد المقاعد ، واجهش بالبكاء .

وجمدت أطراف لارا استنكارا واشمئزازا . واستطرد روديا قائلا خلال نشيجه : « لقد ذهبت ليلة امس لمقابلة السيد كوماروفسكى ، فرفض أن ينصت إلى ، ولكنه قال إنك إذا كنت ترغبين فى العودة إليه ، فإن سلطانك عليه لا يزال قويا جدا ، رغم انك قد كففت عن حبنا ! .. لارا ، يا حبيبتى .. كلمة منك تكفى .. إنك لتدركين اثر هذا الأمر بالنسبة لى ، وما فيه من عار يلطخ شرفى كطالب عسكرى .. اذهبى إليه ، مهما يكلفك هذا .. ما احسبك تحبين ان يصيب حياتى .. ».

فقاطعته فى استنكار وهى تذرع الحجرة : « حياتك .. شرفك كطالب عسكرى! .. وبما اننى لست طالبة عسكرية، فليس لى شرف ، ولكما ان تفعلا بى ما تشاءان ! .. او تدرك معنى ما تطلبه منى ؟ .. او تفطن إلى ما يحملك على ان تفعله ؟ .. إننى اجتهد واعمل كالجارية — بعيدا عنكم — سنة بعد سنة ، فماذا بك تاتى، وتجلس امامى، دون ان تحفل بما إذا كان كل ما بنيت يذهب بددا ، ويطير مع الرياح . الا اذهب إلى الجحيم ! .. اذهب فاقتل نفسك . ففيم يعنينى هذا ؟ .. كم تريد ؟ » .

فقال : « ستمائة روبل واكثر .. » .. ثم أردف بعد قليل من التردد : « بل سبعمائة روبل تماما ! » .

— لا بد انك مجنون يا روديا ! .. هل تعى ما تقول حقا ؟ .. احقا قامرت بسبعمائة روبل واضعتها ؟ .. اتدرك كم من الزمن يحتاج إليه شخص مثلك كى يكسب مبلغا كهذا بعمل شريف ؟

واعرضت عنه محنقة . ثم قالت ببرود — بعد برهة — وكانها تخاطب شخصا غريبا عنها : « لاباس ، ساحاول . تعال غدا . واحضر معك مسدسك .. المسدس الذى كنت تعتزم ان تقتل به نفسك . لسوف تسلمنيه ، ومعه كمية كافية من الرصاص .. تذكر هذا ! » .

وحصلت له على النقود من .. كولوجريفوف .. مخدومها !

- ٧ -

● لم يحل العمل لدى آل كولوجريفوف دون ان تتم « لارا » دراستها فى المدرسة ، وان تبدأ دراسة جامعية ، مضت فيها موفقة ، وكان من المقرر ان تتخرج فى العام التالى .. سنة ١٩١٢ . وكانت تلميذتها « ليبا » قد اتمت دراستها فى ربيع سنة ١٩١١ ، وخطبت إلى مهندس يدعى « فرايسندانك » . وكان شابا ميسور الحال ، من اسرة طيبة . ولقد وافق ابواها على خطبتها ، ولكنهما عارضا زواجها فى مثل تلك السن المبكرة . فاقامت « ليبا » — مدللة الأسرة وحبيبتها العنيدة — الدنيا واقعدتها ، وراحت تصرخ فى ابويها ، وتدق الأرض بقدميها .

ولم يكن احد قد ذكر « لارا » — وهى تعيش بين افراد هذه الأسرة الغنية كفرد منهم — بما عليها من دين ، بل لعل احدا لم يكن يتذكره . لقد كانت خليقة بأن تسدده منذ زمن ، لولا نفقاتها التى كانت تتكبدها فى السر . فلقد كانت — بدون ان يعلم «باشا» — ترسل نقودا إلى ابيه فى سيبريا ،وتساعد امه الدائمة المرض والشكوى ، وتساهم فى تخفيف نفقاته بأن تدفع — مباشرة — جزءا من اجر مسكنه وقوته إلى صاحبة النزل الذى كان يقيم فيه !

بل كانت هى التى حصلت له على غرفة فى المبنى الجديد بشارع (كاميرجر) ، بالقرب من مسرح الفنون .

كان باشا يصغرها بقليل ، لكنه كان متيما بحبها ، وكان يصدع باتفه رغباتها . وبعد ان تخصص فى العلوم — فى

المدرسة الثانوية — تحول بناء على مشورتها إلى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، ليحظى بشهادة فى الآداب . وكان حلمها ان يستطيعا — بعد ان يتخرجا معا فى العام التالى — ان يتزوجا ، وان ينزحا إلى إحدى العواصم فى اقاليم جبال (أورال) ليعملا فى التدريس .

وفى صيف سنة ١٩١١ ، رافقت « لارا » اسرة كولوجريفوف — للمرة الأخيرة — إلى (دوبليانكا) . وكانت تعجب بالمكان ، بل إنها كانت اكثر شغفا به من اصحابه . وقد تبينوا ذلك ، فاصبح النزوح إلى هناك فى الصيف عادة مستتبة .. وعندما لفظهم القطار الساخن الكئيب فى المحطة ، وبينما كان متاعهم ينقل إلى عربة ، اتخذوا هم مجالسهم فى المركبة ، واخذوا يصغون إلى حوذى الضيعة — فى قميصه الأحمر وسترته التى لم يكن لها كمان — وهو يروى لهم انباء الموسم فى المنطقة .. اما « لارا » فقد اذهلها سكون الريف الناعس، العميق ، الزكى الأريج، فآثرت أن تمضى إلى البيت على قدميها .

وكان الدرب الذى مهدته اقدام القاصدين وعابرى السبيل يسير بمحاذاة السكة الحديدية ، ثم ينحرف إلى الحقول . وعند هذا الانحراف ، وقفت « لارا » واغمضت عينيها ، وجذبت الهواء بقوة إلى رئتيها ، محملا بكل روائح الريف الساحر . لقد كان هذا الريف اعز لديها من اهلها ، وافضل من حبيب ، واوفر حكمة من كتاب ! واكتشفت من جديد معنى حياتها ، للحظة واحدة .. لقد كانت على الأرض لتفهم لكل فتنة من مفاتن الأرض الخشنة معنى عميقا، ولتدرك

كل شيء على حقيقته .. او لتنجب خلفاء يؤدون هـذا عنهـا — إذا لم يكن في وسعها — حبا في الحياة !

وكانت قد اقبلت — في ذلك الصيف — مرهقة منهوكة من جراء الواجبات الكثيرة التي اضطلعت بها . فكانت سريعـة الاضطراب والتهيج ، تتألم وتتأذى من اتفـه الأمور . وكانت هذه الحساسية الجامحة شيئا جديدا عليها ، منافيا لطبيعتها التي كانت فذة في كرمها وتسامحها وإدراكها! .. ولقد كان آل كولوجريفوف على عهدهم بالتعلق بها ، راغبين في أن تمكث معهم ، ولكنها اصبحت — بعد إذ كبرت « ليبا » — ترى أنه لم يعد لهافي البيت مكان . ومن ثم ابت أن تتقاضى اجرها ، حتى اضطروا إلى ان يغصبوها على ان تأخذه . وفي الوقت ذاته ، كانت في حاجة إلى النقود ، ولم يكن لها من سبيل آخر إليها ، إذ لم يكن من الميسور — بل كان من المستحيل عمليا — أن تكتسب مالا من مصدر آخر ، وهي تعيش ضيفة عليهم !

وكانت تعتقد أن مركزها بينهم زائف لا يطـاق ، وتخال انهم كانوا جميعا يعتبرونها عبئا ، ولكنهم كانوا يكتمون ذلك في نفوسهم، ويتظاهرون امامها بغير الحقيقة .. بل إنها كانت عبئا على نفسها ، وكانت تتوق إلى أن تجرى هاربة من نفسها ومن آل كولوجريفوف — على السواء — بأسرع ما كانت ساقاها تمكنانها . على أنه كان لزاما عليها أولا — كمـا اوحت إليهـا افكارها — أن ترد النقود التي كانت قد اقترضـتها ، ولم تكن — في الوقت ذاته — ترى سبيلا إلى ذلك . ومن ثم اصـبحت تشعر بأنها اشبه برهينة ، بفضل غلطة « روديا » الحمقاء ، فكانت تفرى قلبها بغيظ مستيئس !

وتحت ضغط هذا الإرهاق العصبي ، اصبحت تتشمم الإهانات في كل لفتة . فإذا اولاها اصـدقاء آل كولوجريفوف اعتناء ، وقر في نفسها انهم يرونها « جارية » ذليلة ، وفريسـة ميسورة المنـال .. وإذا تركوها وشـأنها ، كان ذلك — في نظرها — دليلا علىأنهم لا يشعرون بوجودها !

على ان نوبات الوسوسة هذه لم تكن تحول بينها وبين ان تشاطرهم ملاهيهم . فقد كانوا ينظمون حفلات عائلية رائعـة طيلة الصيف ، فكانت تذهب للسباحة والتجديف ، ولنزهـات منتصف الليل بجوار النهر ، وكانت ترقص وتطلق صـواريخ الألعاب النارية معالباقين . كذلك كانت تشترك في التمثيليات، وتساهم — بحماس اكثر — في مباريات الرماية ، التي كانت بنادق « ماوزر » القصـيرة تستخدم فيهـا . وكانت تحسن التصويب إلى الهدف ، وإن كانت تفضـل مسـدس روديـا الخفيف ، في المران . وكانت تضحك قائلة : « مما يرثى له انني امرأة ، وإلا لطار صيتي كمبارز ماهر ! » . ولكنها كانت كلما امعنت في نشدان التسرية ، ازدادت وعيا وإدراكا لمـا كانت تبغي ، ومن ثم ازدادت شعورا بالتعاسة !

وقد ازداد الأمر سوءا عندما عادوا إلى المدينة ، بعد العطلة . إذ اضيف إلى هموم «لارا» امور ساءتها من «باشا»، وإن حرصت على ان لا تذهب إلى حد الشجار معه ، إذ كانت ترى فيه ملاذها الأخير . فقد شرع « باشا » يبدي شـيئا من الثقة بنفسـه ، واخذت احاديثه تتسـم بشيء من التوجيـه والإرشاد ـ وكأنه معلم وهي تلميذة ـ مما كان يلذ لها ويغيظها في الوقت ذاته !

وهكذا اصبحت همومها جميعا — « باشا » و « ليبا » و « آل كولوجريفوف » والمال — تدور فى راسها كالدوامة ، حتى سئمت الحياة وكرهتها .. كانت هذه الدوامة تدفع بها نحو الجنون ، فاصبحت تتمنى لو انها استطاعت أن تتحرر من كل ما عرفته أو خبرته من قبل ، وأن تشرع فى حياة جديدة لم يسبق لها ان جربتها . وانتهت بها هذه الحال — فى عيد الميلاد من سنة ١٩١١ — إلى قرار يتعلق بمصيرها ومستقبلها . ذلك هو ان تغادر آل كولوجريفوف لفورها .. فى الحال ! وان تبدأ حياة مستقلة .. وأن تحصل على المال اللازم لذلك من كوماروفسكى ! .. فقد تراءى لها — بعد كل ما كان بينهما ، وبعد سنوات الاستقلال التى ظفرت بها لنفسها — انه خليق بأن يرى من الشهامة أن يساعدها دون أية مطالب ، أو استفسارات ، أو شروط !

وإذ عقدت عزمها على ذلك ، انطلقت صوب شارع (بيتروفكا) ، فى مساء اليوم السابع والعشرين من ديسمبر ، وقد استقر فى الفراء المحيط بيديها ذلك المسدس الذى اخذته من « روديا » ، وقد ملىء بالرصاص ، ورفع صمام الأمن عن زناده . فقد اعتزمت ان تقتل كوماروفسكى إذا هو رفض ، او اذلها وحقرها بأية طريقة !

وسارت فى الطرقات التى سادها طابع العيد ، وهى فى افظع حالات الانفعال ، لا ترى شيئا مما كان يصادفها ، ولا تشعر إلا بالرصاصة التى كانت قد غدت — فى دخيلتها — فى حكم الأمر الواقع ، وكأنها أطلقت فعلا ! .. ولم يكن قلبها ليحفل البتة بالهدف الذى كانت هذه الرصاصة مسددة إليه

.. بل لقد كانت تسمع دويها طيلة سيرها نحو شارع (بيتروفكا) ، وتخالها منطلقة إليها هى ، وإلى مصيرها ، وإلى الهدف الخشبى الذى كانت تتدرب عليه فى مروج (دوبليانكا) ، وإلى « كوماروفسكى » .. فى وقت واحد !

— ٨ —

● وإذ تقدمت « إيما إيرنستوفنا » تساعدها على خلع معطفها ، هتفت بها : « لا تمسى فراء يدى ! » .. وكانت العجوز قد تلقتها بسيل من « أواه » و « آه » ، وراحت تنبئها بأن « فيكتور إيبوليتوفيتش كوماروفسكى » كان فى الخارج ، وتدعوها إلى أن تستريح فى انتظار عودته .

وقالت لارا : « لا استطيع ، فاننى فى عجلة من أمرى .. اين هو ؟ » .

لقد كان فى حفلة اقيمت بمناسبة عيد الميلاد . وتناولت « لارا » من العجوز قصاصة تحمل العنوان ، ثم هرعت تهبط درجات السلم المعتم المألوف ، وانطلقت إلى دار آل « سفينتيتسكى » بشارع (موشنوى جورودوك) . ولم تلتفت إلى المدينة ، أو تلق نظرة على ليل الشتاء الجاثم ، إلا عندما خرجت إليهما للمرة الثانية . فاذا الليل قارس البرودة ، وإذا الشوارع مكسوة بطبقة سميكة سوداء من الجليد ، ذات لمعان خاب ، كقيعان زجاجات البيرة المهشمة ! .. وآلمها الهواء ، فقد كان مشبعا بالصقيع الأسمر ، وكان يلسع وجهها ويخزه كما يفعل وبر الفراء الخشن .

وسارت فى الطرقات الخالية ، وقلبها يدق فى عنف .. ومرت بأبواب المطاعم الرخيصة التى كان البخار ينبعث منها .. وطالعتها فى ضباب الصقيع وجوه حمراء كالسجق ، ورؤوس جياد وكلاب احاطها الصقيع بما يشبه اللحى النامية فى انتظام .. وكانت نوافذ الدور — التى ختم عليها الثلج والجليد — تبدو بيضاء ناصعة ، تلوح خلف زجاجها السميك اشجار عيد الميلاد ذات الأضواء ، واطياف الهائنين من المحتفلين ، وكأنها رؤى فى مناظر تعرض بالفانوس السحرى على قارعة الطريق .

وإذ مرت بالمبنى الذى كان « باشا » يقيم فيه ، بشارع (كاميرجر) ، وقفت واوشكت ان تتداعى . وقالت تحدث نفسها بصوت كاد ان يكون مسموعا : « ليس بوسعى ان امضى. إننى لا احتمل هذا.. سأصعد واروى له كل شىء!». واستجمعت جراتها ، ودخلت المبنى خلال البابين الضخمين الحافلين بالزخارف .

— ٩ —

● كان « باشا » يقف امام المرآة محتقن الوجه، قد راح لسانه يضغط شدقه من الداخل ، وهو يجاهد كى يثبت ياقة إلى عروة قميصه المنشى ، بزر صغير ، إذ كان يتاهب للذهاب إلى حفلة . وكان من السذاجة بدرجة انه ارتبك إذ دخلت عليه «لارا» دون ان تطرق الباب، ولم يكن قد استكمل ارتداء ثيابه. ولكنه لاحظ انفعالها لفوره ، فقد كانت لا تكاد تقوى على ان تظل مستوية على قدميها . ودنت منه وهى تدفع ذيل ثوبها

جانبا — فى كل خطوة — وكأنها تخوض جدولا صغيرا. فأسرع إليها قائلا : « ماذا بك ؟ .. ماذا جرى ؟ » .

— اجلس بجوارى .. اجلس ، ولا تحفل بانك لم تستكمل ارتداء ثيابك ! .. فانا فى عجلة ، ولا بد لى من ان انصرف بعد لحظات .. لا تمس فراء يدى ! .. انتظر ، ولا تنظر إلى للحظة .. ادر وجهك للناحية الأخرى !

وإذ اطاعها ،خلعت « لارا » معطفها ، ودست المسدس فى جيبه ، ثم علقته إلى مشجب . وعادت ثانية إلى الأريكة ، قائلة : « بوسعك الآن ان تنظر إلى .. اوقد شمعة ، واطفىء النور الكهربائى ! » . فلقد كانت مولعة بالحديث فى العتمة ، على ضوء شمعة .. وكان « باشا » يحتفظ ببعض الشموع ، فتناول واحدة منها ووضعها فى حامل على حافة النافذة ، واشعلها . وارتعش اللهب واختلج مرسلا بعض شرر واهن ضئيل ، ثم اشتد واعتدل واستقام ، وإذا الحجرة تمتلىء بنور هادىء لطيف . وذاب الثلج المتراكم على زجاج النافذة — فى مستوى اللهب — تاركا ثغرة سوداء ، كأنها مرقب تختلس خلاله نظرات مسترقة .

وقالت لارا : « اسمع يا باشا .. إننى فى محنة ، ولا بد لك من ان تساعدنى ! .. لا تجزع ، ولا تسلنى ! .. لا يخطرن ببالك قط إننا مثل غيرنا من الناس، ومن ثم فاصغ إلى ما سوف اقول لك : إننى فى خطر دائم ، فإذا كنت تحبنى ، وإذا لم تكن راغبا فى هلاكى ، فعليك ان لا ترجىء زواجنا ! » . فصاح باشا : « ولكن هذا عين ما كنت ابغى دائما ! .. إننى على استعداد لأن اتزوجك فى اى يوم تشائين . ولكن ، نبئنى بما



خلعت « لارا » معطفها ، ودست المسدس فى جيبه ، ثم علقته الى مشجب . وعادت ثانية الى الاريكة ..

يكريك ، ولا تعذبينى بالأحاجى والألغاز ! » . غير أن لارا راغت من سؤاله ، مغيرة موضوع الحديث ، فظلا يتكلمان فترة طويلة ، فى أمور لا شأن لها بهمها وأساها !

– ١٠ –

● كان يورا منهمكا – فى ذلك الشتاء – فى إعداد رسالة عن الجهاز العصبى للعين ، لينال بها « الميدالية » الذهبية للجامعة . ومع انه كان قد حصل على إجازة الطب العام ، إلا انه اكتسب دراية تشبه التخصص بتركيب العين وطبيعة الإبصار . فقد كان شغفه بها يتمشى مع النواحى الأخرى لشخصيته : مع مواهبه الخلاقة ، ومع اهتمامه بالعلاقة بين الخيال فى الفن ، والتركيب المنطقى للأفكار !

وانطلق فى تلك الليلة مع « تونيا » – فى زحافة مستاجرة – إلى دار « سفنتيتسكى » .. كان كل منهما – بعد ست سنوات من اليفاع والمراهقة ، قضياها فى بيت واحد – قد عرف كل شىء عن الآخر ، وعن عاداته وآرائه والضحكة الساخرة التى يستقبل بها فكاهاته .. كما الفا الصمت الذى كثيرا ما كانا يخلدان إليه وهما معا . وكانا مستسلمين فعلا لهذا الصمت وهما ينطلقان فى الزحافة ، وقد انصرف كل منهما إلى أفكاره الخاصة ، وأطبق شفتيه اتقاء للبرد ! .. أما « يورا » فكان يفكر فى المسابقة التى يعد لها رسالته ، وفيما كان ينبغى عليه من جد فى هذا الإعداد . ثم استلفت انتباهه صخب العيد ، والنشاط الذى دب فى الطرقات ، فقفز فكره إلى أمور

اخرى .. كان قد وعد جوردون بمقال عن « بلوك »(١) لصحيفة الطلبة التى كان يراس تحريرها ، والتى كانت تطبع على « الكوبيا » . فقد كان الشبان فى العاصمتين متهوسين حماسا لـ « بلوك » ، وكان يورا وجوردون — بالذات — مجنونين به . ومع ذلك ، فإن هذه الفكرة لم تشغل باله طويلا ، إذ تقفز ذهنه إلى غيرها .

وظلت الزحافة ماضية بهما ، وقد دس كل منهما ذقنه فى ياقة ثوبه ، وراحا يفركان آذانهما المتجمدة من البرد ، وهما مستغرقان فى افكارهما .. على ان ثمة فكرة معينة طرقت ذهنيهما معا ، فى وقت واحد : كان ما وقع إلى جوار فراش « آنا » قد غير كلا منهما فى عينى الآخر ، وكأنهما لم يحظيا بنعمة الإبصار إلا إذ ذاك فقط !

فبالنسبة إلى « يورا » ، كانت « تونيا » — صديقته الحميمة — تبدو حتى ذلك الحين جزءا من حياته ، لا يحتاج وجوده إلى تبرير او إيضاح ، لانه امر طبيعى .. ولكنها اصبحت فجأة — بعد حديث آنا — اشد المخلوقات التى يستطيع ان يتصورها إبهاما واستغلاقا عليه .. اصبحت امراة ! .. وكان بوسعه إذا ارخى العنان لخياله ان يتصور نفسه إمبراطورا ، او بطلا ، او نبيا ، او فاتحا .. ولكنه ابدا لم يكن يملك أن يتصور نفسه امراة ! .. وإذ اخذت تونيا هذا العبء السامى ، البالغ الصعوبة ، على كتفيها الرقيقتين ،

(١) الكسندر الكسندروفيتش بلوك (١٨٨٠ — ١٩٢١) كان اعظم الشعراء الرمزيين فى روسيا »

وكانت قد بدات تبدو لعينيه هشة رقيقة ، برغم أنها كانت موفورة الصحة — فقد امتلأ قلبه بعطف متاجج، وبحيرة خجلى .. وهما اولى إمارات الوجد !

ولم يكن التغير فى مسلك « تونيا » نحو « يورا » باقل عمقا من مقابله لدى يورا .. ولقد خطر ليورا انه ما كان لهما ان يغادرا البيت ، برغم كل شىء ، فقد كان قلقا من اجل « آنا » . وقد سمعا — وهما موشكان على الخروج — أنها لم تكن على ما يرام ، فذهبا إلى مخدعها ، ولكنها امرتهما بأن يسرعا إلى الحفلة ، بنفس اللهجة الحادة الحاسمة التى امرتهما بها من قبل . ثم تساءلت « ما حال الطقس الآن ؟ » . فذهبا إلى النافذة واطلا منها، وفيما كانا عائدين، تعلقت الستار الخفيفة النسيج بثوب تونيا الجديد ، فبدت كخمار العروس فى الزفاف .. لكم ضحكوا جميعا ، إذ كان الشبه كاملا إلى درجة عجيبة !

والتفت « يورا » حوله ، فرأى ما كانت « لارا » قد رأته قبل ذلك ، فى الليلة ذاتها .. كان احتكاك الزحافة بالجليد يحدث صفيرا عاليا ، غير عادى ، يجاوبه صدى طويل ، غير طبيعى ، من الأشجار المتشحة بالثلج ، على جوانب الطرق والميادين .. وكانت الأضواء المتألقة داخل الدور — والظاهرة خلال زجاج النوافذ المغلقة — تبدى البيوت كخزائن ثمينة من ياقوت غير صافى اللمعان .. وفى داخل هذه الخزائن ، كانت حياة موسكو فى ليلة عيد الميلاد تتألق : فالشموع مشتعلة فوق أشجار العيد ، والضيوف يدورون راقصين ، ويرتكبون الحماقات، ويلعبون لعبة الاستخفاء، وهم فى ملابس طريفة..

وخطر ليورا ان «بلوك» كان مظهرا لعيد الميلاد فى حياة الفن فى روسيا الحديثة .. عيد الميلاد فى حياة هـذه المدينة من مدن الشمال .. عيد الميلاد فى شوارعها الحديثة ، تحت سمائها المرصعة بالنجوم ، وتحت الأشجار المرصعة بالأنوار فى « صالوناتها » المؤثثة على طراز القرن العشرين الحديث .. وشعر «يورا» بأن لا حاجة به إلى أن يكتب مقالا عن «بلوك» ، إذ كان يكفيه ان ينقل لوحة لتعبد المجوس(١) عن الطراز الهولندى ، وان يضفى عليها طابعا روسيا ، ويدخل عليها منظر الثلوج ، والذئاب ، وغابة مظلمة من أشجار الشربين !

وفيما كانا يجتازان شارع (كاميرجر) ، لاحظ « يورا » ان شمعة اذابت رقعة من الجليد على زجاج إحدى النوافذ ، فبدا الضوء منسابا خلال الثغرة كأنه نظرة متربصة ، وكأنما كان اللهب يراقب المركبات المارة ، مرتقبا شخصا معينا . فهمس لنفسه : « سمعة تحترق على المنضدة.. شمعة تحترق .. » ، وراحت تتردد فى ذهنه الكلمات الأولى ، غير المنتظمة ولا الواضحة ، لقصيدة شعرية .. وراح يرجو ان تنتظم القصيدة من تلقاء ذاتها ، ولكنه لم يحظ بأكثر من تلك الكلمات .. بوضعها ذاك !

— ١١ —

● كان ثمة تقليد متبع فى حفلات عيد الميلاد ، لدى آل سفنتيتسكى ، منذ زمن لا تعيه الذاكرة . ففى الساعة العاشرة تضاء شموع شجرة عيد الميلاد مرة اخرى ـــ بعد ان يكون

(١) قصة المجوس الذين اقبلوا على بيت لحم عند مولد المسيح .

الأطفال قد انصرفوا ـــ لتبدأ الحفلة من جديد بالنسبة للشباب والكبار ، فتستمر حتى الصباح . وكان المسنون يقضون الليل كله فى لعب الورق ، فى حجرة الجلوس المؤثثة على الطراز « البومبى » ، وقد فصلت بينهم وبين قاعة الرقص ستائر ثقلية تتدلى من حلقات برونزية . فاذا كان الفجر ، تناول الجميع طعام الإفطار معا .

وتساءل « جورجى » ـــ ابن اخت سفنتيتسكى ـــ وهو يهرع عبر البهو الأمامى للدار ، فى طريقه إلى مخدعى خاله وزوجة خاله ، فى القسم الخلفى من المسكن . « لماذا تأخرتما ؟ » . ولم يجب يورا ولا تونيا ، بل خلعا معطفيهما وقبعتيهما ، ثم اطلا على قاعة الرقص ، قبل ان يذهبا لتحية اهل الدار . وكان الذين انصرفوا عن الرقص ـــ من الضيوف ـــ يرفلون فى ثيابهم ، ويدوس بعضهم اقدام بعض ، وهم يخطرون فى القاعة ويتجاذبون أطراف الحديث ، متحركين كحاجز أسود يحجب شجرة عيد الميلاد ذات الأنفاس الحارة ، وقد تناثرت فيها الأضواء طبقة فوق طبقة .

وفى وسط القاعة ، كان الراقصون يدورون مبهورى الأنفاس ، يقسمهم إلى ازواج او إلى حلقات طالب شاب يدرس القانون ، ويدعى « كوكا كورناكوف » ، كان ابن أحد مساعدى النائب العام .. وكان قد اضطلع بمهمة تبديل الرقصات ، فكان يصيح بأعلى صوته فى الحجرة : « الدورة الكبرى » ، او « الحلقة الصينية » . فكانوا يستجيبون جميعا لأوامره .. وصاح اخيرا فى عازف البيانو : « فالس ، من فضلك ! » .. ثم قاد زميلته فى الرقص ـــ على رأس الحلقة

الأولى — وراح يدور بها . وما لبثت سرعة الدوران ان خفت تدريجا ، واخذت الدورات تضيق شيئا فشيئا ، حتى لم يعد فى الوسع تبين شىء من اتساق الحركات مع ما تبقى من اصداء « الفالس » المحتضر . وصفق الجميع ، واديرت على الجمع الصاخب ، الذى لم يكد يكف عن الحركة ، اقداح المثلجات .. ولم يكف الفتية والفتيات الحمر الوجوه — من جراء الرقص — عن الصياح والضحك ، وهم يحتسون شراب التوت البرى والليمون المثلج . وفى اللحظة التى وضعوا فيها اقداحهم على الصحاف ، اشتد الضجيج عشرة امثال ما كان ، وكأنهم قد احتسوا شرابا اذكى من مرحهم ..

ولم تقف تونيا ويورا عند قاعة الرقص ، بل واصلا سيرهما إلى حيث كان مضيفاهما ، فى الطرف الأقصى للمسكن.

— ١٢ —

● وكانت الحجرات الخلفية مكدسة بالأثاث الذى نقل من قاعتى الرقص والجلوس .. هنا كان آل سفنتيتسكى قد احتفظوا بمركز الإعداد لحفلة عيد الميلاد . بالمطبخ السحرى . فكان ثمة عبير طلاء وصمغ ، واوراق مونة للف ، وعلب للهدايا ، وشموع ، وقد تناثرت كلها على المقاعد . وكان سفنتيتسكى وزوجته منهمكين فى كتابة الأسماء على بطاقات لتوضع على الهدايا وعلى المقاعد حول مائدة العشاء ، وفى توزيع ارقام لإجراء سحب « يانصيب » ، يساعدهما فى ذلك « جورجى » الذى كان لا ينى يخطىء فى العد ، ويرتبك ، فيتلقى منهما زمجرات مغتاظة . وكان اغتباط الزوجين بالغا لمقدم تونيا

ويورا ، فقد كانا يعرفانهما مذ كانا طفلين ، وسرعان ما أشركاهما فى عملهما دون ما كلفة .

— إن « فليتساتا سيميونوفنا » لا توافق على أن هذا كله كان خليقا بأن يعمل مقدما ، وليس فى اثناء الحفلة ، بعد ان وصل جميع الضيوف .. انظر إلى ما فعلت يا جورجى . إن علب الحلوى الفارغة توضع على الأريكة ، وعلب حلوى اللوز المسكر توضع على المنضدة .. ولكنك وضعت كلا منهما مكان الأخرى !

— لكم يسرنى ان أنيتا العزيزة فى تحسن . شد ما كنت و « بيير » فى قلق !

وقدر ليورا وتونيا ان يقضيا نصف السهرة مع جورجى وسفنتيتسكى وزوجته ، بعيدا عن بقية الضيوف .

— ١٣ —

● وكانت « لارا » — طيلة ذلك الوقت — فى قاعة الرقص . ولم تكن فى ثوب السهرة ، ولا كانت تعرف احدا من الحضور ، ولكنها مكثت برغم ذلك ، وراحت ترقص «الفالس» مع « كوكا » ، مثل شخص اعتاد ان يسير فى نومه ، أو تضرب فى ارجاء القاعة على غير هدى . ولقد وقفت — مرة او اثنتين — خارج قاعة الجلوس ، مترددة ، وهى ترجو أن يلمحها كوماروفسكى الذى كان يجلس فى مواجهة الباب . ولكنه كان يمسك اوراق اللعب امام عينيه ، وكأنها درع صغير .. ولعله لم يفطن إليها ، او ربما كان قد تعمد أن لا يفطن ! وكادت تختنق لفرط كبتها الشعور بالهوان والإهانة . وانتقلت فتاة

ــ لم تكن تعرفها ــ من قاعة الرقص إلى قاعة الجلوس ، فرمقها كوماروفسكى بنظرة أثارت فى نفس لارا الذكريات واغترت الفتاة ، واحمر وجهها ، وابتسمت باغتباط ، وإذ ذاك احتقن وجه لارا استنكارا ، واوشكت أن تصرخ : « ها هى ذى فريسة جديدة ! » ، وقد رات نفسها ممثلة فى شخص الفتاة ، وكأنها ترى صورتها فى مرآة ! .. ولم تنزل عن رغبتها فى الحديث إليه ، ولكنها ارجأتها إلى حين .. إلى لحظة اكثر مناسبة . وتجلدت بالرغم من نفسها ، وعادت إلى قاعة الرقص .

وكان كوماروفسكى يلعب الورق مع ثلاثة رجال . فكان الجالس إلى يساره هو « كورناكوف » ، والد « كوكا » ، ذلك الفتى الظريف الذى عادت « لارا » إلى الرقص معه ــ فهكذا فهمت من الكلمات القلائل التى تبادلتها معه ــ وكانت أم الفتى هى تلك المراة الطويلة، السمراء، ذات الثوب الأسود والعينين المتقدتين والعنق الشبيه بالثعبان ، الذى لم يكن يروق للعين .. ولقد اخذت تروح وتغدو بين قاعة الرقص وقاعة الجلوس ، لتراقب ابنها وهو يرقص ، وزوجها وهو يلعب الورق . وعلمت لارا ــ فى النهاية ــ ان الفتاة التى اثارت فى نفسها احاسيس مبهمة غامضة ، والتى انكرت على كوماروفسكى نظرته إليها ، كانت شقيقة الشاب .. وتيقنت من أن وساوسها ــ إذ خالت أن نظرات كوماروفسكى قد استخفتها ــ لم تقم على أساس .

ولم تكن لارا قد التفت بالا إلى لقب « كوكا » ، عندما قدم إليها نفسه فى بادىء الأمر . ولكنه راح يردده لها وهو يطوح

بها إلى مقعد ــ فى آخر حركة فى « الفالس » ــ بدلا من ان ينحنى أمامها إيذانا بانتهاء الرقصة .. فراح الاسم يتردد فى ذهنها : « كرناكوف .. كورناكوف ! » .. كان يذكرها بشىء ما .. شىء لم يكن يبعث السرور فى النفس .. آه ، هو ذاك، قد تذكرته .. قد كان كورناكوف هو مساعد المدعى العام فى محكمة موسكو المركزية ، وهو الذى القى مرافعة متطرفة التجنى عند محاكمة عمال السكك الحديدية الذين اضربوا ، والذين كان « تيفرزين » بينهم .. وكان كولوجريفوف قد ذهب للدفاع عن تيفرزين ــ بناء على رغبة لارا ــ ولكنه لم يوفق . إذن فهذه جلية الأمر .. بديع ، بديع ، بديع ! .. يا لها من مصادفة غريبة .. كورناكوف !

ــ ١٤ ــ

● كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا تقريبا . واخذت اذنا يورا تطنان .. وكانت قد تخللت الرقص فترة استراحة ، قد فيها الشاى و « البيتى فور » ، ثم عاد الرقص ثانية .. ولم يعد احد يحفل بتغيير الشموع التى راحت تحترق حتى نهايتها على شجرة العيد .

وكان يورا يقف شارد الذهن ، وسط قاعة الرقص ، يرقب تونيا وهى تراقص شخصا غريبا .. واقبلت عليه ، وهزت ذيل ثوبها الحريرى كما تهز السمكة ذيلها ، ثم اختفت .. كانت اسيرة طرب شابه انفعال بالغ ، حتى انها رفضت تناول الشاى ــ اثناء الاستراحة ــ واخذت تطفىء ظمأها بما لا حصر له من ثمار اليوسفى التى راحت تقشرها ثم تمسح

آثارها عن اصابعها وركنى فمها بمنديل فى حجم زهرة الفاكهة. وكانت لا تكف — وهى تضحك وتتكلم بلا انقطاع — عن إخراج المنديل ثم رده إلى الحزام المحيط بخصرها ، او إلى كمها ، او إلى صدر ثوبها المنتفخ .. وإذ مرت بيورا ، وهى تدور مع شريكها المجهول ، ضغطت يد يورا وابتسمت ، وبقى المنديل بين اصابعه هو، فضغطه إلى شفتيه، واغمض عينيه.. وكان المنديل يعبق بعبير يدها وبشذى اليوسفى على السواء !

وكان هذا امرا جديدا على حياة يورا .. فلقد خامره شعور لم يحس به بتاتا من قبل .. شعور حاد ، ثاقب ، اخترم كل كيانه من راسه حتى اصبع قدمه . كانت الرائحة الصبيانية السائجة — رائحة المنديل — اشبه بكلمة ودية ، عاطفية ، تلفظ همسا فى الظلام . فراح يضغط المنديل إلى عينيه وشفتيه ، وقد تاه فى شذاه الرقيق .

وفى تلك اللحظة ، دوى طلق نارى خارج القاعة .. فى البيت !

والتفت كل امرىء ونظر إلى الستار المسدلة بين قاعة الرقص وقاعة الجلوس . وسيطر الصمت لحظة ، ثم اعقبه ضجيج وجلبة . واندفع بعض القوم فى جنبات القاعة يصرخون، بينما جرى بعض آخر خلف « كوكا» إلى حجرة الجلوس التى انبعث منها صوت الطلق ، والتى برز منها اناس آخرون كانوا يبكون ، ويتجادلون ، ويتكلمون جميعا فى آن واحد !

وكان كوماروفسكى يردد فى قنوط : « ما الذى فعلته ؟ .. ماذا فعلت ؟ » .

وراحت السيدة كورناكوف تصرخ فى انفعال تهوسى :
« يوريا ، يوريا ، قل إنك لا تزال حيا ! .. اين الدكتور دروكوف ؟ .. لقد قالوا إنه هنا ، فاين هو ، ايو هو ؟ .. كيف تقول .. كيف تقول إنه ليس سوى خدش ؟ ! .. إن هذا دليل على اننى كنت على صواب دائما ! .. لقد فضح اولئك المجرمون ، وها انتم ترون مدى إجرامهم ! .. اواه يا حبيبى المسكين ، يا شهيد معتقداتك ! ها هى ذى هناك ، السفلة ! لسوف اقتلع عينيك ايتها الساقطة ! لن تفلتى فى هذه المرة ! .. ماذا قلت يا سيد كوماروفسكى ؟ .. كانت تقصدك انت بالرصاصة .. انت ؟ لا ، لا استطيع ان احتمل هذا ، فإن اللحظة اليمة يا سيد كوماروفسكى ، ولست احتمل ان اسمع مزاحا .. كوكا ، يا حبيبى كوكا ! .. هل تصدق انها حاولت ان تقتل اباك .. اجل ، ولكن العناية .. كوكا ، كوكا ! » .

وتقاطر الحشد من قاعة الجلوس إلى قاعة الرقص ، وعلى راسه كورناكوف وقد راح يضحك مطمئنا كل امرىء إلى انه كان بخير ، وهو يمسح — بإحدى منشفات المائدة — خدشا فى يده اليسرى . وتبعهم عدد من الأفراد بدا انهم كانوا يجذبون لارا بينهم من ذراعيها !

وبهت يورا .. ها هى ذى تلك الفتاة مرة اخرى .. ومرة اخرى يراها فى ظروف عجيبة ، غير عادية ! .. وها هو ذا الرجل الأشيب على مقربة منها ، فى هذه المرة كذلك ! .. على ان « يورا » اصبح الآن يعرفه ، فهو ذلك المحامى المبرز كوماروفسكى ، الذى كان له شأن فى النزاع على ضيعة ابيه. ولم تكن به حاجة إلى ان ينحنى تحية له ، فقد تعمد كل منهما

أن يتجاهل معرفة الآخر . والفتاة .. إذن فقد كانت الفتاة هى التى أطلقت الرصاصة ؟ .. أكانت تقصد المدعى ؟ .. لا بد أنها فعلت ذلك لأسباب سياسية ! .. يا للمسكينة ، لقد كانت مقبلة على أوقات عصيبة ! .. ما كان أجملها فى كبريائها وترفعها ! .. ومع ذلك فإن هذين النذلين كانا يجرانها ويلويان ذراعيها ، وكأنهما قد أمسكا لصة !!

ولكنه تبين لفوره أنه كان على خطأ .. كانت « لارا » توشك أن تقع مغشيا عليها ، فأمسكاها وكادا يحملانها حملا إلى أقرب مقعد .. فتهالكت عليه ! .. وسار إليها يورا ليساعدها على مقاومة الانهيار . ولكنه فطن إلى أن من الخير أن يبدى — أولا — شيئا من الاهتمام بالفريسة . فقال لكورناكوف : « هل لى أن أقدم أية معونة ؟ .. إننى طبيب .. أرنى يدك الحق أنك محظوظ ، فإن الخدش لا يكاد يستحق أن يضمد . ومع ذلك ، فلا بأس بنقطة من صبغة اليود .. ها هى ذى فيلتساتا سيميونوفنا ، ولا بد أن لديها بعضا من اليود ! » .

وكانت « فيلتساتا » و « تونيا » مقبلتين نحوه ، وقد غاضت الدماء من وجهيهما ولاحتا مفجوعتين .. وسألتاه أن يدع كل شىء فى الحال ، وأن يرتدى معطفه ، فقد وصلت رسالة من البيت ، ولا بد من الرحيل فورا .. فهرع ليحضر معطفه ، وقد تصور أسوأ الاحتمالات !

— ١٥ —

● ولم يجدا « آنا » على قيد الحياة .. فعندما طويا درجات السلم صاعدين إلى غرفتها ، كانت قد فارقت الحياة

منذ عشر دقائق . وكانت الوفاة ناجمة عن نوبة من نوبات الربو المترتبة على « أوديما » حادة فى الرئتين ، لم يكشفها الفحص فى وقت مناسب .

وراحت تونيا فى الساعات الأولى تصرخ كالمجنونة وتتمرغ على الأرض ، وأصابتها تشنجات لم تتعرف خلالها على أحد ! .. لكنها هدأت قليلا فى اليوم التالي ، وأصغت إلى كلام أبيها ويورا ، وإن لم تجبهما بغير الإيماء ، إذ كان الحزن يغلبها إذا فتحت فمها ، فتصرخ كالمأخوذة ! .. وبين أوقات الصلوات ، كانت تقضى ساعات راكعة بجوار المتوفاة ، وهى تحتضن بذراعيها الجميلتين ركن النعش وحافة المنضدة وأكاليل الزهور التى تغطيه ، دون أن تفطن إلى أحد حولها . ولكن ما إن التقت عيناها بعيون أقرب الناس إليها حتى هرعت وهى تكتم نشيجها إلى مخدعها ، حيث ارتمت على فراشها فدفنت شجنها فى وسادتها .

وتحت وطأة الأسى ، والوقوف ساعات طويلة على قدميه ، والحاجة الماسة إلى النوم ، وتلك الأناشيد التى كانت ترتل بصوت عميق ، والشموع التى يزيغ ضوؤها البصر فى الليل والنهار ، والبرد الذى أصابه وانشب مخالبه فى جسمه .. تحت وطأة هذا كله ، لم يكن غريبا أن يمتلىء يورا بفيض من أسى ولوعة ناعسين ، هادئين ، رقيقين ! .. لقد كان صغيرا عندما ماتت أمه ، قبل عشر سنوات ، ولكنه ظل يتذكر دموعه التى كانت تعبر عن أسى وفزع طاغيين .. لم تكن نفسه ذات قيمة لديه ، فى تلك الأيام . بل إنه لم يكد يفطن يومئذ إلى أن ثمة كائنا يدعى «يورا» على قيد الوجود ، يعيش

ككائن له استقلاله ، وكيانه ، وقيمته ، ومصلحته . كان المهم
ـ إذ ذاك ـ شيئا خارج كيانه ، حوله .. كان العالم القائم
خارج كيانه يزحف عليه من كل جانب ، كثيفا ، ملموسا ،
لا سبيل إلى إنكاره ، متشابك الأطراف والمعالم كالغابة ..
فكان سبب الفجيعة القاسية التى استولت عليه ـ من جراء
موت امه ـ هو انه ضل عن نفسه وهو إلى جوار تلك الام ..
تاه فى الغابة ، ثم فطن فجأة إلى انه كان وحيدا ، وكانت امه
قد اختفت ! .. وكانت الغابة مكونة من كل شىء فى الحياة ،
وفى الدنيا .. كل شىء كان يعرفه ، وجده فيها : سحب ،
ولافتات حوانيت ، وقباب ابراج اجراس الكنائس ـ ذات
اللون الذهبى ـ واولئك الرجال ذوو الرؤوس العارية الذين
كانوا يخبون على صهوات الجياد امام مركبة « العذراء
المباركة » ، وقد غطوا آذانهم بدلا من رؤوسهم إجلالا للأيقونة
المقدسة(١) .. كذلك كانت فى الغابة واجهات المتاجر ،
والأقبية ، وسماء عالية مرصعة بالنجوم ـ فى ليل بهيم ـ
لا سبيل إلى الوصول إليها .. كما كان هناك الله الرحيم ،
والقديسون !

ولقد احنت هذه السماء الشاهقة راسها حتى كادت
تمس طرف ثوب مربيته ، عندما راحت هذه تحدثه عن الأمور
التى كانت بيد الله .. انخفضت السماء البعيدة المنال ،

(١) كان الروس يعتقدون أن ايقونه عذراء (ايفرسكايا) كانت ذات مفعول قدسى يحقق المعجزات ، لذلك كانت تنقل فى عربة الى المرضى والمحتضرين »

فاصبحت فى متناوله ، كأشجار البندق عندما يجذب المرء فروعها
إلى الأرض ليلتقط ثمارها .. بل بدت السماء وكأنها تنغمس فى
حوض الغسيل ـ فى غرفة الطفل الذى كانه ـ بما كان يحمل
من زهور حمراء وذهبية على سبيل الزخارف تزين حوافه ،
حتى إذا اغتسلت السماء بنار وذهب ، استحالت إلى قداس
فى الكنيسة الصغيرة التى ذهب إليها مع المربية ، فى احد
الشوارع الجانبية . وهناك ، اصبحت نجوم السماء هى
الأضواء الموقدة امام الأيقونات ، وصار الرب الرحيم هو الأب
الطيب ـ قس الكنيسة ـ وراحوا جميعا يحاولون ان يؤدوا
وظائفهم على خير ما يستطيعون . على ان تلك التى راحت
تخيم عليه ـ كغابة مظلمة تحيط به من كل جانب ـ إنما كانت
دنيا الكبار ، ودنيا المدينة بوجه خاص ، وقد راح يورا يؤمن
ـ بكل ما فى غريزته من إيمان نصف حيوانى ـ بالله ..
حارس تلك الغابة !

اما فى هذه المرة ، عندما ماتت آنا ، فكان الامر يختلف ..
ففى اثنتى عشر سنة ـ قضاها فى المدارس ـ درس يورا
الآداب القديمة ، والكتاب المقدس ، والأساطير ، والشعراء ،
والتاريخ ، والتاريخ الطبيعى .. قرا كل هذه الأمور وكأنها
سجلات تاريخ اسلافه .. كأنها شجرة نسب اسرته ! ..
ومن ثم فانه لم يعد خائفا من شىء : لا من الحياة ، ولا من
الموت . لقد اصبح كل شىء فى الدنيا ـ واحدا فواحدا ـ
مذكورا فى قاموسه باسمه الصحيح . فاصبح يشعر بأنه على
قدم المساواة مع الكون ، وبأن للصلوات التى اقيمت من اجل
« آنا » وقعا فى اذنيه غير وقع الصلوات التى سمعها تتلى من

اجل امه ، وهو بعد صغير .. لقد كان إذ ذاك يصلى فى ارتباك ، وخوف ، والم . اما فى هذه المرة ، فراح يصغى إلى القداس وكأنه رسالة خاصة موجهة إليه شخصيا ، وذات اثر مباشر على نفسه .. فكان ينصت للكلمات ويتلقفها وهو يرتقب منها معنى واضحا ، كما يرتقب من اية رسالة جدية خطيرة .. ولم يعد لشفقته واساه اية صلة بمشاعره إزاء قوى الأرض والسماء ، التى اصبح يوقرها لمجرد شعوره بأنها تمثل اصله واسلافه .. فحسب !

— ١٦ —

● « قدوس الله ، قدوس القوى ، قدوس الحى الذى لا يموت ، ارحمنا ! » .. ما الذى جرى ؟ .. واين هو الآن ؟ .. كانوا ينقلون النعش ، فلا بد له من ان يستيقظ .. كان استسلم للنعاس على الأريكة — وهو فى ثيابه — حوالى الساعة السادسة من الصباح .. واحس بارتفاع فى درجة حرارته .. بينما كان القوم يبحثون عنه فى كل ركن من البيت، دون ان يخطر ببال احد ان يفتش عنه فى الركن القصى للمكتبة ، خلف ارفف الكتب . وكان ماركل يصيح مناديا : « يورا ! يورا ! » .. كانوا ينقلون النعش إلى الخارج ، وكان على « ماركل » ان يحمل طاقات الزهور ، ولكنه كان يبحث عبثا عن يورا ليساعده . ومما زاد من محنته انه عجز عن مغادرة المخدع ، إذ كان مزدحما باكداس من الزهور ، وكان باب الصوان الضخم الثقيل — الموضوع فى بهو الطابق الأعلى — مفتوحا على مصراعيه ، يسد مدخل الحجرة .. ومن الطابق الأسفل، كان القوم ينادون: «ماركل ! ماركل ! .. يورا !» .

وتغلب «ماركل» اخيرا على مأزقه ، فركل باب الصوان بعنف ، وقد حل عددا من طاقات الزهر ، وراح يهبط السلم .

« قدوس الله ، قدوس القوى ، قدوس الحى الذى لا يموت ، ارحمنا ! » .. اخذت الكلمات تتحرك فى الطريق بتؤدة وخفوت ، وكأنها ريش مسته نسمة خفيفة .. كان كل شىء يتمايل : اكاليل الزهر ، والمارة ، ورؤوس الخيل المزدانة بالريش ، والمبخرة التى كانت تتأرجح فى نهاية سلسلة فى يد القس .. والأرض البيضاء — المكسوة بالثلوج — تحت اقدامهم .. وهزت « شورا شليزنجر » كتفيها ، وقالت : « أهذا انت يا يورا ؟ .. يا إلهى ! اخيرا ! .. ماذا دهاك ؟ إنهم سينطلقون بالنعش .. افلست قادما معنا ؟ » .

— بلى .. قادم بلا ريب !

— ١٧ —

● وانتهت صلاة الجنازة ، فتزاحم المتسولون فى صفين، وهم ينقلون اقدامهم ليغالبوا البرد بالحركة . وكانت عربة نقل الموتى ، واكاليل الزهور ، ومركبة آل « كروجر » ، تهتز مترنحة. وازدادت المركبات اقترابا من باب الكنيسة، فخرجت « شورا شليزنجر » بوجه يسبح فى الدموع ، ورفعت خمارها المخضل ، ورمقت صف المركبات بنظرة متفحصة ، حتى اهتدت إلى المركبة التى كان حملة النعش ينتظرون فيها ، فأومأت إليهم برأسها تدعوهم . ثم غابت معهم داخل الكنيسة .. واخذ القوم يتقاطرون مغادرين الكنيسة .

— إذن فقد انتهت آنا إيفانوفنا ! .. لم تعد معنا .. رحلت إلى خير دار .. دار البقاء ! مسكينة !

— اجل ، لقد اخذت المسكينة حظها من الحياة ، وآن لها ان تستريح !

— هل جئت فى مركبة خاصة ، او تراك ستستقل الحافلة رقم (١١) ؟

— إننى لا اطيق الحافلات ، لذلك فتعال نحرك ساقينا قليلا ، ثم نستقل مركبة !

— هل رايت كيف كان « فوفكوف » حزينا ؟ .. يا لمنظره وهو ينظر إليها ، والدموع تنهمر من عينيــه .. وهو يتمخط ويحملق فى وجهها !

— لقد اعتادت عيناه ان تعلقا بها دائما .

وما لبثوا ان اتخذوا طريقهم إلى المقبرة ، فى الطــرف الاقصى من المدينة . وفى ذلك اليوم ، تشقق الصقيع اليابس . كان يوما ساكنا ، راكد الهواء ، ثقيل الوطأة .. يوم انتهــاء الصقيع ، ويوم انتهاء حياة .. كان يوما هو اكثر الأيام لياقة لتشييع جنازة ! .. وبدا الثلج القذر وكأنه يلمع تحت ستار من قماش « الكريشة » .. ولاحت اشجار الشربين المعتمــة ، شبيهة بالفضة الملوثة .. او كأنها اثواب الحداد !

فى تلك المقبرة بالذات ، كانت ام « يورا » دفينة .. ولم يكن قد زار قبرها فى السنين الأخيرة ، فنظر صوبها ، وهمس: « ماما ! » .. تماما كما كان ينبغى ان يفعل قبل سنوات !

* * *

وعادوا فى جمــاعات واجمة ، مهيبة المظهــر . وبدت تعرجات الدروب النظيفة بعيدة عن التناســق مع الخطوات التى كان المحزونون يتعمدون أن يكون وقعها ناطقابالأسى .. وكانت « تونيا » تسير معتمدة على ذراع ابيهــا ، يتبعهما آل كروجر .. لكم كانت تونيا تبدو بديعة فى الثياب السوداء !

وكان الصقيع الأسمر اللون يكسو السلاسل التى تشد الصلبان إلى القباب ، على جدران الدير الوردية ، وكأنه وشى مصوغ فى قوالب للزينة .. وفى الركن الأقصى من فناء الدير ، كان الغسيل منشورا على حبال بين الجدارين : اقمصة ذات اكمام مشبعة بالبلل .. وملاءات ، واغطية للموائد فى لــون الخوخ ، مبتلة ، ومثبتة إلى الحبال فى غير تناسق .

وسار « يورا » وحيدا ، فى مقدمة الآخرين ، وهو يتوقف من آن إلى آخــر ليمكنهم من اللحاق به . كان مدفوعــا بقوة لا قبل له بمقاومتها — كما تندفع المياه فى الميازيب المتجهة إلى اسفل — مدفوعا إلى أن يحلم ، ويفكر ، ويبتدع اشــكالا جديدة ، ويخلق الوانا من الجمال ، ليصد نذر الوحشـــة التى جلبها الموت إلى حياة تلك الجماعة الصغيرة التى كان افرادها يسيرون بخطى وئيدة .. وتبين — بجلاء اكثر من ذى قبل — ان للفن وظيفتين دائمتين ، مستمرتين ، لا تنتهيان : فهو دائما استغراق فى تأمل الموت .. وهو دائما — من جراء ذلك — خلق للحياة . وتحقق من ان ذلك يصدق على كل عمل فنى خالص .. ولقد صدق بالنسبة لتلك التحفة الفنيــة التى تسمى : « الوحى الذى تجلى للقديس يوحنا » ، ولكل الأعمال الفنيــة التى كانت مكملة له على مر الأيام .

وفكر — فى ترقب طروب — فى اليوم او اليومين اللذين كان يعتزم ان يقضيهما وحيداً ، بعيـداً عن الجامعة ، وبعيداً عن البيت ، ليكتب قصيدة فى ذكرى « آنا » .. قصيدة يضمنها كل تلك الامور العابرة التى تسوقها الحياة إلى طريقه : بضعة اوصاف لخير مناقب « آنا » .. حداد « تونيا » واساها .. احداث الطريق اثناء العودة من الجنازة .. والغسيل المعلق فى ذلك المكان الذى بكى فيه وهو طفل، فثارت يومئذ العاصفة الثلجية !

الفصل الرابع

القدر المحتوم !

— ١ —

● رقدت « لارا » فى فراش « فيليتسانا سيميونوفنا » ، محمومة ، وشبه غائبة عن الوعى .. وراح آل سفنتيتسكى ، والخدم ، والدكتور دروكوف يتحدثون فى همس حولها ..

وخيم الظلام على باقى اجزاء المنزل الخـالية ، إلا من مصباح واحد ، وضع على حامل فى غرفـة الجلوس ، واخذ يرسل ضوءه الكليل على الحجرات المتلاصقة الممتدة امامه فى صف طويل ..

وكان « كوماروفسكى » يقطع هـذا الممر جيئة وذهابا بخطوات واسعة ، ثابتة ، غاضـبة ، وكانمـا هو فى بيتـه الخاص ، وليس مجرد زائر هنا .. كان ينظر فى غرفة النوم مستطلعا الأنباء ، ثم يكر على عقبيه إلى آخر البيت ، مـارا بالشجرة المزدانة بالنيازك الفضية ، وعبر غرفة الطعام، حيث كانت المـائدة محملة بصحاف لم تمس ، والأقداح البلوريـة الصغيرة تصلصل كلما مرت عربة تحت النافذة ، او مرق فأر فوق مفرش المـائدة بين الخزف ..

وازدحمت فى صدره مشاعر عاصفة .. يا للفضيحة ! .. يا للخزى !.. كان يغلى من الغضب. لقـد أصبح مركزه مهددا ، وإن سمعته لفى خطر بسبب هذا الحادث . إن عليه

ان يحاول دون تسرب النبأ مهما كلفه ذلك ، أما إن كان قد انتشر فعلا ، فعليه الآن أن يضع حدا للشائعات ، وأن يخنقها فى مهدها ..

ولم يكن هذا هو سبب قلقه الوحيد .. لقد قاسى مرة اخرى من الجاذبية التى لا تقاوم، لهذه الفتاة الشرسة اليائسة .. لقد كان يعلم دائما انها تختلف عن كل فتاة غيرها .. كانت تمتاز عن الجميع بطبيعة فريدة فذة .. ولكن ما اعمق ما اصابها به من جراح اليمة غير قابلة للشفاء . وما اشد ما قلب حياتها راسا على عقب .. وكم كانت هى تبدو ضجرة عنيفة فى تصميمها على ان تعيد تشكيل حياتها وقدرها ، وان تبدأ من جديد !

كان واضحا أن كل الظروف تقضى عليه بمساعدتها ، بأن يستأجر لها غرفة خاصة .. ربما .. ولكن على أن لا يحاول الاقتراب منها بأى حال .. على العكس من ذلك .. عليه أن ينأى بنفسه عنها ، أن يقف جانبا بحيث لا يكتنف حياتها بظله ، وإلا .. فليس هناك حد لما يمكن أن تندفع إليه فى هياجها !

وفوق هذا ، فكم من المتاعب لا يزال فى الطريق . لم يكن ما حدث بالشىء الذى يرجى اى خير منه . فالقانون لا يقف ساكتا حياله . إن الصباح لم يأت بعد ، ولم تكد تمر ساعتان منذ وقعت الاحداث ومع ذلك فقد جاء البوليس مرتين ، وقد اضطر هو — كوماروفسكى — أن يذهب بنفسه إلى المطبخ ، ويلاطف الجاويش ، لتسير الأمور فى غير عنف .

وستزيد الأمور تعقيدا كلما قطعت شوطا .. فمن المحتم ان يجدوا الدليل على ان « لارا » كانت تقصده هو بطلقتها ، ولم تكن تقصد كورناكوف . وحتى هذا لم يكن ليضع حدا للمسألة .. إن الفتاة سوف تبرأ بذلك من جزء من التهمة فقط ، ولكنها لا تزال معرضة للادانة عن باقى أجزائها .

ومن الطبيعى انه سيصنع كل ما يستطيع لكى لا تدان . فاذا قدمت القضية إلى المحكمة ، فسيحصل على تقرير قاطع من الطبيب النفسى، بأنها لم تكن مسئولة عن اعمالها فى اللحظة التى اطلقت النار فيها .. وتبعا لذلك ، تسقط الدعوى ..

وهكذا ، راح يهدىء نفسه بهذه الأفكار .. حتى انقضى الليل ، واخذت خيوط الضوء تنساب من غرفة إلى غرفة ، وتتسلل تحت الكرسى والموائد ، كما يتسلل اللصوص ..

والقى كوماروفسكى نظرة اخيرة على غرفة النوم ، حيث علم ان «لارا» لم تتحسن حالتها بعد .. ثم مضى خارج البيت ليذهب إلى صديقه « روفينا أونيسيموفنا فويت نويتكوفسكى » ، وهى سيدة تشتغل بالمحاماة ، وكانت من قبل زوجة سياسى هاجر من البلاد . إن مسكنها ذا الثمانى حجرات قد اصبح الآن اوسع كثيرا من حاجتها ، ولم تعد قادرة على الاحتفاظ به .. وهى لهذا تؤجر منه حجرتين ، إحداهما الآن خالية .

واستأجر كوماروفسكى هذه الحجرة للارا .. ونقلها إليها بعد بضع ساعات . وكانت لا تزال غائبة عن الوعى ، ملتهبة الرأس بالحمى ..

— ٢ —

● وكانت روفينا اونيسيموفنا امراة ذات اتجاهات تقدمية باهرة ، شديدة العداوة للإجحاف والظلم ، مطبوعة على الميل إلى تأييد كل ما تراه « نافعا وحيويا » .

وكانت تحتفظ على صوان ملابسها بنسخة عليها إهداء المؤلف من كتاب « برنامج ارفورت » ، (برنامج الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى ، الذى تمخض عنه مؤتمر سنة ١٨٩١) . وبين الصور المعلقة على الجدران ، كانت تبدو صورة زوجها الطبيب « فويت » فى متنزه شعبى فى سويسرا ، وقد جمعت الصورة بينه وبين « بليكهانوف » ، أحد قادة الفكر الماركسى ، وكلاهما يرتدى سترة من الحرير ، وقبعة من قش بناما .

ولكن « روفينا اونيسيموفنا » لم ترتح لمرأى الساكنة الجديدة المريضة . بل لقد رات فى لارا « متمارضة » لا تطاق ، واعتقدت أن هذيانها من الحمى إن هو إلا تصنع من أوله إلى آخره . وما كان أيسر عليها ان تقسم ان لارا تحاول تمثيل شخصية بائس قضى عليه بالجنون ، فى حب قوطى قديم ..

وكانت تظهر احتقارها لها بصورة لا تخلو من النشاط والخفة .. فهى تضرب الأبواب بشدة . وترفع صوتها بالغناء ، وتندفع فى الجزء الذى تشغله من البيت كالاعصار ، وتترك النوافذ مفتوحة طيلة اليوم .

وكانت الشقة تقع فى الدور العلوى من احد منازل شارع (أربات) ، الشارع الواسع ، ذى السوق . وعندما ينتصف



وهكذا ، راح يهدىء نفسه بهذه الأفكار .. حتى انقضى الليل ، وأخذت خيوط الضوء تنساب من غرفة الى غرفة ..

الشتاء ، ويبدأ الجو دورته نحو الربيع ، كانت نوافذها تبدو غرقى فى السماء الزرقاء ، وكأنما هى نهر عظيم فى موسم الفيضان .. وطيلة النصف الثانى من كل شتاء ، كانت هذه الشقة تزخر ببشائر الربيع القادم .

واخذت ريح الجنوب الدافئة تقتحم النوافذ ، وقطارات السكة الحديد تزار من محطاتها البعيدة ، وكأنها سباع البحر .. بينما لارا مريضة راقدة فى فراشها ، تملأ فراغها بالذكريات .

وكم كانت تذكر امسيتها الأولى فى موسكو ، عندما قدمت إليها لأول مرة من الأورال .. كانت هذه الأمسية ، التى مرت عليها سبع سنوات أو ثمان ، إحدى امسيات طفولتها التى لا تنسى ..

كانوا يعبرون المدينة فى عربة اخذت تقطع بهم الطرق الضيقة المظلمة ، من المحطة إلى الفندق الذى يقع فى الطرف الآخر من المدينة .. وكانت مصابيح الشوارع ترسم للحوذى ظلالا حدباء تتتابع على الجدران بتتابعها .. وكان ظل الحوذى يبدا صغيرا ، ثم يكبر ويكبر ، حتى يصبح عملاقا ضخما يمتد إلى سطوح المنازل ، وإذا هو ينحسر مرة واحدة ، ليبدا صغيرا من جديد .

كانت اجراس موسكو الثمانون العريقة تطن فى الظلمة ، ومركبات الترام تصلصل بأجراسها وهى تنطلق مسرعة فى الطرقات .. ومع كل هذا فقد كانت الانوار ، وواجهات الحوانيت ، تصم اذنى لارا ، وكأنما كانت هى الأخرى تحدث من الجلبة ما تحدثه العجلات والأجراس ..

وعند دخولها غرفة الفندق ، اذهلها وجود بطيخة هائلة الحجم إلى حد غير مألوف . كان كوماروفسكى قد جاء بها كهدية لها بمناسبة انتقالها إلى مقامها الجديد ، وقد رات هى فيها رمزا لجاهه وثروته .. ولقد امسكت أنفاسها فى فزع وهى تراه يغمد السكين فى هذه الأعجوبة ، فتنشق البطيخة الداكنة الخضرة إلى نصفين ، كاشفة عن قلب سكرى مثلج ، ولكنها لم تستطع ان ترفض تناول شريحة منها . وعلى الرغم مما انتابها من توتر عصبى ، اوقف فى حلقها ما تقضمه من هذه الفاكهة الوردية الناضرة ، فقد ارغمت نفسها على ازدرادها ..

ومثلما روعتها الأطعمة الباهظة الثمن ، وحياة الليل فى العاصمة ، فكذلك بدات ترتاع من كوماروفسكى نفسه .. وكان هذا هو التفسير الصحيح لكل شىء ..

ولكنه الآن قد تغير كثيرا .. تغير إلى حد أبعد من حدود التصور .. فلم يعد الآن يطالبها بشىء .. ولم يعد يذكرها بالماضى مطلقا ، بل إنه لم يعد يحضر لرؤيتها .. لقد امسك بنفسه بعيدا عنها ، وإن كان قد حرص على ان يؤكد لها بأكثر الطرق رقة ولطفا ، استعداده الدائم لمساعدتها .

اما « كولوجريفوف » ، فكان سلوكه مختلفا جدا عندما زارها . ولقد ملأتها زيارته سرورا .. لا بسبب طوله الفارع وجماله الوضىء ، ولكن لما يشعه من حيوية وذكاء ، بالإضافة إلى ابتسامته الخلابة ومرحه .. حتى لكانما شغل وحده نصف المكان من غرفتها ..

جلس إلى جوارها وفرك يديه مفكرا .. لقد كان يدعى فى المناسبات إلى الاجتماعات العليا فى (بطرسبرج) ، فيخاطب الشيوخ ذوى الألقـاب الرفيعـة ، وكأنهم تلاميـذ مدارس أشقياء .. ولكنه الآن يجلس ، وإلى جواره فتاة كانت إلى عهد قريب إحدى أفراد بيته .. كانت كابنة له .. صـحيح أنه لم يكن يبادلها فيما مضى أكثر من كلمة أو نظرة عابرة ، شأنها فى ذلك شأن باقى أفراد عائلته ، ولكن سلوكه — فى هذه الحدود الضيقة — لم يكن يخلو من حرارة وسحر يعرفهما الجميع .. لذلك لم يستطع أن يعاملهـا بغير اكتراث كمـا يصـنع مع الآخرين . وإذ كان لا يدرى كيف يبدؤها بالكلام دون أن ينكأ ما يؤلمها من جراح .. فقد قال لها بابتسـام وكأنه يحـادث طفلا : « والآن يا بنيتى ، ماذا تبتغين ، وماذا وراء كل هـذا الشجن والتأثر ؟ » .

وسكت برهة ، وهو يفحص بعينيه البقع الرطبـة على الجدران والسقف ، ثم هز رأسه فى أسى وقال : « إنى ذاهب إلى دسلدروف حيث يفتتح هنـاك معـرض للرسـم والنحت والزهور .. إن المكان هنا رطب كما تعلمين. وفوق هذا ، فإلى متى تريدين أن تجوبى الآفاق على غير هدى ولغير مكان لائق تعيشين فيـه ؟ . بينى وبينك ، هـذه المرأة « فويت » امرأة سيئة للغاية .. إنى أعرفها . فلماذا لا تنتقلين من بيتها ؟ لقد مضى عليك وقت طويل وأنت مريضة طريحة الفراش ، وقد آن لك أن تنفضى عنك فراش المرض .. غيرى هذه الغرفـة .. قومى بعمل ما .. أتمى دراسـتك .. إن لى صديقا رسـاما سيرحل إلى تركستان لمدة عامين .. ولديه فى الاستديو مكان

منفصل ، أشبه بشقة صغيرة ، أعتقد أنه سـيعهد بهـا إلى شخص ما خلال غيبته ، فما رأيك لو استأجرتها لك منه ؟ .. وثمة واجب آخر كنت أريد أن أؤديه من زمن طويل .. واجب مقدس .. منذ كانت « ليبا » .. هاك قدرا قليلا من المال .. إنه مكافأة على تخرجها .. لا .. من فضلك .. لا .. أرجوك .. لا تكونى عنيدة هكذا .. لا .. إن عليك أن تقبلى .. » .

وعلى الرغم من كل احتجاجاتها ، ودموعها ، ومقاومتها .. فقد أرغمها قبل أن يمضى ، على أن تقبل منه شـيكا بمبلغ عشرة آلاف روبل ..

وانتقلت « لارا » ، فور شفائهـا ، إلى المسـكن الذى اختاره لها «كولوجريفوف» بالقرب من سوق (سمولنسكى) . وكانت الشقة فى أعلى بيت ذى طابقين يبدو عليه القدم . وكان يسـكن الجزء المقابل من البيت جماعة من الحمالين وحوذية النقل .. بينما يستخدم الطـابق الأرضى كمخزن للبضـائع . أما الفناء المرصوف ، فكان دائما يفرش بالبرسيم والشوفان . وبينما كانت أسراب الحمام تختال هناك ، وتصفق بأجنحتها فى جلبة بالقرب من نافـذة لارا .. كانت أسراب الجرذان تمرح أيضا فى الميازيب .

— ٣ —

● وكان «باشا» شديد القلق على لارا .. فقد حيل بينه وبين زيارتها طيلة أيام مرضها .. وأى شـعور كان ينتابه ؟ إن لارا قد حاولت أن تقتل رجلا ، لم يكن يربطها به — فيمـا يعلم — سوى رباط المعرفة .. وهـذا الرجل نفسـه الذى حاولت لارا أن تقتله ، قد أصبح فيما بعد درعها الواقى الذى

درءا عنها ما كان ينتظرها من عقاب .. شكرا له على اى حال ، فقد اصبحت قادرة على مواصلة دراستها ، آمنة من كل شيء .. ولكن ، يا للحيرة والعذاب اللذين ينهشان قلب باشا !

ولقد ارسلت لارا فى طلبه عندما تحسنت حالتها . ثم قالت له : « إنى امراة سيئة .. وانت لا تعرفنى ، ولا تعرف مقدار سوئى .. سأخبرك بكل شيء فى يوم من الأيام .. اما الآن فلست استطيع ان اقول شيئا .. لقد رايت بنفسك، كيف ياخذنى البكاء كلما حاولت ان اتكلم .. ابتعد بنفسك عنى .. يجب عليك ان تفعل .. ان تنسانى تماما .. فلست استحقك » .

وتلت ذلك مشاهد مروعة ، كان كل منها اشد إيلاما من سابقة .. كانت لارا إذ ذاك لا تزال مقيمة فى شارع (أربات) . وكانت المحامية ربة الدار تلتقى بباشا فى بهو مسكنها ، فلا تكاد ترى الدموع المنسابة على وجهه ، حتى تكر مندفعة إلى غرفتها ، حيث تلقى بنفسها على الاريكة وتنفجر ضاحكة ، وهى تصرخ : « يا للعجب .. يا للعجب .. يا للرجل القوى الصامت .. يا له من شمشون ! » .

اما لارا ، فلكى تحل باشا من هذه الصلة المدمرة ، وتقتلع حبه لها من جذوره ، وتضع حدا لعذابه ، فقد اعلنت انها قطعت كل ما كان بينهما من صلات، لأنها لم تعد تحبه ! .. ولكنها كانت وهى تعلن هذا تبكى بكاء مرا ، يستحيل معه تصديقها ..

وكان « باشا » يتهم لارا فى نفسه بالسبع خطايا المميتة

جميعا .. ولم يكن يصدق حرفا واحدا مما تقول .. بل كان خليقا أن يعلنها ويمتلىء حقدا عليها .. اولا انه كان ولهـا فى حبها ، شديد الغيرة عليها .. يغار من الاناء الذى تشرب منه ، والوسادة التى ترقد عليها .. وهكذا تعين عليهما إذا ارادا أن يحتفظا برشدهما ، أن يعملا بسرعة وحزم .. واتفقا على الزواج فورا .. بغير انتظار لامتحاناتهما .. وقررا ان يتم الزواج فى يوم الأحد التالى للعيد .. ولكنهما أجلاه بعد ذلك ، إلى يوم الاثنين المعروف بعيد السجدة !

وعندما تم زفافهما فى ذلك اليوم ، كانا ايضا قد تخرجا بنجاح . وقد قامت بالاشراف على زفافهما « ليودميلا كابيتونوفنا تشيبوركو » ، والدة « توسيا » ، زميلة لارا فى الدراسة . وليودميلا امراة لطيفة ، بارزة الصدر ، تمتاز بصوت غنائى خفيض ، وراس ملىء بعدد لا يحصى من الخرافات ، التى ورثت بعضها ، واصطنعت بعضها الآخر بنفسها ..

وكان يوما شديد الحرارة ، ذلك اليوم الذى كانت لارا « ستساق فيه إلى الهيكل » على حد تعبير ليودميلا فى صوتها المنغم النورى .. كانت الصفرة الصارخة تشع فيه من قباب الكنائس المذهبة ، ومن الرمال المفروشة على ممرات الحدائق . وكانت اغصان الشجر التى قطعت فى يوم « احد الشعانين » ، معلقة على اسوار الكنائس، وقد علاها الغبار، والتوت اوراقها تعكس وهج الشمس .. لم تكن ثمة نسمة هواء ، وكانت اشعة الشمس المتوهجة تتراقص امام الاعين فتبهر الأبصار ..

وكأنمــا كان فى ذلك اليوم الف زفاف .. فقــد انتثرت الفتيات جميعا كالعرائس فى ثياب خفيفة لامعة ، وقــد جعدن شعورهن . بينما صفف الفتيــان شــعورهم بالدهانــات ، وارتدوا الثياب المحبوكة السوداء ، احتفالا بيوم العيــد .. والحر يلفح الجميع ويثير اعصابهم ..

وعندما بدأت « لارا » تخطو أولى خطواتها فوق البسط المفروشة إلى المذبح ، نثرت « لاجودنيا » — وهى أم صديقة اخرى لها — بدرة من الفضة تحت قدميها ، لتكون فالا حسنا يأتى لها بالخير .. وكانت « ليوديميلا » قبل ذلك قد زودتهــا بعدد من النصائح لنفس السبب .. كانت قــد أوصتهــا بالا ترسم علامة الصليب بأصابعها العارية ، عندما يعقد فــوق راسها إكليل الزفاف ، وإنما تغطى أصابعها بطرف طرحتها ، او ببعض شرائطها المزركشة .. وثمة نصيحة اخرى وجهتها لها ليوديميلا ، هى ان ترفع شمعتها عاليا اثناء الصلاة ، لتكون لها الإمرة على البيت .. اما هى ، فقد دفعتها التضحية إلى تسليم مصيرها لباشــا ، فأخذت تهبط بشمعتهــا إلى اقصى ما تستطيع .. وعبثا كانت تحاول، فكلما كانت تهبط بشمعتها، كان باشا يهبط اكثر بشمعته !

وخرج الجميع من الكنيسة ليتناولوا طعام الافطــار فى الاستديو الذى كان باشــا قد زينــه اســتعدادا للحفل .. وكالعادة الروسية فى ايام الزفاف ، صاح بعض الحاضرين : « هــذا الطعام مر » ! .. واجاب الآخرون .. « هيا اجعلوه حلوا » . وفى ابتسامة خجلى تعانق العروســان ، وتبــادلا قبلة ..

وبدأت ليوديميلا تغنى اغنية « شــجرة الكرم » بقرارها المزدوج « ليمنحكما الله الحب والوفاق » ، ثم غنت بعــد ذلك اغنية مطلعها « هيــا احلل ضفائرهــا .. وبعثر الشــعر الجميل » !

وعندما انصرف الضيوف ، تاركين باشــا وحيــدا مع عروسه ، ملأه الصمت المفاجىء بالاضطراب . كان الضــوء يصل إلى الغرفة من مصباح الطريق .. وعبثا حاول باشا ان يحجبه تماما بإحكام الستائر . فقد ظل شعاع دقيق منــه ينفذ إلى الغرفة .. وزاده هذا الشعاع اضطرابا ، كأنما هناك من يراقبه .. ولم يلبث ان اكتشف انه كان منصرفا إلى التفكير فى هذا الضوء ، اكثر من تفكيره فى لارا ، او فى نفسه ، او فى حبه لها .. !

وفى هذه الليلة ، بلغ « انتيبوف » ، او « ستيفانى » ، او « العذراء الجميلة » — كمــا كان اصدقاؤه يســمونه — قمة الفرح .. وهبط ايضا إلى اعمق اغوار اليأس. كانت الشكوك والمخاوف تتعاقب عليه مع اعترافات لارا .. كان يلقى عليها السؤال بعد السؤال ، ومع كل إجابة منهــا ، كانت روحــه تغوص إلى اعماق بعيدة ، وكأنما هو هابط إلى هاوية .. فأنى لخياله الجريح ، ان يساير ما كانت تبوح به إليه ! ؟

وظلا يتحدثان حتى الصباح .. ولم يحدث لباشــا طيلة حياته ان اصابه تغيير حاسم مفاجىء ، كهذا الذى حدث له فى تلك الليلة .. لقد نهض فى الصباح وقد تغير تمامــا ، وكأنه رجل جديد ، يدهشه ان يكون فى يوم من الأيام قد عرف باسم « باشا انتيبوف » !

— ٤ —

● وبعد تسعة ايام ، اقام لهما اصدقاؤهما حفلة وداع ، فى نفس الغرفة .. فقد كانا كلاهما قد اجتازا الامتحان بتفوق ، وحصل كل منهما على عمل فى مدينة واحدة من مدن الاورال .. وكانا قد تاهبا للسفر إلى مقرهما الجديد فى اليوم التالى .

وقد شربوا ، وغنوا ، وضجوا .. وكانوا جميعا هذه المرة من الشباب ..

وخلف الحاجز الذى يفصل بين الاستديو وبين الجانب المخصص للسكن ، كانت هناك سلة كبيرة للأمتعة ، واخرى اصغر منها ، وحقيبة لارا الكبيرة ، وحقيبة صغيرة اخرى ، وصندوق للأوانى الخزفية ، وعدد من الطرود .. متاع كثير كان ينتظر السفر ، وقد اعد جانب منه للشحن فى اليوم التالى. ورغم ان كل هذه الصناديق والسلال والحقائب ، قد كانت محزومة باربطتها تماما ، فقد كان هناك فراغ فى الحقيبة ، وفى السلال .. وكانت لارا بين لحظة واخرى تتذكر شيئا تريد اخذه معها ، فتدسه فى إحدى السلال ، معيدة ترتيبها بعناية لتعيد استواء سطحها ..

وكان باشا يرحب بالضيوف فى البيت ، عندما عادت لارا من إدارة الكلية ، حيث كانت تسترد شهادة ميلادها ووثائقها الاخرى .. وقد صعدت إلى الدار ، يتبعها حمال يحمل حزمة من الزكائب وحبلا سميكا ، لربط الأمتعة التى تم إعدادها للشحن .

وتركت لارا الحمال خارجا ، ثم مضت تطوف بالضيوف، تسلم على البعض ، وتقبل البعض الآخر ، قبل ان تذهب إلى غرفة النوم لتغير ملابسها .. وصفق الجميع عندما عادت وجلست بينهم ، وعادت الضجة والصخب ، كما حدث فى حفلة العرس ..

واقبل البعض على الفودكا ، يصبون لأنفسهم ، وللجالسين إلى جوارهم .. وامتدت الأيدى ، والشوك ، إلى وسط المائدة حيث صف الخبز واطباق المشهيات وصحاف الطعام .. وقرعت الكؤوس ، والقيت الكلمات ، وعلت الأصوات بالفكاهة والمرح ، وقد شملتهم جميعا النشوة ..

وهمست لارا فى اذن زوجها الجالس إلى جوارها : « إنى لفى شدة التعب .. هل قمت بتدبير كل شىء ؟ ! » .

واجاب باشا :

— نعم

— ومع ذلك ، فانا اشعر بقبطة عظيمة .. كم انا سعيدة .. الست سعيدا انت ايضا ؟

بالتاكيد ... يا لها من قصة !

وكان كوماروفسكى قد سمح له — على وجه الاستثناء — بحضور حفلة الشباب .. فلما آذنت السهرة بالانتهاء ، بدا يتحدث عن صعوبة الفراق ، وكم سيفتقد صديقيه الصغيرين عندما يبرحان موسكو ، وكيف ستصبح المدينة خالية بدونهما ، كانها صحراء .. وغلبه التاثر ، فاخذ ينتحب ، ويعيد كل ما قاله مرة اخرى ، مستاذنا انتيبوف وزوجته فى ان يكتب لهما

.. بل فى ان يصحبهما عند سفرهما إلى الاورال ، إذا شـق عليه احتمال لحظة الوداع ..

وعلا صوت لارا ، وهى تجيبه شاردة الذهن : « لا .. لا .. لا ضرورة لشىء من كل هذا .. وهى بعد اشياء لا تجدى .. الكتابة .. والصحراء .. وما إلى ذلك من الكلام .. أما عن مصاحبتنا إلى الأورال ، فإياك ان تفعل ... إن الله سيساعدك على احتمال فراقنا .. ونحن بعد لسنا من الندرة بحيث لا نعوض .. سيسعدك الحظ ، فتجد من يعوضك عنا من الأصدقاء .. اليس كذلك يا باشا ؟ » .

وكانما تذكرت شيئا على حين غرة ، فقد نهضت مسرعة وهرولت إلى المطبخ ، فأخذت مفرمة اللحم ، ومضت تحشر اجزاءها فى صندوق الخزف ، محيطة إياها بلفائف من القش .. وقد خدشتها حافة الصندوق وهى منهمكة فى تصفيفه ، واصابتها بجرح فى يدها .. ولكنها كانت لاهية عن كل هذا ، كانت منهمكة فيما تعمل إلى حد انها نسيت ضيوفها ، ولم تعد تشعر بوجودهم .. حتى ذكروها بانفسهم عندما علت اصواتهم بالضحك والضجيج .. وقد بدا لها عندئذ أن الناس عندما يفرطون فى الشراب ، يحاولون تمثيل ادوار السكارى .. وأنهم كلما شربوا أكثر ، أمعنوا فى التمثيل إلى حد المبالغة ..

ولكن صوتا آخر تناهى إليها من الفناء ، فجذبها إلى النافذة .. ورفعت لارا الستائر ، واطلت ..

كان فى الفناء حصان موثق، يقفز قفزات قصيرة عرجاء ..

وحارت لارا .. لمن الحصان ، وكيف جىء به إلى الفناء .. ومدت بصرها إلى المدينة النائمة ، فبدت أمامها وكأنما خلت من كل اثر للحياة .. كانت المدينة متشحة بالزرقة الداكنة الرطبة للساعات المبكرة قبل طلوع النهار .. واطبقت لارا عينيها ، وقد حملتها اصوات الحصان الموثق ، إلى ذكريات الريف العميقة ، ومرحها الماضى ، كما لم يكن يمكن أن يذكرها بها شىء آخر ..

ورن جرس الباب، فنهض احد الحاضرين ليفتح للطارق الجديد . وارهفت لارا أذنيها ، فـاذا هى تسمع صوت « ناديا » ، فتندفع مسرعة لملاقاتها . .كانت ناديا آتية لتوها من القطار ، تفيض نضرة وسحرا ، ويفوح منها عطر الزنبق النامى فى وادى (دوبليانكا) ..

وعقد التأثر لسانى الصديقتين .. فتعانقتا .. تاركتين لدمعهما العنان ..

كانت ناديا تحمل للارا تهانى الأسرة ، وامانيها الطيبة .. وهدية من ابويها .. فما لبثت ان اخرجت من حقيبة سفرها علبة حلى ، ففتحتها واخرجت منها عقدا ساحرا ..

وعمت الفرحة والدهشة جميع الحاضرين .. وصاح احدهم ، وكان قد افرط فى الشراب ، ثم بدا يفيق قليلا :

ــ هذه الأحجار .. من الياقوت الوردى .. نعم .. نعم .. هذا هو الياقوت الوردى ، صدقوا .. او لا تصدقوا .. فهكذا يبدو دائما .. إنه كالماس ..

وقالت ناديا : « لا .. إنه من الياقوت الأصفر .. » .

واجلست لارا ناديا إلى المائدة بجوارها ، وقدمت لها طعاما وشرابا .. وكان العقد يرقد فى علبته المفتوحة إلى جوار صحفتها ، ولارا لا تستطيع ان تكف عن النظر إليه .. كانت حباته تتالق فوق وسادته البنفسجية ، فتبدو حينا كقطرات الندى ، وحينا كعنقود العنب الصغير ..

وفى نفس الوقت ، عاد الضيوف ــ الذين كانوا قد بدءوا يفيقون ــ إلى الشراب مرة اخرى ، من أجل ناديا .. وظلوا يشربون جميعا حتى شملتها النشوة هى الأخرى .

وسرعان ما استغرق كل من فى البيت فى النوم . فقد كان اغلبهم سيصحبون لارا وباشا إلى المحطة ، ففضلوا البقاء جميعا فى الدار .. وكان عدد منهم قد بدأ يغط فى النوم فعلا قبل وصول ناديا .. بل إن لارا نفسها لم تستطع ان تفهم كيف وجدت نفسها نائمة على كنبة بكامل ملابسها إلى جوار « ايرا لاجودينا » .

فقد ايقظتها اثناء الليل اصوات فى الفناء ، إذ كان اصحاب الحصان قد جاءوا ليأخذوه .. وعندما فتحت عينيها ، تساءلت فى نفسها : « لماذا يتسكع باشا هكذا فى وسط الغرفة ؟ ! » ، فلما ادار الرجل الذى ظنته باشا راسه ، رات امامها وجها بشعا، مجدورا ، به آثار جرح عميق ممتد من حاجبه إلى ذقنه .. وايقنت لارا انه لص ، فحاولت ان تصيح ، ولكنها لم تجد اثرا لصوتها .. وتذكرت العقد فى الحال ، فنهضت بحذر متكئة على مرفقها ، ونظرت إلى المائدة ، حيث تركت العقد ..



رات امامها وجها بشعا ، مجدورا ، به آثار جرح عميق ممتد من حاجبه الى ذقنه .. وايقنت لارا انه لص ..

كان العقد لا يزال فى مكانه بين الخبز واوراق الشيكولاتة الفارغة .. فلم يكن اللص الغبى قد اهتدى بعد إليه ، إذ كان ينبش فى الحقائب التى رتبتها بعناية ، مفسدا ما انفقت فيه وقتا وجهدا كبيرين .. نعم .. كان هـذا هو ما استطاع ان يشغل بالها فى تلك اللحظة ، وهى بعد نصف نائمة ، لم تذهب عنها آثار نشوتها ..

وحاولت ان تصرخ مرة اخرى فاحتجز الخوف صوتها .. ولم تجد وسيلة إلا ان تدفع بركبتها فى بطن ايرا .. وحينما صرخت ايرا من الألم ، وجدت هى ايضا صوتها فصرخت !

والقى اللص بكل ما فى يديه ، وهرول خارجا .. وصحا بعض الرجال فقفزوا خلفه يريدون اللحـاق به ، غير فاهمين شيئا مما كان يجرى .. ولكنهم عندما وصلـوا إلى البـاب الخارجى ، كان اللص قد اختفى تماما ..

وايقظت الضجة الجميع .. ولم تسمح لهم لارا بالعودة إلى النوم ، فاعدت لهم اقداح القهـوة ، وتركتهم يعودون إلى منازلهم حتى يحين وقت الذهاب إلى المحطة ..

وعاودت لارا العمل فى سرعة واضطراب، فاخذت تحشر اغطية الفراش حشرا فى السلال ، وتعيـد ترتيب الحقائب ، وتحزم الأمتعة بالحبال .. وتتوسل إلى باشا وزوجة الحمال ، الا يزيدا من مشقتها ، بمحاولتهما مساعدتها ..

وانتهى إعداد كل شىء فى الوقت المناسـب ، فالحقت عائلة انتيبوف بالقطـار ، الذى اخـذ يتحرك رويدا رويدا ، يسايره أصدقاؤهما الكثيرون وهم يلوحون بقبعاتهم .. وعندما كفوا عن التلويح بالقبعات ، وصاحوا ثلاث مرات : « مرحى .. مرحى .. مرحى ! » ، كان القطار قد بدأ يستكمل سرعته .. ليختفى ..

— ٥ —

● مرت ثلاثة ايام متتالية ، والطقس موحش كئيب .. وكان هذا هو الخريف الثانى للحرب ، وقد بدأ التراجع يعقب انتصارات العام الأول منها .. فالجيش الثامن الذى كان قد تجمع فى الكربات بقيادة بروشيلوف، على اتم استعداد للزحف إلى المجر ، قد بدأ الآن يتراجع ، متأثرا بموجة الانسـحاب العام . ولقد بدأنا نخرج من غاليسيا التى تم لنا احتلالهـا فى الأشهر الأولى للقتال .

وكان الدكتور جيفاجو ـ الذى كان يعرف إلى عهد قريب باسم يورا ، ثم بدأ يشتهر الآن باسم يورا اندريفتش ـ واقفا أمام غرفة الولادة فى قسم امراض النساء بالمستشفى ، حيث كان قد احضر زوجته « تونيا » لتوه . وكان قد فرغ من وداع زوجته ، ثم وقف ينتظر المولدة ، ليتفق معها على كيفية حصوله على انباء زوجته ، واستدعائه إليها إذا لزم الأمر ..

كان فى عجلة شديدة ، إذ كان عليه أن يذهب فـورا إلى مستشفاه الخاص .. وكان عليه قبل ذلك ايضـا ، أن يمر بمريضين فى طريقه . وها هو ذا يضيع وقتا ثمينا فى التطلع من النافذة ، ومتابعة قطرات المطر ، إذ تجرفهـا ريح الخريف ، فتبدو كأنما هى حقل من عيدان الذرة ، هبت عليه عاصفة !

ولم يكن الظلام قد اشتد بعد . فكان يستطيع ان يرى الجانب الخلفى من المستشفى ، والمنازل المجاورة له ذات الشرفات المغطاة بالزجاج ، وقضبان الترام المؤدية إلى احد عنابر المستشفى ..

واخذ المطر ينهمر فى رتابة كئيبة ، لا يسرع ولا يبطىء ، غير مبال باحتدام الرياح ، التى كانما أغضبها عدم اكتراثه بها ، فأخذت تهز النباتات المتسلقة على جدران منزل قريب ، تريد ان تقتلعها من جذورها ، لتعبث بها فى الفضاء ، ثم تسقطها باحتقار ، كبساط ممزق ، متهتك الأوصال ..

ومر ترام ذو عربتين من امام الشرفة إلى مدخل المستشفى حاملا عددا من الجرحى ..

كانت مستشفيات موسكو قد غصت بالمصابين . وامتلأت جميع الممرات بالجرحى ، ورقد الكثير منهم على الأرض ، وبدا الزحام يزحف متجها إلى عنابر النساء .

وابتعد يورى عن النافذة ، وهو يتثاءب من التعب والارهاق .. لم يكن لديه ما يفكر فيه .. ولكنه تذكر فجاة حادثا وقع منذ ايام فى مستشفى الصليب المقدس ، حيث يعمل .. كانت امراة قد ماتت فى قسم الجراحة بالمستشفى . وقرر يورى ان سبب موتها هو تسمم فى الكبد . ولكن الأطباء الآخرين جميعا لم يوافقوه فى الراى . فتقرر لذلك تشريح جثتها ، وحدد اليوم موعدا للتشريح .. وكان يورى يعرف ان الطبيب المنوب اليوم ، رجل سكير عربيد .. والله وحده يعلم إلى اى قرار ينتهى !

وهبط الظلام فجاة حتى تعذرت رؤية اى شىء خارج الجدران .. ولكن .. كانما عصا سحرية قد مست المكان كله ، فانبعثت الأضواء من جميع النوافذ فى لحظة واحدة !

وخرج كبير اطباء النساء من عنبر « تونيا » ، مارا بالردهة الضيقة التى تفصل العنبر عن الممر .. وكان الرجل بدينا هائل الجرم ، من نوع الأطباء الذين كلما سألهم سائل عن شىء ، هزوا اكتافهم ، وأداروا اعينهم فى محاجرها ، وكأنهم يرددون قول هاملت المشهور : « مهما بلغنا من العلم ، فهناك اشياء كثيرة اخرى فى السماء والأرض يا هوراشيو .. » .

ومر الطبيب بيورى فاوما له مبتسما ، ثم اشار إليه بيديه كانما يقول : « لم يعد هناك ما تحتاج إليه غير الصبر » ، ومضى فى طريقه إلى آخر الممر ، ليشعل لفافة فى غرفة الانتظار .

وتبعته بعد ذلك مساعدته ، وكانت ثرثارة بقدر ما كان هو قليل الكلام ، وما إن رات يورى حتى قالت له : « لو انى فى مكانك لعدت إلى بيتى على الفور . إذ لماذا تنتظر ؟ . سأتصل بك تليفونيا غدا فى الصليب المقدس . وليس من المحتمل مطلقا ان يحدث اى شىء حتى ذلك الوقت . إن جميع الدلائل تدل على انها ستلد ولادة طبيعية ، والأرجح انها لن تحوجنا إلى إجراء اى جراحة لها . هذا بالرغم من ان حوضها ضيق ، وراس الطفل فى الموضع الخلفى ، وهى لم تبدا فى الشعور بالالم بعد ، والانقباضات خفيفة ، مما يسبب شيئا من القلق .. ولكن هذا الكلام على كل حال سابق لأوانه .. فعلينا ان ننظر حتى يبدا إحساسها بالألم ، وتتقدم نوبات المخاض .. وعندئذ ، نستطيع ان نقرر بدقة ما يجب ان يعمل » .

وعندما اتصل يورى تليفونيا بالمستشفى صباح اليوم التالى ، تلقى منه حارس الباب سؤاله ، ثم أمهله حتى يستفسر له عما يريد . وبعد أن تركه عشر دقائق عسيرة ، عاد إليه بهذه الإجابة المقتضبة ، المصوغة فى كلمات جافة : « إنهم يقولون إنك أحضرت زوجتك قبل الأوان ، وإن عليك ان تأتى لتأخذها ! » .

وطلب منه يورى ثائرا ان يرسل فى طلب شخص مسئول ليتفاهم معه .. وعندما جاءت الممرضة أخيرا ، أجابته بقولها إن أعراض الولادة التى ظهرت على زوجته كانت اعراضا كاذبة .. وان عليه الا يقلق لشىء ، فقد تستمر هذه الحال يوما أو يومين ..

وفى اليوم الثالث ، قيل له إن نوبات المخاض قد بدأت ليلا ، وإن كيس المياه قد انفجر عند الفجر ، وإن آلام الوضع تتتابع على فترات متقاربة منذ الصباح .

واندفع راسا إلى المستشفى ، وبينما كان يقطع المسافة إلى باب الغرفة الذى كان قد ترك مفتوحا عن طريق السهو ، تناهت إليه صرخات تونيا تمزق قلبه . كانت تصرخ ، وكأنها ضحية حادث .. كأنما كان يسحبها قطار مزق أطرافها تحت عجلاته !

ولم يسمح له برؤيتها .. فأخذ يعض اصابعه حتى أدماها .. ثم مضى إلى النافذة ، وكان المطر لا يزال يهطل كما حدث خلال اليومين السابقين .

وخرجت خادمة العنبر ، فسمع « يورى » مع خروجها

ثغاء طفل مولود لتوه ، فهمس لنفسه فرحا : « لقد نجت ! .. لقد نجت ! » .. وقالت الخادمة بصوت منغم : « إنه ولد .. ولد صغير .. أهنئك بسلامتها » . ثم أضافت : « إنك لن تستطيع رؤيتها الآن .. سيسمح لك بالدخول عندما ينتهى كل شىء .. وعليك حينئذ أن تداعبها وتنسيها آلامها .. قد مرت بها لحظات عصيبة ، فهذه ولادتها الأولى ، والولادة الأولى شاقة فى أغلب الأحيان » .

ولكنه كان يردد فى نفسه فرحا هذه العبارة : « لقد نجت ! .. لقد نجت ! » ، غير ملق بالا لكلام الخادمة التى كانت توجه إليه التهنئة ، وكأنما كان له أى فضل فيما حدث .. إذ ماذا صنع هو فى الحقيقة ، ليصبح أبا .. لطفل ؟ ! إنه لم يصنع شيئا يستطيع أن يفخر به لكسب هذه الأبوة التى هبطت عليه من السماء . أما العظمة الحقيقية ، فهى عظمة تونيا .. تونيا التى خاضت الخطر المحقق ، والتى نجت الآن منه !

وكان أحد مرضاه يسكن على مقربة من المستشفى ، فذهب لعيادته ، ثم عاد إلى المستشفى بعد نصف ساعة .. ومرة أخرى كان باب العنبر والغرفة لا يزالان شبه مفتوحين . وبغير تفكير اندفع يورى إلى العنبر . وإذا به وجها لوجه أمام كبير الأطباء الذى ظهر فجأة كأنما انشقت الأرض عنه ، ليسد عليه الطريق بجسده الكبير ، وثيابه البيضاء .

وخاطبه كبير الأطباء همسا حتى لا يزعج المرضى : « ماذا جئت تصنع هنا ، هل فقدت عقلت يا رجل ؟ .. الجراح والدماء وأخطار التسمم .. ناهيك عن الصدمات النفسية

ايضا .. يا له من سلوك حميـد .. ومنك انت .. انت الذى تسمى نفسك طبيبا ! » .

ـ لم اكن اقصد .. فقط اسمح لى بان القى نظـرة .. نظرة واحدة من هنا فقط ، من خلال هذا المصراع .

ـ حسنا .. لا بأس إذا كنت لا تستطيع صبرا .. ولكن لا تدعنى اضبطك .. وإياك ان تجعلها تراك ، فلو حدث ان راتك ، سأدق انا عنقك .. سأقتلك .. اتفهم ؟

كان بداخل الغرفة امرأتان وقفتا فى ثياب بيضاء ، وقد اعطيتا ظهريهما للباب . كانت إحداهما هى المولدة ، والأخرى هى الممرضة .

وعلى راحة يد الممرضة، رقد مخلوق آدمى حديث الولادة ، يتلوى ويمد أطرافه ويقبضها ، وكأنه قطعة من المطاط داكنة الاحمرار .. وكانت المولدة تربط اوعية السرة الدموية قبل ان تقطع حبلها ، وكانت « تونيا » راقدة على فراش العمليات ذى الظهر المتحرك فى وسط الغرفة . وقد بدا الفراش أعلى من المستوى الطبيعى ، بل إن يورى الذى كان لفـرط انفعاله يجسم كل شيء ويبالغ فيه ، قد خيل إليه انها ترقد على فراش يبلغ ارتفاعه نفس ارتفاع المكاتب التى اعدت ليكتب النـاس عليها وهم وقوف !

وكانت الزوجة تستلقى فى إعيـاء على هـذا الفراش المرتفع ، وقد غلفتها سحب من آلامها المنقضيـة .. ولاحت لعينى يورى كانما هى سفينة راسية فى وسط الميناء ، بعد ان

القت حمولتها .. سفينة تخبطت فى بحار الظلمة بين شواطىء العالم المجهول ، وبرور الأمان ، حاملة ارواحا ترتحل فيها لأول مرة .. وها هى ذى إحدى هـذه الأرواح ، قد هبطت إلى الشاطىء . والقت السفينة مراسيها ، وطوت شراعها لتستريح .. كل ما فيها يستريح : شراعها المنصوب ، وهيكلها .. وحتى ذاكرتها ، قد خلت تماما من كل ما مر بها من صور .. من صور الشاطىء المجهول ، والمعبر المظلم ، وبر الأمان!

وكما ان احدا لم يكن يعرف من اى بلد جاءت ، واى علم ترفع ، فكذلك لم يكن احد يعرف بأى لغة يخاطبها ..

وعنـدما عاد يورى إلى المستشفى الذى يعمـل به ، ادهشه وصول النبأ إليه بهذه السرعة ، فقـد جاءه الجميع مهنئين ..

واتجه يورى من فوره إلى غرفة الأطباء ، وكانوا يطلقون عليها اسم « مستودع القمامة » ، فعندما ضاق المستشفى بمن فيه من مرضى ، تحولت هذه الغرفة ايضا إلى غرفة للمعاطف، واصبح الناس يفدون من الخارج إليها بأحذيتهم التى يغمرها الجليد ، فيتركـون فيهـا ما يحملون ، ويلقون على ارضهـا اوراقهم المهملة واعقاب السجائر ..

كان الطبيب المقيم ، واقفا امام النافذة ، وفى يده وعـاء به سائل معتم ، يفحصه امام الضوء خلف نظارته ..

وبادر الطبيب يورى ، من غير ان يلتفت إليه ، بقوله :

ـ تهانينا !

ـ شكرا لك .

— لا .. لا تشكرنى ، فانا لم أصنع شيئا .. لقد قام «بيزوشكيين» بالشريح .. وكم كان تأثرنا جميعا .. فقد ثبت ان سبب الوفاة تسمم الكبد .. نفس تشخيصك .. نعم .. إن هذا حديث الجميع ..

وفى نفس اللحظة دخل كبير الأطباء عليهما ، فحياهما .. ثم قال : « اى لعنة حلت بهذا المكان .. ما هذه الفوضى والقذارة ؟ ! » . والتفت إلى يورى قائلا : « على فكرة يا جيفاجو ، لقد ثبت ان الوفاة نتجت عن تسمم فى الكبد .. تصور اننا جميعا — ما عداك — كنا مخطئين .. إنى اهنئك .. وهناك شىء آخر .. شىء مزعج ، ولكنى لم أستطع دفعه هذه المرة .. لقد طلبوا مرة اخرى ملفات دفعتك .. ولست استطيع المعارضة فى هذه المرة . إن هناك نقصا مخيفا فى الأطباء .. ولسف تستنشق رائحة البارود قبل مرور وقت طويل ! » .

— ٦ —

● ومضت اربعة اعوام منذ استقرت عائلة « انتيبوف » فى (يورياتين) . وقد ساعدهم فى تذليل متاعب إنشاء بيتهم الجديد ، ما حفظه اهل المنطقة من ذكريات طيبة لآن جيشار ، (اسرة الزوجة) .

ولقد اصبحت « لارا » كثيرة المشاغل الآن . كان عليها ان تعنى ببيتها ، وبابنتها « كاتيا » التى اصبحت الآن فى الثالثة من عمرها .. وبالرغم من أن الخادمة ذات الشعر الأحمر « مارفوتكا » كانت تعمل بكل همتها ، فإنها لم تكن تكفى

وحدها للقيام بجميع مطالب البيت .. ولذلك فقد كانت «لارا» تساعدها . وبالاضافة إلى كل هذا ، فقد شاركت لارا زوجها فى جميع مسئولياته ، فالتحقت بوظيفة معلمة فى مدرسة البنات العليا . كانت تعمل بغير انقطاع .. وكانت سعيدة .. فهذه هى الحياة التى كانت تحلم بها تماما .

وكانت تحب (يورياتين) ، فهى مسقط راسها ، وهى تقع على احد الخطوط الحديدية بالأورال ، وعلى ضفة نهر (رينفا) الصالح للملاحة دائما ، (فيما عدا جزء من منابعه العليا) .

وكانت من بوادر اقتراب الشتاء فى (يورياتين) ، أن يسحب الأهالى قواربهم من النهر ، ثم يضعوها على عربات تحملها إلى داخل المدينة ، حيث تلقى على جوانبها فى افنية المنازل ، حتى يحل الربيع .. وكان منظر هذه القوارب ، المقلوبة على جوانبها فى افنية البيوت ، يعنى فى (يورياتين) نفس ما تعنيه هجرة طيور « اللقلق » ، او تساقط الثلوج فى مناطق اخرى .

ولقد كان هناك قارب فى فناء البيت الذى استأجرته عائلة انتيبوف ، وكانت كاتيا تلعب فى ظل شراعه الأبيض ، وكانها فى كوخ من اكواخ المصيف . وافتتنت لارا بعادات يورياتين وتقاليد اهلها .. بلكنتهم الشمالية الممدودة .. باذكيائهم البسطاء المتواكلين ، وارديتهم الرمادية القصيرة الاكمام .. كان كل شىء يجذبها إلى يورياتين : ارضها واهلها البسطاء .. اما باشا ، ابن عامل السكة الحديدية فى موسكو،

الذى طبعته العاصمة بطابعها ، فكان على النقيض من زوجته ، لا يحب اهل يورياتين ، ويقسو كثيرا فى حكمه عليهم .. كان يضيق بهم ، ولا يرى فيهم غير جماعة من الجهلاء الغلاظ !

وكانت له قدرة خارقة على القراءة السريعة ، واستيعاب كل ما يقرأ .. وقد تجلت الآن قدرته هذه .. كان قد قرأ الكثير فى الماضى . وكان يدين ببعض قراءاته للارا . ثم جاء هذا المنفى الريفى فدفعه إلى الإسراف فى القراءة ، إلى حد لم تعد معه « لارا » تبدو امامه مثقفة . اما فى محيط زملائه المعلمين ، فقد بدا البون شاسعا بينه وبينهم ، حتى لقد أصبح يضيق بهم ، ويشعر بالاختناق وهو معهم .. فالآن ، والحرب مشتعلة ، اصبح التجاوب مستحيلا بين مستوى أفكارهم الوطنية المحدودة ، وبين مشاعره الشديدة التعقيد حيال بلاده .

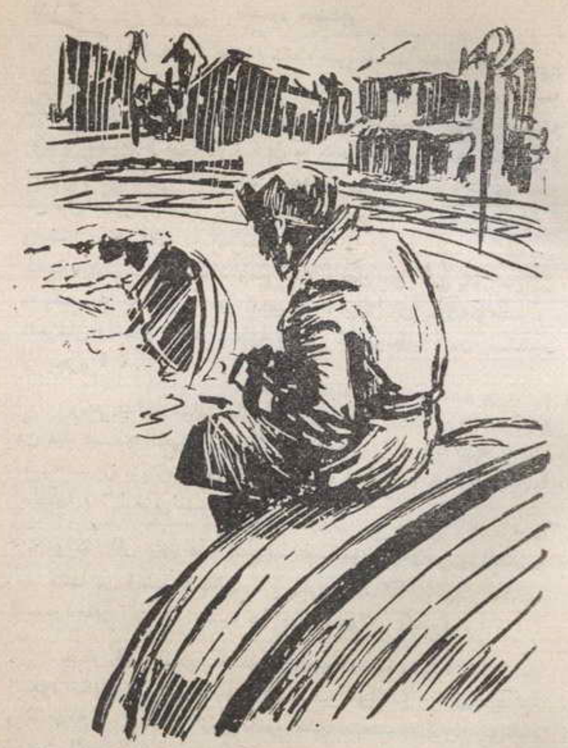
ومع أن « باشا » كان حاصلا على درجته الجامعية فى الدراسات القديمة ، وكان يعلم الآن اللغة اللاتينية والتاريخ القديم ، فانه كان يحتفظ ، منذ ايام الدراسة ، بكثير من الميل إلى الدراسات العلمية ، كالعلوم الطبيعية والرياضيات . وقد عاوده ميله القديم ، فبدأ فى البيت دراسات خاصة فى هذه العلوم ، حتى بلغ المستوى الجامعى فيها ، ثم أخذ يحلم بنيل الدرجة الجامعية فى العلوم ، والانتقال إلى فروع العمل العلمى ، والارتحال بأسرته إلى (بطرسبورج) . وكان الاستذكار المتواصل إلى الساعات المتاخرة من الليل ، قد اثر على صحته ، واورثه القلق .

.. وكانت علاقته بزوجته على ما يرام ، ولكنها لم تكن صافية تماما . وقد ضايقه كثيرا عطفها الزائد واهتمامها الشديد به ، ولكنه لم يكن يبدى لها ذلك ، خوفا من أن تؤول كلمة بريئة من كلماته بانها كلمة لوم او تأنيب ، او إشارة — مثلا — إلى انها ارقى منه عنصرا ، او إلى انها كانت تمت فى يوم من الأيام ، لغيره !

كان يخشى دائما ان تساورها الشكوك فى انه ينظر إليها نظرة غير عادلة ، وهذا ما حال بين كل منهما وبين إطلاق العنان لسجيته . كان كل منهما يحاول دائما ان يكون اشد كرما من صاحبه ، وهذا ما عقد حياتيهما شيئا ما .

وكان لديهما ضيوف فى هذه الليلة : ناظر مدرسة لارا ، وبعض زملاء باشا المدرسين ، واخذ أعضاء المحكمة العرفية التى كان باشا قد انضم إليها اخيرا ايضا ، عدد قليل آخر من الناس . وكان هؤلاء جميعا فى نظر باشا ، جماعة من الأغنياء والحمقى . لذلك ادهشه ان تستطيع لارا ملاطفتهم جميعا ، فلم يكن يستطيع ان يتصور ان هناك فردا واحدا بينهم يمكن ان تحبه لارا .

وقضت لارا وقتا طويلا بعد انصرافهم ، فى إعادة ترتيب غرف المنزل ، غسل الأطباق مع مارفوتكا فى المطبخ . وبعد ما استيقنت من إحكام الغطاء على كاتيا ، ومن ان باشا قد نام ، خلعت ملابسها بسرعة ، واطفأت النور ، وتسللت برقة إلى جواره فى الفراش ، كما لو كانت طفلا يأوى إلى فراش أمه !



وجلس باشا على القارب المقلوب .
ورفع عينيه يرقب النجوم ..

على ان باشا لم يكن نائما ، وإنما كان يدعى النوم فحسب ، فما اكثر ما كان الأرق يصيبه فى هذه الأيام ! ولعلمه بأنه لن يستطيع النوم لساعات طويلة ، نهض من فراشه بهدوء ، وارتدى — فوق ثياب نومه — معطفه المصنوع من الفرو ، وقبعته .. ثم مضى خارجا .

كان الليل صافيا شديد البرودة ، وشرائح الثلج تنسحق كالدقيق تحت قدميه . وكانت السماء بنجومها الوضيئة ترسل على الأرض السوداء ، بما يعلوها من كتل الطين المتجمد ، اشعة زرقاء باهتة تخفق كما يخفق اللهب المتصاعد من الكحول المشتعل .

كانت عائلة انتيبوف تعيش فى طرف البلدة المقابل للميناء ، وكان المنزل يقع فى نهاية الطريق ، حيث يمتد أمامه حقل ، تقطعه قضبان السكة الحديد ، ويرتفع عليها من امامه مزلقان للمرور ، وكوخ للإشارت .

وجلس باشا على القارب المقلوب . ورفع عينيه يرقب النجوم .. وسيطرت عليه بشدة افكاره التى اعتادت ان تنتابه خلال الأعوام الماضية . وبدا له انهما إن عاجلا او آجلا ، سيفكران فى وضع حد لما بينهما .. وأن هذا يمكن ان يحدث الآن ..

إن هذه الحال لا يمكن ان تدوم ، ولقد كان عليه ان يدرك ذلك قبل الزواج بوقت طويل . لماذا تركته يتعلق بها وهو بعد طفل ؟ وحتى فى تلك الأيام ، كانت تستطيع ان تجعله يصنع ما تشاء . لماذا لم يستمع إلى صوت العقل ، فيقطع صلته بها

فى الوقت المناسب ، عندما كانت هى نفسها تصر على ذلك ؟ الم يكن واضحا ، انه لم يكن الشخص الذى أحبته هى ، وإنما كانت تؤدى واجبا فرضته على نفسها فرضا ، وقامت بأدائه بكل ما تستطيع من كرم ؟ ! إن ما كانت تحبه ، هو صورة بطولتها . ولكن ما شأن شيء كهذا ، مهما كان ما ينطوى عليه من نبل جدير بالتقدير .. ما شأنه بالحياة الزوجية الحقة ؟ واسوا ما فى الأمر ، إنه ظل يحبها كما احبها دائما .. فقد كانت فياضة اللطف . ومع ذلك ، فهل هو على يقين من أن ما يشعر به نحوها هو الحب ، الا يمكن ان يكون نوعا من العرفان المضلل ، لما احاطته به من كرم ولطف ؟ من يستطيع ان يجزم ؟ !

ومع هذا ، فماذا عليه أن يصنع ؟ ايحل زوجته وابنته من قيد هذه الحياة الزائفة ؟ . إن هذا فى حد ذاته لا يقل اهمية — بل يزيد — عن تحرير نفسه ! ولكن ، كيف السبيل ؟ ايطلقها ؟ ! ايغرق نفسه ؟ !

ولكنه ثار على هذه الخواطر ضائقا ، وقال: « يا للحقارة .. كانما من المستطاع أن يأتى مثلى عملا كهذا ! وإذن فلماذا اسمح لعقلى بأن يكون مسرحا لهذه الخواطر السوداء ؟ ! » .

ونظر إلى النجوم ، كأنما يطلب النصح منها .. كانت النجوم تخفق فى السماء .. الصغيرة والكبيرة ، الوحيدة ، والمتجمعة .. بعضها ازرق ، وبعضها متعدد الألوان . وفجاة اختفت النجوم جميعا ، وسطع ضوء قوى خاطف على البيت ، والفناء ، وعلى القارب الذى جلس عليه باشا ، وكأن شخصا

قد اندفع يجرى من الحقل إلى المنزل ، حاملا فى يده شعلة متوهجة ..

ومرق فوق المزلقان قطار حربى ، ينفث سحبا من دخان اصفر ، كاللهب والدخان اللذين تطلقهما القذائف النارية فى السماء . واختفى القطار متجها إلى الغرب ، شأن القطارات التى لا تحصى ، التى ظلت تمر من نفس الطريق ، طوال العام ..

وابتسم باشا ، ونهض عائدا إلى فراشه ..

لقد وجد الجواب .

— ٧ —

● ذهلت «لارا» عندما سمعت قرار زوجها ، ولم تصدق اذنيها أول الأمر .. قالت فى نفسها : « هذا جنون . إنه يهذى .. لن القى بالا إلى ما يقول ، ولسوف ينسى ! »

ثم اتضح انه كان يعد نفسه طيلة الأسبوعين الماضيين فقد ارسل أوراقه إلى مكتب التجنيد ، وعينت المدرسة التى يعمل بها من يحل محله . وقد تلقى هو الأمر بالذهاب إلى مدرسة التدريب العسكرى فى (اومسك) .

وولولت «لارا» كنساء القرى .. وتشبثت بيد «باشا» ، وتمرغت تحت قدميه ، وراحت تصرخ : « باشا .. باشا .. أيها الحبيب ، لا تتركنا .. لا تتركنا .. لم يفت الوقت بعد ، سأتدبر انا كل شيء .. إنك لم تفحص بعد طبيا كما يجب .. وإن قلبك ... ماذا .. هل يخجلك ان تغير رايك ؟ .. والا

يخجلك ان تترك اسرتك من اجل خاطر جنوبى ؟ انت ..
تصبح متطوعا ! لقد كنت طول حياتك تسخر من « روديا » ،
فهل اصبحت تغار منه ؟ .. تريد أن تخطر فى ثياب الضباط ،
وان تصلصل بسيفك انت ايضا ؟ لا .. لست انت من نعرفه
.. إنى بالكاد اتبينك .. ما الذى غيرك هكذا ؟ قل لى بصراحة
.. قل لى من اجل المسيح .. قل لى ، بغير تنميق فى الكلام ،
اهذا حقا هو ما تحتاج إليه روسيا ؟ » .

ادركت فجاة ان هذا لم يكن السبب مطلقا . وعلى الرغم من انها لم تدرك كل شيء ، فقد استطاعت ان تلمح جوهر الامر . لقد اخطا باشا فهم موقفها منه ، لقد ثار على مشاعر الأمومة التى كانت — طول حياتها — تكون عنصرا من عناصر عاطفتها نحوه ، ولم يستطع ان يدرك ان حبها له كان اكثر من ذلك كثيرا .. وإنه لم يكن يقل — على اى حال — عن اى حب طبيعى تشعر به امراة نحو رجل !

وعضت على شفتها ، واجفلت كمن أصابته ضربة .. ثم ابتلعت دموعها ، واقبلت فى صمت تحزم له أشياءه ..

واحست بعد رحيله كان المدينة كلها قد خيم عليها الصمت .. حتى الغربان التى كانت تطير فى الجو ، قد قل عددها . وعبثا حاولت « مارفوتكا » — الطاهية — ان تردها إلى نفسها ، منادية إياها : « سيدتى .. سيدتى » .. وعبثا راحت طفلتها تجذبها من كمها صائحة : « ماما .. ماما » .. فلقد احست انها تلقت اكبر هزيمة فى حياتها . لقد تحطمت اجمل آمالها وابهرها !

* * *

وكانت الخطابات التى ارسلها إليها باشا من سيبريا تكشف لها عن كل احواله . لقد بدا يرى الأمور اكثر وضوحا . بدا يفتقد زوجته وابنته . ولكن الاختيار وقع عليه بعد بضعة اشهر كحامل للعلم فى مهمة طارئة .. ومرة أخرى ، وفجاة ايضا ، ارسل إلى الميدان . ولم تقده رحلته إلى اى مكان قريب (يورياتين) .. وعندما هبط موسكو ، لم يكن لديه وقت ليرى اى إنسان .

وبدت رسائله التى ارسلها من الميدان اقل حزنا . لقد كان يسعى إلى إحراز تفوق ما ، حتى يكافأ عليه بإجازة قصيرة يرى فيها اسرته ، بل تمنى أن يصاب بجرح خفيف يتيح له نفس هذه الفرصة .. وما اسرع ما واتته الفرصة ، كانت قوات « بروشيليوف » قد تسللت وبدات الهجوم . وتبع ذلك توقف وصول اى رسالة من باشا . ولم تنزعج لارا اول الامر ، فقد ارجعت عدم كتابته إلى انشغاله بالعمليات الحربية ، فليس من المستطاع ان يكتب الجندى أثناء تحركات كتيبته . ولكن الخريف اقبل ، وتباطا تقدم القوات التى اخذت تحفر الخنادق لنفسها ، ورغم ذلك لم تصلها منه كلمة واحدة ! عندئذ ساورها القلق ، وبدات تتحرى عنه فى كل مكان . سالت عنه اولا السلطات المحلية فى يورياتين، ثم ارسلت تسال عنه بالبريد فى موسكو .. ثم كتبت إليه على جميع عناوينه السابقة فى الخدمة . ولم يصلها اى رد مفيد .. لا احد يعرف عنه شيئا على الاطلاق !

وبدات لارا ، ومعها بعض السيدات ، يعملن كمتطوعات فى عنبر الجرحى بمستشفى المدينة . وإذ اتمت تدريبها ،

ونالت إجازة التمريض ، استأذنت المدرسة التى تعمل بهـا فى التغيب عنها لمـدة ستة شـهور . وتركت بيتهـا فى رعاية « مارفوتكا » ثم أخذت « كاتيا » إلى موسكو ، حيث تركتهـا عند « ليبا » . وكانت ليبا تعيش الآن وحدها ، لأن زوجهـا الألمانى الجنسية « فرايسندانك » كان قد زج به فى معسكرات الاعتقال ، كأحد الرعايا المدنيين للأعداء .

وكانت لارا قد قررت أن تذهب بنفسها للبحث عن باشا ، بعد أن ثبت لها بوضوح عقم كل محاولة أخرى لمعرفة أنبائه . ولهذا فقد حصلت على عمل كممرضة فى قطـار طبى يستعمل كمستشفى متنقل ، كان متجهـا إلى الحدود المجرية ، عبـر مدينة (ليسكى) ، آخر مكان كتب إليها « باشـا » منه !

— ٨ —

● وصل قطار الصليب الأحمر فى مقر قيادة الفرقة محملا بمعدات جمعتها جمعية (تايانا) لمساعدة المصـابين ، وكان القطار القديم يسحب رتلا طويلا من عربات البضاعة القصيرة القبيحة المنظر . وفى ديوان الدرجة الأولى ، الوحيد فى هـذا القطار ، جلست نخبة من أهل موسـكو ، تحمل الهدايا إلى القوات . وكان « جوردون » يجلس بين أفراد هذه الجماعة . لقد عـرف أن صديق طفولته « جيفاجو » يعمل بمستشـفى الفرقة ، وإذ فهم أن المستشفى يقع فى قرية قريبة ، فقد حصل على إذن بالسفر إلى المنطقة ، التى تقع خلف خطوط القتـال مباشرة ، وركب عربة كانت ذاهبة إلى هناك .

كان سائق العربة من أهالى (بيلوروسيا) — أو توانيا —

الذين يتحدثون بلهجة روسية محرفة ، وكان حديثه لا يتجاوز بضع عبارات رسمية تافهة كان أمثاله يلتزمونها خوفا من حمى التجسس التى انتشرت بشـكل جنونى . ولهـذا فقد قطع جوردون أكثر الطريق فى صمت .

وكان القوم فى مقر القيادة — حيث تتابع تحركات الجنود. وحيث تقاس المسافات بوحدات أقلها مائة ميل — قد أخبروه أن القرية على مقربة منهم ، وقدر هـو أن تكون على مسـافة خمسة عشر ميلا مثلا . . ولكنها كانت فى الحقيقة تبعد أكثر من خمسين ميلا .

وظلت تتناهى إلى أسماعهما على طول الطـريق دمدمة تجمعات غاضبة معادية ، عند الأفق إلى يسارهما . . ولم يكن قد سبق لجوردون أن عاش فى بقاع بركانية ، ومع ذلك ، فقد خيل إليه أن ما يطرق سمعه من الأصوات الكئيبة البعيدة غير المتميزة ، التى تصـل إليه من مدفعية الأعداء ، هو أقـرب الأشياء شبها بانفجارات البراكين وهزاتها . وقبيل المساء ، لمع وهج وردى عند حافة الأفق فى ذلك الجانب ، وظل يخفق عاليا حتى الفجر . .

ومرت بهما كثير من القرى التى أصابها الخراب والتدمير . . كان الناس قد هجروا بعضها ، وكانوا فى البعض الآخر يعيشون فى مخابىء عميقة تحت الأرض . وكانت الأنقاض تبدو لهما فى صفوف تحدد أماكن الدور القديمة . وكنت تستطيع أن تلمح فى نظرة واحدة ما خلفته الحـرائق التى التهمت بقاعـا بأسرها ، فلم تبق منها سوى قفار مجدبة .

وانتثرت العجائز هنا وهناك بين الأطلال والخرائب ، كل منهن على أنقاض منزلها .. وكانت كل منهن تنبش بيديها فى الأتربة والأنقاض ، لتستخرج بين وقت وآخر شيئا تضمه جانبا، محتمية بالطلل من أعين الغرباء والمارة ، وكأنما لا زالت ترى فيه آثار جدران منزلها ..

وكان ينظرن إلى جوردون، ويتابعنه بعيونهن وهو ماض فى الطريق ، وكأنما يسألنه ، متى يسترد العالم صوابه ، ويعود السلام والأمن والنظام إلى الحياة ؟ !

وعندما أقبل الظلام ، التقت بهما إحدى الداوريات ، وأمرتهما بأن يتركا الطريق الرئيسى فورا ، ولم يكن السائق يعرف طريق العربات الجديد ، فظلا يتجولان على غير هدى قرابة ساعتين .

ووصلا عند الفجر إلى قرية تحمل نفس الاسم الذى كانا يبحثان عنه . ولكنهما لم يجدا فيها من يعرف أى شىء عن المستشفى . ثم اتضح لهما أن هناك قريتين تحملان نفس هذا الاسم . واخيرا ، عند الصباح ، بلغا القرية التى يقصدانها ، وبينما كانا يعبران طرقاتها المعبأة برائحة « الكاموميل » و « اليودوفورم » ، قرر جودون فى نفسه الا يقضى الليل فى القرية ، وإنما يكتفى بسحابة النهار .. حتى إذا اقبل المساء ، مضى إلى محطة السكة الحديدية ، حيث ترك اصدقاءه ولكن الظروف التى تلت ذلك ، ارغمته على البقاء اكثر من اسبوع !

— ٩ —

● كانت الخطوط الامامية قد بدات تحركاتها ، إذ كانت قواتنا قد استطاعت أن تحدث ثغرة فى صفوف الأعداء ، فى

الناحية الجنوبية التى وجد جوردون نفسه فيها . ثم تبعتها الامدادات المساعدة ، التى اخذت فى توسيع الثغرة ، ولكنها سقطت خلف خطوط الأعداء ، وانقطعت الصلة بينها وبين الوحدات المتقدمة ، فتم اسرها .. وكان الملازم « انتيبوف » بين الأسرى ، فقد اضطر إلى تسليم نفسه عندما استسلمت وحدته .

واعتقد الجميع أن قنبلة قتلته ، ودفنة الانفجار . وكان مصدر هذا الاعتقاد ما قاله صديقه « جاليولين » ، الذى كان يرقب المعركة بمنظار الميدان من إحدى نقط المراقبة ، عندما كان « انتيبوف » يقود الهجوم .

وكان ما رآه جاليولين هو الصورة المألوفة لوحدة مهاجمة .. فقد تقدم الرجال يتواثبون بخطى سريعة ، عبر ارض لا يحرسها احد ، وقد جفف الخريف والحقول ، واخذ القش يتماوج مع الرياح ، تتخلله اشجار الشوك الجامدة . وكان هدفهم إما أن يرغموا النمساويين على التدفق خارج خنادقهم ، ليشتبكوا معهم بالسلاح الأبيض ، أو أن يبيدهم بقنابلهم اليدوية . وكانت الساحة تبدو بلا نهاية امام أعين المهاجمين ، والأرض تميد تحت أقدامهم ، وكأنهم يتواثبون فوق مستنقع رطب .. وكان حامل بيرقهم يتقدمهم أول الأمر ، ثم اصبح يحاذيهم ملوحا بمسدسه الذى يرفعه فى يده، وقد اتسع فمه إلى أذنيه ، وهو يهتف بصيحات النصر ، التى لم يكن هو نفسه يسمعها ، ولا احد من المتقدمين ، وكانوا بين لحظة واخرى ينبطحون ارضا ، ثم يهبون مندفعين إلى الأمام وقد

علا صياحهم .. وفى كل مرة كان يسقط بينهم مصاب او اثنان ، وكان سقوط هؤلاء يختلف فى طريقته عن انبطاح الآخرين ، فقد كانوا ينكفئون على وجوههم ، وكأنهم جذوع أشجار اجتثت من الغابة .. ثم لا ينهضون ثانية !

وصاح « جاليولين » بضابط المدفعية الواقف إلى جواره قائلا: « فلتبدأ المدفعية فى تغطيتهم، فقد جاوزوا الأهداف.. »، ثم قال: « لا .. انتظر .. كل شىء على ما يرام » .

وكان المهاجمون على وشك الاشتباك مع العدو ، عندما توقف ستار المدفعية .. وخلال الصمت المفاجىء الذى تلا سكوتها ، سمع المراقبون دقات قلوبهم ، وكأنما هم ايضا — كأنتيبوف — قد بلغوا برجالهم خنادق العدو ، متوقعين منهم فى الدقائق التالية ان يحققوا المعجزات بشجاعة لا حدود لها ..

وفى هذه اللحظة ، رأى المراقبون قنبلتين المانيتين من عيار ١٦ بوصة تنفجران امام المهاجمين . وتصاعدت سحب سوداء من التراب والدخان ، فأخفت عن اعينهم كل ما تبع ذلك .. وهمس جاليولين ، وقد ابيضت شفتاه : « يا الله .. لقد انتهى كل شىء » .. واعتقد ان حامل البيرق وجميع رجاله قد قتلوا .. ثم سقطت قنبلة اخرى بالقرب من مركز المراقبة ، وانفجرت بشدة ، واسرع المراقبون يلتمسون النجاة بعيدا عن موقع الانفجار ..

وكان جاليولين قد شارك صديقه انتيبوف فى حفر الخنادق . منذ اعتبر انتيبوف مفقودا ، كلف صديقه بالمحافظة

على مخلفاته لتسليمها لأرملته ، وكان لها بين مخلفاته كثير من الصور الفوتوغرافية المختلفة ..

وكانت الأوامر قد صدرت اخيرا بترقية جاليولين ، العامل الميكانيكى ، ابن « جيمازيدين » ، حارس مجموعة عنابر السكنى التى كان (تيفرزين) يقيم فى احدها . وكان جاليولين هو نفسه الصبى الذى كان يعرف فيما مضى باسم يوسوبكا ، والذى ضربه «خودولييف» رئيس العمال ذات يوم!

ولترقية جاليولين قصة : فذات يوم وجد نفسه — على الرغم منه ، ولغير سبب واضح — قد عين قائدا لحامية فى بلدة صغيرة فى المؤخرة . وكانت الحامية مكونة من عدد من اشباه المرضى العاجزين ، وقد عكف رؤساؤهم — الذين لا يقلون كهولة عنهم — على تدريبهم كل صباح على ما نسيه افريقان كلاهما : الجنود ، والذين يدربونهم !

وكان عليه ان يشرف على التدريب ، وعلى تغيير نوبات الرجال المنوطين بحراسة الذخيرة ، ولم يكن احد يطالبه بشىء اكبر من هذا . ولم يكن هناك ما يشغله فى الوجود ، عندما وفد المجندون الذين استدعوا حديثا من موسكو ، ليكونوا تحت إمرته ، واستطاع ان يتبين بينهم الشخصية التى لا يستطيع ان ينساها : « بيوتر خودولييف » .

وتمتم جاليولين بمرارة : « هذا انت ايها الصديق القديم ! ؟ » .. واجاب خودولييف محييا فى وقفة الانتباه : « نعم يا سيدى .. » .

وكان من المستحيل ان يقف الأمر عند هذا الحد .. فعند اول خطأ وقع فيه الجندى الجديد اثناء التدريب ، زمجر الضابط فيه بغلظة شديدة . وعندما ادار الجندى عينيه ، غير عابىء بموقف الانتباه المفروض عليه ، لطمه بشدة على فكه ، وعاقبه بالحبس الانفرادى يومين ، على الخبز الجاف والمـاء !

وبدات صلة جاليولين بهذا الجندى الجديد تتسم بطابع الانتقام ، الأمر الذى لم يكن يبدو لائقا ، ولا اخلاقيـا ، لعدم تكافؤ الرجلين ، وما تكفله النظم العسـكرية لأحدهمـا من سلطان لا حد له على الآخـر . ولكن ، مـاذا كان جاليولين يستطيع ان يصنع ، وقد تبين له ان مكانا واحـدا لا يمكن أن يضمهما معا ؟ .. باى مبرر يستطيع ضابط ان ينقل جنديا من وحدته ، وإلى اى مكان ينقله ، إن لم يكن هـذا النقل بسبب مخالفة الجندى للنظام العسكرى ؟ ومن جهة اخرى ، على اى اساس يستطيع هو ان يطلب نقل نفسـه ؟ .. واخيرا ، قرر ان يطلب نقل نفسـه إلى الجبهة ، مبررا طلبه بتبرمه بعمله الضئيل فى حاميته .. واكسبه هـذا الطلب سـمعة طيبة فى الجيش ، ثم ساعدته مزاياه الاخـرى فى إثبـات صـلاحيته كضابط ، فرقى إلى رتبة الملازم .. وهكذا صار يدين بترقيته إلى من كان يعذبه قديما !

وكان جاليولين يعرف باشا انتيبوف من ايام «تيفرزين» ، عندما امضى « باشا » معهم ستة اشهر من عام ١٩٠٥ . وكان « يوسوبكا » ـ جاليولين ـ يذهب ليلعب معه فى ايام الأحد . وهناك قابل لارا مرة او مرتين ، ولكنه لم يسمع عن احد منهما

منذ ذلك الوقت . وعندما اتى انتيبوف قادما من (يورياتين) ، والتحق بالكتيبة ، دهش جاليولين دهشة عظيمة للتغير الذى الذى اصاب صديقه . فقد كان معروفا بحيائه الجم ، وخفره الذى يشبه به الفتيات الصغيرات ، فإذا هو الآن عالم مستكبر كثير الوساوس والشكوك ، ذكى ، شجاع ، قليل الـكلام ، ساخر . وعند ما كان جاليولين يرى نظرات الحزن فى عينيه ، كان يستطيع أن يقسم انه يرى من خلالهما شيئا ما ، وكأنهما نافذتان تشفان عما وراءهما .. اما هـذا الشىء ، فقد يكون فكرة تملكته ، او شوقا مبرحـا لابنته وزوجته . كان انتيبوف يبدو له تائها مسـلوب الإرادة ، كبعض اشخاص القصص الخرافية . وها هو انتيبوف قد راح ، وبقى جاليولين وحده ، حاملا اوراقه وصـوره الفوتوغرافيـة ، وذلك السر الدفين الغامض ، الذى احدث فيه كل هذا التغير ..

وحدث ما كان لا بد ان يحدث عاجلا أو آجلا ، فقد بلغت انباء استفسارات لارا عن زوجها اسماع جاليولين ، وكان قد حاول قبل ذلك ان يكتب إليها ، ثم شغلته الشواغل ، فقد كان كل وقته مشـحونا بالعمل ، فلم يجد فرصـة ليكتب إليهـا ما يستطيع به إعدادها لتحل الصـدمة .. وهكذا ظـل يؤجل الكتابة يوما بعد يوم، حتى سمع بوجودها فى مكان ما بالجبهة، حيث تقوم بالتمريض .. وحتى عند ذلك ، لم يستطع ان يعرف العنوان الذى يكتب إليها فيه ..

— ١٠ —

● كان جوردون يسال الدكتور جيفاجو كلما عاد لتناول الغداء فى الكوخ الذى اتخذاه لهما :

— ايمكن ان نجد خيلا اليوم ؟

واجاب الدكتور جيفاجو :

— لا امل فى ذلك .. وعلى اى حـال ، فإلى اى مكان ستذهب ؟ إنك لا تستطيع ان تتحرك يمينـا او يسـارا .. فالاضطراب يسود المنطقة بأسرها ، ولا احد يستطيع ان يجزم بشىء . ففى الجنوب ، قد استطعنـا ان نتغلب على جنـاح الجيش الألمانى فى بعض الأماكن ، واخترقنا خطوطه فى اماكن اخرى . وقيل لى إن عدة وحدات لنا قد غلبها التحمس ، فادى بها إلى الأسر .. اما فى الشمال ، فقـد اجتاح الألمان منطقة (سفنتا) من موقع كنا نظن انه لا يقهـر ، وكان فرسانهم الذين لا يزيدون عن كتيبـة فى قوتهم ، هم الذين اخترقوا ذلك الموقع .. وهم ينسفون الآن السـكك الحديدية ، ويدمرون مخازن الذخيرة ، وفى اعتقادى انهم الآن يطوقوننا .. هذا ما نحن فيه ، وانت تتحدث عن الخيل ؟ ! » .

واضاف جيفاجو موجها الكلام للجندى :

— هيا يا كارينكو .. تحرك واعد المـائدة .. ماذا لدينا للعشاء ؟ ! كوارع عجالى ؟ ! عظيم !

كانت الوحدة الطبية ، بمستشفاها وملحقاتهـا ، قـد وزعت نفسها فى انحاء البلدة التى لم تصب بضرر ما .. وكانت المساكن تتالق بنوافذها الاوربية النمط ، ممتـدة من جدار إلى جدار ، لم يتحطم منها شىء .. ولا لوح واحد من زجاج !

وبدا الجو الذى كان يشبه جو الخريف الأصفر الدافىء ، يتحول إلى صيف شديد القيظ ، واضـطر الأطبـاء إلى فتح النوافذ اثناء النهار ، ومطاردة جماعات الذباب الزاحفـة على

اعتاب النوافذ والسقوف المنخفضة البيضاء . وقد فكوا ازرار ارديتهم ومعاطفهم ، واعتادوا — وهم يتصببون عرقـا — ان يرتشـفوا مرق الكرنب ، او الشـاى السـاخن الذى يلهب شفاههم ..

اما فى المساء ، فكانوا يجلسون للعب الورق ، أمام المدافىء التى توقد بكتل الخشب الرطب ، فترسل سحبا من الدخـان تؤذى عيونهم ، فيصبوا لعناتهم على الجنود الذين لا يعرفون كيف يوقدون النار ..

كان الليل يرخى سدوله ، وقد رقـد جوردون وجيفاجو فى قمرتين متقابلتين تفصل بينهما مائدة العشاء ، وقطرات المطر تبلل زجاج النافذة المنخفضة الممتدة على طول الجدار . وكانا قد فتحا جانبا من زجاج النافذة ليتسرب الدخان الذى يمـلأ الغرفة ويزيد من حرارتها ، وليستنشـقا نسيم ليل الخـريف المنعش . وكالمعتاد كانا يتحدثان ، وكالمعتاد ايضا كانت السماء تتالق عند الأفق بلونهـا الوردى .. ومن وقت لآخـر ، كانت صدمة قوية تهز الأرض ، وتتخلل اصوات الطلقات المتتابعة ، وكأنها جذع شجرة كبيرة مكسـوة بالحديد ، تجر على الأرض جرا ، فتنتزع قشرتها .

واطرق جيفاجو لدى سماعه ذلك الصوت ، قائلا : « هذه مدافع « برتا » الألمانية من عيار ست عشرة بوصة .. وهذه الطلقة من عيار ستة وثلاثين ثقـلا ، كل منهـا يزن سـتين لبرة .. » .

وعندما استأنفا حديثهما بعد ذلك ، كان قد نسى فيما كانا يتحدثان !

وسأل جوردون : « ما هذه الرائحة التى تملأ البلدة ؟! » .. ثم قال : « لقد لاحظت وجودها منذ جئنا هنا .. رائحة مقززة تبعث على الغثيان كالرائحة المنبعثة من الجرذان ! » .

فاجاب جيفاجو : « أعرف ما تعنى .. إنها رائحة نبات القنب ، فهم يزرعونه بكثرة هنا . وبالاضافة إلى ما يحمله هذا النبات من روائح عفنة كرائحة الرمم ، فلا تنس اننا هنا فى منطقة القتال، وان جثث القتلى تبقى عارية فى حقول القنب حتى يصيبها العفن ، فتمتزج رائحتها برائحة النبات .. نعم .. لا شك ان رائحة الجثث تملأ الجو هنا فى كل مكان .. وهذا طبيعى جدا .. اتسمع ؟! .. هذه مدافع برتا مرة اخرى !» .

وكانا فى الأيام الأخيرة قد تطرقا بالحديث إلى كل شىء تحت الشمس .. وكان جوردون قد عرف كل آراء صديقه عن الحرب ، وعن الروح السائدة فى هذه الأيام . كان جيفاجو قد حدثه عن الصعوبة التى يجدها فى فهم هذا المنطق الوحشى الذى يبررون به تبادل الإبادة ، او فى اعتياد رؤية الجرحى .. وعن الهول الذى يلقاه من منظر الجراح المتقرحة التى ابتلينا بها فى هذه الأيام ، وعن الألم الذى يغشاه كلما تصور حياة المشوهين الذين احالتهم فنون الحرب الحديثة إلى مسائخ من اللحم المشوه ..

وكان جوردون قد عانى بدوره من رؤية هذه المناظر الاليمة البشعة ، فى جولاته اليومية مع جيفاجو . وكان يستنكر من نفسه موقف المتفرج السلبى ، وفى وقت يقاسى فيه الآخرون بشجاعة لا مثيل لها ! .. يستنكر ان يكتفى بمراقبة الجهد الذى يتغلبون به على مخاوف الموت ، وهو جهد يفوق طاقة البشر .. وان يرى ما يندفعون إليه من مخاطر ، وما يدفعونه

من ثمن .. ولكنه لم يفطن إلى ان مجرد البكاء عليهم لم يكن اقل نكرا من كل هذا ! .. كان يرى فى مسلكه المسلك البسيط الأمين الذى تقضى به عليه الظروف التى أوجدته الحياة فيها ..

وكان قد أدرك كيف يضعف الإنسان لمراى الجراح .. ادرك ذلك من تجربته الشخصية عندما زار إحدى وحدات الصليب الأحمر المتنقلة ، خلف خطوط القتال : فقد ذهبا إلى ارض خلاء فى داخل غابة خربتها بشدة نيران المدفعية . وكانت عربات المدافع المحطمة مبعثرة بين حطام الأشجار الهاوية .. وثمة حصان موثق إلى جذع شجرة .. وفى وسط بيت تابع لإدارة الغابات قد سقط نصف سقفه ، وقد اتخذ منه مركز للإسعاف ، واقيمت خيمتان إلى جواره على جانبى الطريق الموصل إليه ..

وقال جيفاجو لجوردون : « لم يكن ينبغى لى ان احضرك معى .. إن خنادق الجنود على بعد ميل او اثنين ، ومدفعيتنا : هناك خلف الغابة . إن فى استطاعتك ان تسمع ما يدور هناك ، ولذلك فإياك ان تجرب القيام بدور البطل ، فلست اصدقك إن حاولت .. وما اظنك قادرا إلا على ان تجمد فى لحظة واحدة من الرعب والهول .. وهذا طبيعى على اى حال ..وفوق هذا ، فقد يتغير الموقف فى اى لحظة ، ويبدأ العدو فى قصفنا بقنابله » .

وكان الجنود الصغار ، بأحذيتهم الثقيلة ، وثيابهم المغبرة التى سود العرق أكتافها وصدورها ، يتمددون على جانب من الطريق . وقد رقد بعضهم على ظهره ، وانكفأ الآخرو بوجوههم إلى الأرض .. كان هؤلاء الجنود هم البقايا

الحية من الفصيلة التى عزلت عن الخطوط الأمامية بعد اربعة ايام من القتال المرير ، وقد جىء بهم إلى المؤخرة ليحصوا على راحة قصيرة . كانوا يرقدون بلا حس كأنما قدوا من حجر . . لا حركة ، ولا ابتسامة ، ولا كلمة سباب ! وحتى عندما كانت العربات الثقيلة العديدة تملأ الطريق صخبا إلى جوارهم ، لم يحاول احد منهم ان يرفع راسه ، او يستدير بها ليرى شيئا مما حوله .. وكانت العربات المارة من عربات المؤن غير المسقوفة، وقد حملت بالجرحى ، وراحت تطحن عظامهم وتلوى ضلوعهم وجذوعهم ، فى قفزاتها المتتابعة على الطريق إلى وحدة الاسعاف .. وهناك كانت جراحهم تضمد بسرعة ، والعمليات الجراحية تجرى للحالات العاجلة. كانوا قد التقطوا منذ نصف ساعة من امام الخنادق فى ساحة القتال ، عندما هدات نيران المدفعية قليلا ، وكان اكثر من نصفهم يرتمى فى العربات فاقد الوعى .

وعندما وقفت العربات امام شرفة مكتب الإسعاف ، هبط الأنفار السلالم حاملين النقالات ، واخذوا يفرغون الجرحى عليها . بينما ازاحت ممرضة طرف إحدى الخيام، ووقفت تنظر إلى ما يجرى ، وقد بدا عليها انها فى وقت فراغها . وخرج رجلان من خلف الخيام ، وسارا فى الطريق متجهين إلى المكتب، وقد اخذا يتناقشان بصوت عال ، يتردد صداه بين الأشجار الطويلة الفتية ، فيصعب على السامع من بعيد فهم ما يقولان من كلمات .

كان احدهما ملازما شديد العصبية ، يصرخ فى صاحبه ، طبيب الوحدة ، سائلا إياه عن حامل مدفع كان هناك فى الفضاء وقد اختفى ، ويريد ان يعرف اين هو الآن ! ولم يكن الطبيب

يدرى شيئا من ذلك — فليس هذا من شانه — فراح يرجوه ان يكف عن الصياح ، وان يتركه يؤدى عمله ، بعد ان وصل الجرحى . ولكن الضابط استمر يسب الصليب الأحمر ، والمدفعية ، والدنيا باسرها .. !

واقبل جيفاجو على الطبيب ، فتبادلا التحية ، ثم دخلا معا إلى المكتب .

اما الملازم الذى كان لا يزال يملأ الدنيا صياحا وسبابا ، فقد فك وثاق جواده المسرج ، وقفز إلى ظهره ، ومضى مسرعا فى الطريق إلى الغابة .. وكانت الممرضة إذ ذاك لا تزال فى وقفتها .. وسرعان ما بدا عليها الرعب ، وانطلقت تصيح : « ماذا تصنعان ، هل فقدتما وعيكما ؟ ! » .. وكانت توجه كلماتها إلى جنديين جريحين ، قد قاما يسيران بغير مساعد بين الخيام ، ثم انطلقت مسرعة إليهما ..

وكان الجند حينئذ يحملون جريحا مشوها بصورة وحشية غريبة .. فقد اصابته فى وجهه شظية ، لم تقتله ، ولكنها احالت لسانه وشدقيه إلى خبيصة حمراء ، واستقرت فى عظام فكه الممزق ! .. وكان يئن انينا قصيرا بصوت خفيض لا يشبه صوت الإنسان فى شىء .. كان انينه اشبه برجاء يائس لمن حوله ان يسرعوا بالاجهاز عليه ، ليضعوا حدا لعذابه الذى لا يستطيع احد تصوره .

وادركت الممرضة ان الجريحين اللذين نهضا يسيران بين الخيام ، قد تاثرا لصرخات هذا الجريح ، وانهما على وشك انتزاع الشظية الحديدية المستقرة فى عظام فكه ، بايديهما المجردة ! .. فصاحت فيهما : « لا .. لا تفعلا هذا ،

سيقوم الجراح بهذا العمل بآلاته الخاصة ، إن كان لا بد من ذلك » .

ومضت اثر ذلك تتمتم فى همس عميق : « يا إلهى .. يا إلهى .. خذه إليك .. لا تدعنى اشك فى وجودك ورحمتك » .

وفى اللحظة التالية ، وبينما كان الجنود يصعدون به الدرج .. صرخ صرخة عظيمة ارتجف لها جسده بأكمله .. ثم مات !

كان الرجل الذى مات لتوه هو الجندى « جيمازيدين » ، وكان الضابط الذى مضى يصرخ فى الغابة ، هو ابنه الملازم « جاليولين » .. اما الممرضة ، فقد كانت « لارا » نفسها ، واما جوردون وجيفاجو ، فقد كانا الشاهدين اللذين رأيا كل شىء ..

كل هؤلاء القوم كانوا هناك ، معا ، فى ذلك المكان . ولكن البعض منهم لم يكن قد تعارف من قبل ، بينما عجز البعض الآخر عن معرفة الآخرين . كانت هناك اشياء كثيرة قد قدر لها أن تظل مجهولة .. وكان يتعين على بعضهم أن ينتظروا فرصة أخرى ليكشفوا عن انفسهم .

انتهى الجزء الأول، ويليه الجزء الثانى الذى يبدأ بالفصل رقم ١١

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة





عزيزى القارئ ..

يسعدنى أن أقدم لك اليوم (فى ٤ أجزاء تصدر متتابعة) هذه الطبعة الجديدة من الترجمة « الكاملة » الأمينة لملحمة العصر الحالى « دكتور چيفاجو » التى ألفها الأديب السوفييتى الكبير « بوريس باسترناك » ، وترجمها ـــ بتكليف من (مطبوعات كتابى) ـ أديبنا الكبير يحيى حقى وآخرون ، وقد كتب مقدمتها يوم صدور طبعتها الأولى فى عام ١٩٥٩ عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين . وكان باسترناك قد حصل بفضل هذه الرواية على جائزة نوبل فى الأدب فى أكتوبر عام ١٩٥٨ لكنه اضطر إلى رفض الجائزة تحت ضغط الاعتبارات السياسية ، بحكم أن الرواية تدين الثورة البلشفية الكبرى التى أنهت الحكم القيصرى فى روسيا عام ١٩١٧ ، وأرست دعائم الشيوعية فى تلك الدولة المترامية الأطراف . وكنت قد أصدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة الكاملة فى مطلع عام ١٩٥٩ ، ولم تلبث (هوليود) أن أنتجت الفيلم السينمائى الرائع المقتبس عن الرواية والذى أسندت بطولته إلى النجم المصرى العالمى عمر الشريف . فتعال معى نقرأ اليوم الجزء الأول من هذه الملحمة الخالدة التى ترجمت إلى شتى لغات العالم .



حلمى مراد

قرش جنيه